تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

المجلد الحادي عشر

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير
مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد الحادي عشر

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتنقيح

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تاليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين طه نيا
الناشر: قم. دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ. ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ
تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح ٩٨/ BP
تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ١١)
المؤلف .... السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر .... مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة .... الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة .... ستاره
عدد المطبوع .... (٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ١١) .... ٥ ـ ٢٨٧ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
السعر .... ٩٠٠/٠٠٠ ريال
قم ـ ميدان المعلم ـ شارع صمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

وتسمّى عروس القرآن. مكيّة، وقيل مدنيّة.

قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة الرّحمن رحم الله ضعفه وأدّى شكر ما أنعم الله عليه»**[1].

قال أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: **«لا تدعوا قراءة الرّحمن والقيام بها فإنّها لا تقرّ في قلوب المنافقين وتأتي ربّها يوم القيامة في صورة آدميّ في أحسن صورة وأطيب ريح حتّى تقف من الله موقفاً لا يكون أحد أقرب إلى قرب الله منها فيقول لها: من الّذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ويد من من قراءتك؟ فتقول: يا ربّ فلان وفلان وفلان فيبيضّ وجوههم فيقول لهم: اشفعوا فيمن أحببتم فيشفعون حتّى لا يبقى لهم غاية ولا أحد يشفعون له فيقول: لهم ادخلوا الجنّة واسكنوا فيها حيث شئتم»**[2].

ختم الله السورة باسمه وافتتح هذه السورة باسمه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾
ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٢٦، وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٨٧، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٥٠.

٢ـ ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، ص١١٦، ووسائل الشيعة [الإسلامية]، ج٤، ص٨٠٩، وبحار الأنوار، ج٨٩، ص٣٠٥.

رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وما بعده خبره أي الّذي له الرحمة الشاملة ووسعت رحمته كلّ شيء وفي الدعاء: رحمان الدنيا ورحيم الآخرة لأنّه عمّ الرزق في الدنيا وخصّ المؤمنين بالعفو في الآخرة، والرحمة الجنّة والعطف، ومنه الرحم للانعطاف وهو بالنسبة إلى الله إرادة الخير والإنعام بالإيجاد أولاً وبالهداية إلى الايمان وأسباب السعادة ثانياً وهذه السورة مطرّزة بطراز اسم الرّحمن. ولمّا كان القرآن أعظم النعم شأنا وإنّه مدار جميع السعادات كما قال ﷺ: أشراف أمّتي حملة القرآن. أي ملازمو قراءته وأصحاب الليل[١] وقال ﷺ: «**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**»[٢]، في القرآن جميع حقائق الكتب السماويّة.

وكان تعليمه من آثار الرحمة فقال: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ بواسطة جبرئيل وبواسطة محمّد غيره من الامّة وكما علّم آدم الأسماء كلّها فخصّ محمّداً وأمّته بخاصّة مثله ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي: أنشأه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة والبيان هو التعبير عمّا في الضمير والكشف عن الشيء.

والمراد بالإنسان آدم عن ابن عبّاس، فعلى هذا معنى علّمه البيان أي أسماء كلّ شيء واللغات كلّها قال الصادق عليه السلام: «**البيان الاسم الأعظم الّذي علم به كلّ شيء**».

١ـ من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٣٩٩، والخصال، ص٧، ووسائل الشيعة، [الإسلامية] ج٤، ص٨٢٦

٢ـ وسائل الشيعة، ج٤، ص٨٢٥، والأمالي، للشيخ الطوسي، ص٣٥٧، وبحار الأنوار، ج٨٩، ص١٨٦، وكنزالعمال، ج١، ص٥٢٥.

وقيل: المراد من الإنسان محمّدﷺ علّمه البيان أي: علّم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ مبتدء وخبر والحسبان بالضمّ مصدر بمعنى الحساب كالغفران والرجحان يقال: حسبه عدّة وباب نصر وبالكسر فبمعنى الظنّ من باب حسب بالكسر والمعنى يجريان بحساب مقدّر في بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك الجريان أمور الكائنات السفليّة ويحصل اختلاف الفصول والأوقات فالسنة القمريّة ثلاثمائة وأربعة وو خمسون يوماً والشمسيّة ثلاثمائة وخمسة وستّون يوماً وربع يوم أو أقلّ وكلمة «يجريان» محذوف لدلالة الكلام عليه. والفرض في الآية بيان النعم وخصّهما بالذكر لما فيهما من المنافع الكثيرة للناس من الضوء والضياء ونضج الثمار إلى غير ذلك.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ النجم النبات الّذي ينجم ويطلع من الأرض ولا ساق له مثل القرع ونحوه والشجر الّذي له ساق وقيل: كلّ نابت إذا ترك حتّى يبرز وانقطع فليس شجراً وكلّ شيء يبرز ولا يقطع من سنته فهو شجر ﴿يَسْجُدَانِ﴾ أي: ينقادان للّه تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقياد الساجد أو يسجد ظلّهما كما في قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾[1] وليس لنا علم بكيفيّة سجودهما كما أنّه لا نفقه تسبيح الأشياء فذكر سبحانه في مقابلة النعمتين السماويّتين اللتين هما الشمس والقمر نعمتين أرضيّتين وهما النجم والشجر وهما أصل الرزق للحيوان.

وقيل: أراد بالنجم نجم السماء وهو موحّد والمراد جميع النجوم والشجر يسجدان للّه بكرة وعشيّا. ويجوز أن يكون المعنى أنّ كلّ جسم له ظلّ فهو خاضع وخضوعه دلالته على الحدوث وإثبات المحدث المدبّر له.

١ــ سورة النحل: ٤٨.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ فوق الأرض انتصابه بمحذوف يفسّره المذكور أي خلقها مرفوعة محلًا كما هو المحسوس ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ وشرع العدل أو آلة الوزن للتوصّل لكلّ ذي حقّ حقّه حتّى ينتظم به أمر العالم وإذا كان الميزان بمعنى العدل وبه قامت السماوات والأرض فالميزان هو القرآن وإذا كان بمعنى الآلة فبه يحصل التسوية والتعديل في الحقوق من أخذهم وإعطائهم.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أشدّ مناسبة في معنى الآلة و(أن) ناصبة و(لا) نافية ولام العلة مقدّرة متعلّقة بوضع الميزان أي: وضعه لئلّا تعتدوا الإنصاف، والطغيان مجاوزة الحدّ فمن قال: المراد من الميزان في الآية العدل فطغيانه الجور ومن قال: إنّه الآلة فطغيانه البخس والنقص.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اجعلوا أوزانكم مستقيما به وراعوا المعدلة في جميع أفعالكم وأقوالكم ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ والخسر والاخسار النقص أي: لا تنقصوا الموزون والاقامة باليد والقسط بالقلب والتكرار في لفظ الميزان تشديداً للوصيّة والحثّ على العدل. قيل: إنّ مالك بن دينار دخل على جار له احتضر فقال: يا مالك جبلان من نار بين يدي أكلّف الصعود عليهما قال مالك: فسألت أهله فقالوا: كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي: خفضها مدحوّة على الماء ومبسوطة لمنافع الخلق. والأنام جمع لا واحد له من لفظه بمعنى الخلق فهي كالمهاد لهم يتقلّبون عليها وقيل: الأنام كلّ ذي روح لأنّه ينام وقيل: من ونم الذباب همس وعبّر عن الأرض بالوضع لما عبّر عن السماء بالرفع.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ في الأرض ما يتفكّه به من ألوان الثمار من الأشجار وتنكير الفاكهة تشعر باختلاف الأنواع ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ الكمّ وعاء

الثمرة وغلفها قبل التفتّق أي: النخيل الّتي صاحبات الكمّ والكمّ كلّ ما يكم ويغطّى فيه ممّا ينتفع به من ليف وجمار وكفري والجمار شحم النخل وكلّها ينتفع بها.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ والعصف هو ورق الزرع أو اليابس منه كالتبن أي وحبوب ينتفع بها وبورقها ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ يعني الرزق بلغة حمير أو ماله من الرائحة من النبات أو الريحان المعروف وهو الشاهسفرم وقيل: الريحان ما لساقه رائحة طيّبة كما لورقه مثل الآس، والورد لورقه رائحة فقط كالياسمين والجوري يقال: راح الشيء يريحه إذا وجد ريحه. في الحديث **«من قتل نفساً معاهدة لم يرح رائحة الجنّة».**[1] والريحان في الأصل رويحان كفعيلان من روح قلبت الواو ياء وادغم ثمّ خفّف بحذف عين الفعل كما في ميّت.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للثقلين أي الجنّ والإنس المدلول عليهما قوله: ﴿لِلْأَنَامِ﴾ لعمومه لهما وسينطق به قوله: ﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ وأيضا قوله: خلق الإنسان وخلق الجانّ إشعار بأنّ الخطاب لهما جميعاً والآلاء النعم الظاهرة والباطنة واحدها آلى وقيل: الآلاء النعم الظاهرة والنعم هي الباطنة والصواب أنّهما من الألفاظ المترادفة كالأسود والليوث، والفلك والسفن.

روي عن جابر بن عبد الله قال: قرأ علينا رسول الله سورة الرّحمن حتّى ختمها فقال: **«مالي أراكم سكوتا؟ الجنّ كانوا أحسن منكم ردّاً ما قرأت عليهم هذه الآية مرّة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلّا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربّنا نكذّب فلك الحمد»**[2]. وفي الآية دلالة على أنّ الجنّ مكلّفون وزعمت الحشويّة أنّهم مضطرّون إلى أفعالهم وأنّهم ليسوا بمكلّفين والدليل على أنّهم مكلّفون ما في القرآن من ذمّ الشياطين ولعنهم وذكر ما أعدّ الله لهم من

١ـ كنزالعمال، ج١٠، ص٢٣٤.

٢ـ كنزالعمال، ج٢، ص٣٢٥، وبحار الأنوار، ج٦٠، ص١١٧، والمستدرك، ج٢، ص٤٧٣.

العذاب وهذه الأمور لا يحصل إلّا لمن خالف الله وخالف الأمر والنهي وارتكب الكبائر مع تمكّنه من أن لا يفعل ذلك.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ من طين يابس كالمفخور في النار بحيث إذا تمسّه يتصلصل وله صوت وصلصلة يسمع من يبسه والفخّار الخزف والطين المطبوخ بالنار وتشبيهه بالفخّار لصوته من يبسه إذا نقر ولأنّه أجوف.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ الجانّ أبو الجنّ أو الجنّ أو إبليس والمرج هو المختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الّذي يعلو النار إذا وقّدت من مرج القوم إذا اختلط واضطرب فمعنى ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي: من لهب مختلط ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيان لمارج قيل: خلق الجنّ من مارج من نار والملائكة من نورها والشياطين من دخانها وقال بعضهم: خلقوا من النار الّتي بين الكلة الرقيقة وبين السماء وفيها يكون البرق وقيل: المارج النار المخلوطة الممتزجة بالهواء فحينئذ الجنّ من عنصر النار والهواء والإنسان من عنصر التراب والماء وهو الطين.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ممّا أفاض عليكما من سوابغ النعم.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ خبر مبتدء محذوف أي: الّذي أصنع هذه الأفاعيل البديعة ربّ مشرقي الصيف والشتاء ومغربيها وذلك مثل قولك في وصف ملك عظيم: له المشرق والمغرب فإنّه يفهم منه أنّ له ما بينهما أيضاً، وأحد المشرقين هو الّذي تطلع منه الشمس في أطول يوم السنة والثاني: الّذي تطلع منه في أقصر يوم من السنة وبينهما مائة وثمانون مشرقاً بعدد أيّام السنة وكذا الكلام في المغربين وقيل: أحد المشرقين للشمس والثاني للقمر وكذا المغربان والمراد من قولهم: ما بين المشرق والمغرب ميلة يعني لأهل المشرق وهو أن تجعل مغرب الصيف على يمينك ومشرق الشتاء على يسارك فتكون مستقبل القبلة.

القميّ روى عن الصادق عليه السلام: **«أنّ المشرقين رسول الله وأمير المؤمنين، والمغربين الحسن والحسين»**[1].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفي ذلك من اختلاف المشارق فوائد لا تحصى من اعتدال الهواء وتغيير الفصول وحدوث ما يناسب في كلّ فصل في وقته.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ مرجت الدابّة إذا أرسلتها للرعي والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب وتطرّق المالح في العذب والعذب في المالح حال كونهما متجاورين ويتماسّ سطوحهما و﴿يَلْتَقِيَانِ ﴾ كدجلة مثلاً تدخل البحر فتشقّه فيجري في خلال البحر فراسخ لا يتغيّر طعمها.

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ وحاجز من قدرة الله ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصيّة مع أنّ شأنهما الاختلاط على الفور بل يبقيان زماناً يسيراً وقيل: المراد من البحرين بحر السماء وبحر الأرض فإنّ في

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٣٤٣، وتفسير الصافي، ج٥، ص١٠٨.

السماء بحراً يمسكه الله بقدرته ينزل منه المطر فيلتقيان في كلّ سنة وبينهما حاجز يمنع بحر السماء من النزول وبحر الأرض من الصعود وينزل من بحر السماء المطر وقيل: إنّهما بحر فارس وبحر الروم فإنّ آخر طرف هذا يتّصل بآخر طرف ذاك والبرزخ بينهما الجزائر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وليس في البحرين من الفوائد شيء يقبل التكذيب. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤ كبار الدرّ والمرجان صغاره أو المرجان الخزر الأحمر المشهور يقال: يلقيه الجنّ في البحر وفي خريدة العجائب: اللؤلؤ يكون في بحر الهند وفارس والمرجان ينبت في البحر كالشجر وإذا كلس المرجان عقد الزيبق فمنه أبيض ومنه أحمر ومنه أسود وهو يقوّي البصر كحلاً وينشف رطوبة العين. واعلم أنّه إن أريد بالبحرين بحر فارس وبحر الروم فلا حاجة في قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ إلى التأويل إذا اللؤلؤ والمرجان بمعنييه يخرجان منهما وقال بعضهم: يخرج من الأجاج من المواضع الّتي يقع فيها المياه العذبة من الأنهار فيناسب إسناد ذلك إليهما وهذا مشهور عند الغوّاصين.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لأنّ الجواهر الثمينة من نعماء الله لخلقه حيث يتحلّون بها قال ابن عبّاس وجماعة: إنّ تكوّن هذه اللآلي في البحر بنزول المطر لأنّ الصدف تفتح أفواهها للمطر فتكون الأصداف كالأرحام للنطف ولذلك أنّ السنة إذا أجدبت قلّت الأصداف وهزلت الحيتان فضمير منهما للبحرين باعتبار الجنس.

وقيل: البحران عليّ وفاطمة عليهما السلام والبرزخ النبيّ صلى الله عليه وآله ويخرج منهما الحسن والحسين عليهما السلام. قال صاحب «روح البيان»: وعن الصادق: «**عليّ وفاطمة بحران عميقان لا يبغيان أحدهما على صاحبه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان الحسن**

والحسين»[1]. وفي «المجمع» أيضاً ذكر هذه الرواية عن سعيد بن جبير وسلمان الفارسيّ وسفيان الثوري[2].

وقيل: هما الدنيا والآخرة والبرزخ القبر وقيل: الحياة والممات، والأجل البرزخ.

وقال بعض أهل التأويل: الخوف والرجاء ويخرج منها الورع والتقوى.

وقال ابن عطا: بين العبد والربّ بحران عميقان: أحدهما بحر النجاة وهو الدّين والقرآن وبحر الهلاك وهو الدنيا ومن اعتصم بحبل اللّه نجى ومن ركن إلى الدنيا هلك وردى.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ﴾ اللام لام الملك أو لام الاستحسان والتعجّب مثل قوله: للّه أبوك وللّه درّك والجوار بكسر الراء أصله الجواريّ بالياء جمع جارية بمعنى السفن أقيمت الصفة مقام الموصوف وسمّيت السفينة جارية لأنّ شأنها الجري في البحر وإن كانت واقفة في الساحل كما تسمّى المملوكة أيضاً جارية لأنّ شأنها الجري والسعي في حوائج سيّدها، والمراد بالمنشآت المرفوعات الشرع يقال: أنشأه إذا رفعه أو مرفوعات على الماء أو المنشآت معناها المصنوعات وقرئ منشئات بكسر الشين أي تنشئ الموج بصدرها ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ جمع علم وهو الجبل الشاهق لأنّ السفن في البحر كالجبال في البرّ.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق موادّ السفن والإرشاد إلى أخذها ونفعها وحصول التجارات والمعاملات المفيدة بسببها.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الهاء كناية عن غير مذكور وهو الأرض كقولهم: ما بين لابتيها وهم في المدينة وإنّما جاز ذلك لكونه معلوما أي كلّ من على

١ـ نورالثقلين، ج٥، ص١٩١، وينابيع المودة، ج١، ص٣٥٤، وتفسير فرات الكوفي، ص٤٦٠.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٣٦.

الأرض من حيوان فهو هالك ويفنون. ولمّا نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلكت بنو آدم فلمّا نزلت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[1] أيقنوا بهلاك أنفسهم فإن لهم أرواحاً وأجساماً لطيفة وأرواحهم ليست مجرّدة عن تلك الأجسام اللطيفة فهم ذوات الأنفس.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: الباقي ذاته ومنه قولهم: كرّم الله وجهه أي ذاته والوجه العضو المعروف استعير للذات لأنّه أشرف الأعضاء ومجمع أغلب المشاعر وموضع السجود ويجوز أن يكون الوجه بمعنى القصد فحينئذ المعنى كلّ من عليها من الثقلين وما اكتسبوه من الأعمال هالك إلّا ما توجّهوا به جهة الله وعملوه ابتغاء مرضاته وعلى هذا المعنى. قال الشيخ أكبر- وهو من علماء العامّة- إنّ الضمير في وجهه راجع إلى الشيء. ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ صفة وجه أي ذو الاستغناء المطلق والعظمة في ذاته وصفاته وفي الحديث: «**ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام الإلظاظ اللزوم والإلحاح**». وعنهﷺ أنّه مرّ برجل وهو يعليّ ويقول: يا ذا الجلال والإكرام قال: «**استجيب لك الدعاء**»[2]،فالدعاء بهاتين الكلمتين مرجوّ الإجابة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن قيل: أيّ نعمة في الإفناء؟ فالجواب أنّ النعمة التسوية بين الحقّ فيه وإنّه وصلة إلى الثواب وتصل بين الصواب والعمل بالفناء ليفعل الطاعة لحسنها فيستحقّ الثواب ولو عجّل الثواب لصار الإنسان ملجئاً إلى العمل ولم يستحقّ الثواب.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يسألونه حوائجهم والرزق والمغفرة كما أنّ أهل السماء أيضاً يسألونه في وجوداتهم حدوثاً وبقاء وسائر أحوالهم

١ـ سورة آل عمران: ١٨٥.

٢ـ كنزالعمال، ج٢، ص٦٢٧، ورياض السالكين، ج٣، ص٩٨، والكشاف، ج٤، ص٤٦.

سؤالاً مستمراً بلسان الحال والمقال فإنّ الخلق كافّة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرّع عليه من الكمالات بالمرّة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهيّة من علائق اللطف لم يشمّوا رائحة الوجود أصلاً فهم مستمرّون في كلّ آن على السؤال. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي: كلّ وقت من الأوقات والمراد بطن الزمان في الحقيقة وهو اليوم الإلهيّ الّذي هو الآن وهو غير منقسم في شأن من الأشؤن من الإعطاء والمنع والفقر والغنى ويأتي بأحوال منها ويذهب بأحوال منها من العزّة والذلّة والصحّة والمرض ونحو ذلك حسب ما تقتضيه الحكمة البالغة وفي الحديث: **«من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ويضع قوماً وسوق المقادير إلى المواقيت»**. قال ﷺ: **«إنّ الربّ لينظر إلى عباده كلّ يوم ثلاثمائة وستّين نظرة يبدئ ويعيد وذلك من حبّه خلقه»**.[1] وعن عيينة إنّ الدهر كلّه عند الله يومان أحدهما: اليوم الّذي هو مدّة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي، الإماتة والإحياء والآخر يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب والثواب والعقاب قيل: نزلت الآية في اليهود حين قالوا: إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئاً فردّ عليهم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع مشاهدتكم من الإيجادات من كتم العدم إلى الوجود.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ وهذا الكلام مستعار من قول المهدّد لصاحبه مثل قولهم: سأفرغ لك أي سأتجرّد لعقوبتك وأقصد والخطاب للمجرمين من الطائفتين وحاصل المعنى أنّ عند انتهاء الشؤون نجازيكم ولا يبقى إلّا شأن واحد وهو جزاؤكم ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وإنّ الجنّ والإنس جعلا أثقالا أي محمولة على الأرض وجعل ما سواهما كالعلاوة أو لرزانة آرائهما أو لأنّهما

١ـ كنزالعمال، ج٤، ص٢٥٥.

مثقّلان بالتكليف أو لعظم قدرهما في الأرض كما في الحديث: «**إنّي تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي**»[1].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الّتي من جملتها البيان والبيّنة بأمور سيلقونه يوم القيامة للتحذير عمّا يؤدّي إلى سوء الحساب وإنّ في التحذير عنهما نعمة عظيمة.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

المعنى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ خوطبا باسم جنسهما والمعشر الجماعة العظيمة سمّيت به لبلوغه غاية الكثرة فإن العشر العدد الكامل الكثير الّذي لا عدد بعده إلّا بتركيبه بما فيه من الآحاد تقول: أحد عشر وعشرون وثلاثون أي اثنتا عشرات وثلاث عشرات ولذا سمّي العدد الكثير معشرا كأنّه قيل: محلّ العشر الّذي هو الكثيرة الكاملة وتقديم الجنّ في الذكر لتقدّم خلقه والإنس

١ـ بصائرالدرجات، ص٤٣٢، والأمالي، للصدوق، ص٥٠٠، ومسند أحمد حنبل، ج٣، ص١٧، والمستدرك للنيسابوري، ج٣، ص١٤٨، وغيرها من الأسانيد العامة والخاصة، والحاصل: هذا الحديث متواترٌ لفظاً ومعناً بين المسلمين.

على الجنّ في قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾[1]، لفضله. إن قدرتم على الجواز والخروج والخصوص من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله فارّين من حكمه.

﴿فَٱنفُذُواْ﴾ واخرجوا منها وأخلصوا أنفسكم من عقابي ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ ولا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ وبقوّة وأنتم بمعزل عن القدرة روي أنّ الملائكة تحيط بجميع الخلائق فيهرب الإنس والجنّ فلا يأتون وجهاً إلّا وجدوا الملائكة أحاطت فتقول الملائكة لهم ذلك فكما لا يقدر أحد على الفرار يوم القيامة كذلك لا يقدر في الدنيا فيدركه الموت.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من التنبيه والتحذير والعفو مع كمال القدرة على العقوبة.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ هو لهب خالص لا دخان فيه أو دخان النار وحرّها كما في القاموس وذلك حين يساق إلى المحشر عن ابن عبّاس، أي يرسل عليكما لهب خالص بلا دخان ويسوقكم إلى المحشر عن ابن عبّاس. والتنوين فيها للتفخيم والتشديد ﴿وَنُحَاسٌ﴾ صفر مذاب يصبّ على رؤوسهم وقيل: دخان، عن ابن عبّاس ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: لا يمنعان من ذلك العذاب.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من بيان عاقبة الكفر والشرك والمعاصي وأيّ نعمة أكمل من تحذير الإنسان ممّا يؤول أمره إلى مثل هذا العذاب.

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ وانصدعت يوم القيامة وانفكّ بعضها من بعض لقيام الساعة أو صارت أبواباً لنزول الملائكة كقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ

١ـ سورة الإسراء: ٨٨.

﴿وَنُزِّلَ الْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾[1] ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: فصارت السماء كوردة حمراء في اللون وهي الزهرة المعروفة الّتي تشمّ أو هو الفرس الأبيض الّذي يضرب إلى الحمرة فتصير السماء كالوردة في لونها. ثمّ يجري ﴿كَالدِّهَانِ﴾ خبر ثان لكانت وهو جمع دهن أو اسم لما يدّهن به كالإدام لما يؤتدم به أي تذوب وتجري كذوبان الدهن وجريه وجواب إذا محذوف تقديره لرأيت أمراً هائلاً عظيماً.

روى مسعدة بن صدقه عن كليب قال: كنّا عند أبي عبد اللّه فأنشأ يحدّثنا فقال: **«إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد ويوحي إلى السماء الدنيا أن اهبطي بمن فيك فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الملائكة والجنّ والإنس ثمّ يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرّتين فلا يزالون كذلك حتّى يهبط أهل السماوات السبع فينظر الجنّ والإنس فإذا قد أحاط بهم سبعة أطواق من الملائكة»**[2].

وقيل: الدهان الأديم الأحمر وجمعه أدهنة وقيل: هو عكر الزيت يتلوّن ألوانا أحيانا قال الفرّاء: شبّه سبحانه تلوّن السماء بالدهان أي تتلوّن السماء مثل تلوّن الوردة من الخيل، والفرس الورد يكون في الشتاء أحمر لونه وفي الربيع أصفر وفي الشتاء[3] أغبر فكذلك السماء فشبّهها في اختلاف ألوانها بالفرس الورد.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع عظم شأن الآلاء.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: يوم انشقاق السماء حسب ما ذكر لا يسأل عن ذنبه لأنّهم يعرفون بسيماهم فلا يحتاج في تمييز المذنب

١ـ سورة الفرقان: ٢٥.

٢ـ انظر: تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٩٤، وتفسير الصافي، ج ٥، ص ١١١، وبحار الأنوار، ج ٧، ص ٨٠.

٣ـ كذا في الأصل.

عن غيره إلى أن يسأل عن دينه وذلك أول ما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف فوجا فوجا ولا ينافي ذلك مع قوله سبحانه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]، وذلك في موقف الحساب والمناقشة ومواقف القيامة كثيرة قال ابن عبّاس: لا يسألهم هل عليهم كذا وكذا فإنّه أعلم منهم ولكن يسألهم بم عملتم كذا وكذا وعنه أيضاً لا يسألون سؤال تحقيق وإنّما يسألون سؤال تقريع وأراد بالجانّ الجنّ كما يقال: تميم ويراد ولده وطائفته.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والإخبار بما يزجر الإنسان من الشرّ هو النعمة وإنّ الانتقام من الأعداء نعمة على الأحباب ولذا ورد الحمد عقيب العقوبة كما قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ السيماء بالقصر والمدّ العلامة والجملة استيناف يجري مجرى التعليل لعدم السؤال أي لا يحتاج إلى السؤال لأنّهم يعرفون بسواد الوجوه وزرقة العيون وما يعلوهم من الكآبة والحزن كما يعرف الصالحون بأضداد ذلك.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ الناصية مقدّم الرأس ولعلّ المراد شعرها يأخذ الملائكة بشعور مقدّم رأسهم وأقدامهم أو يؤخذ بجمع نواصيهم وأقدامهم في سلسلة من وراء ظهورهم فيقذفونهم في النار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من الزواجر.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي: يدورون بين النار ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: ماء بالغ في الحرارة أقصاها يصبّ عليهم أو يسقون منه يدورون من النار إلى الحميم

١ـ سورة الحجر: ٩٢.

٢ـ سورة الأنعام: ٤٥.

ومن الحميم إلى النار من أنى يأني آن مثل قضى يقضي قاض وقيل: معنى «الآن» الحاضر وفي تفسير عليّ بن إبراهيم أي لها أنين من شدّة حرّها. يسلّط عليهم الجوع فيؤتى بهم إلى الزقّوم الّذي طلعها كرؤوس الشياطين فأكلوا منها من شدّة الجوع فأخذت في حلوقهم فاستغاثوا بالماء فأوتوا به من الحميم فإذا قرّبوه إلى وجوههم تناثر لحم وجوههم ويشربون من الحميم فتغلي أجوافهم ويخرج جميع ما فيها ثمّ يلقى عليهم الجوع فمرّة يذهب بهم إلى الحميم ومرّة إلى الزقّوم وهكذا.

قال كعب الأحبار: إنّ وادياً من أودية جهنّم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتّى يخلع أوصالهم ثمّ يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من هذه المواعظ النافعة الّتي توجب بعثاً وحثّاً على فعل ما يستحقّ به الثواب وتحفّظا عمّا يستلزم العذاب.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾
فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ
قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ
ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

المقام اسم مكان ولكن ليس لله مكان، ومقامه تعالى موقفه الّذي يقف

فيه العباد للحساب كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] والإضافة للاختصاص الملكيّ إذ لا ملك يومئذ إلّا للّه ويدخل في عموم الآية من يهمّ بالمعصية فيذكر اللّه فيدعها من مخافة اللّه ﴿جَنَّتَانِ﴾ جنّة للخائف الإنسيّ وجنّة للخائف الجنّيّ فإنّ الخطاب للفريقين لكنّ الأصوب أن يكون المعنى كلّ أحد منهما جنّتان جنّة لعقيدته وأخرى لعلمه أو جنّة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي أو جنّة يثاب بها وأخرى يتفضّل بها عليه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقوله: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مقام شهود ربّه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من نعمة الفناء في اللّه ونعمة البقاء باللّه وبهذا المعنى كما يقول لعائشة حين يغيب عن حسّه: كلّميني، للتبليغ والإرشاد.

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ صفة لجنّتان وما بينهما اعتراض بينهما وتنبيه على أنّ تكذيب كلّ من الموصوف والصفة موجب للإنكار والتوبيخ وذواتا تثنية ذات بمعنى صاحبة وأصلها ذويه مؤنّثة ذوي وفي تثنيتها لغتان الردّ على الأصل وهو ذواتا والتثنية على اللفظ فيقال: ذاتا والأفنان جمع فنّ أي من الأشجار والثمار أو جمع فنن وهو الغصن المستقيم طولا ويشعب من فروع الشجر كأنّه قيل: ذواتا أشجار وأغصان وأظلال وأثمار وعلى معنى الفنّ أيضاً يستقيم المعنى. قال الشاعر:

ومن كلّ أفنان اللذاذة والصبا ... لهوت به والعيش أخضر ناضر[٢]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وليس فيها شيء يقبل التكذيب.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ صفة أخرى لجنّتان أي: في الجنّتين عينان تجريان من جبل من مسك قال ابن عبّاس: تجريان من الماء الزلال: أحدهما: التسنيم

١ـ سورة المطففين: ٦.

٢ـ الكشاف، ج٤، ش ص٤٩، وتفسير النسفي، ج٤، ص٢٠٤.

والاخرى: السلسبيل قيل: وتجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة اللّه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ﴾ صنفان وضربان متشاكلان كتشاكل الذكر والأنثى كالرطب واليابس فلذلك سمّاهما زوجين ضرب معروف عندهم وضرب من شكله غريب لم يعرفوه في الدنيا.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال لأهل الجنّتين أي قاعدين كالملوك جلسة راحة معتمدين ﴿عَلَىٰ فُرُشِۭ﴾ جمع فراش وهو ما يبسط ويستمهد للجلوس والنوم ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ قرئ بحذف الألف وكسر النون وقرئ بإسكان النون وكسر الألف وقطعها والبطانة من الثوب ضدّ الظهارة والإستبرق ما غلظ من الديباج من البريق وهو الإضاءة وقيل: من البرقة وهو اجتماع ألوان فإذا كان بطائنها كذلك فما ظنّك بظهائرها؟ لأنّ الظهارة في الملبوس أشرف وأعلى وقيل: ظهائرها من سندس أو من نور.

﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ جنى اسم بمعنى المجنيّ كالقبض بمعنى المقبوض ودان من الدنوّ وهو القرب أي: ما يتجنّى من أشجارها قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع تدنو الشجرة حتّى يجتنيها وليّ اللّه بل قيل: إنّ تلك الثمار يقع في الفم بلا أخذ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من هذه الآلاء اللذيذة الباقية.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ في الجنان أو في الفرش قاصرات الطرف من إضافة الفاعل إلى منصوبه ومتعلّق القصر وهو قوله: «على أزواجهن» محذوف للدلالة عليه والمعنى نساء يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا تبصرن إلى غيرهم وتقول كلّ منهنّ لزوجها: وعزّة ربّي ما أرى في الجنّه شيئاً أحسن منك فالحمد للّه الّذي جعلك زوجي وجعلني زوجك وقيل: معنى

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ هو أن يقصر الطرف عنها من ضوء نورها أو المعنى إنّهن من الحياء والدلال والغنج عيونهنّ مقصورة وليست في غاية الانفتاح حتّى يستلزم شيئاً في الجملة في العين.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ طمثت المرأة إذا افتضّها الرجل بالتدمية وأخذ بكارتها فالطمث الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر ثمّ أطلق على كلّ جماع طمث وإن لم يكن معه دم وفي القاموس الطمث المسّ والمعنى لم يمسّهنّ أحد من الإنس ولا أحد من الجنّ وهذا دليل على أنّ الجنّ يطمثون كما يطمث الإنس وحاصل المعنى أنّ الحور الّتي جعلت للمؤمنين الخائفين من الله لم تنلها يد الإنس قبل ذلك والّتي جعلت للمؤمنين من الجنّ كذلك لم تنلها يد الجنّ قبل ذلك.

وفي الآية دلالة على وقوع الطمث للجنّ في الدنيا ولكن ليس لهم ماء كماء الإنسان بل لهم هواء بدل الماء وبه يحصل العلوق في أرحام إناثهم وهذا يستدعي أن لا تصلح المناكحة بين الإنس والجنّ وكذا العكس هذا قول الجمهور من المفسّرين. وقال الشعبيّ والكلبيّ هنّ من نساء الدنيا أي لم يجامعهنّ بعيد النشأة الثانية أحد سواء كنّ في الدنيا ثيبات أو أبكاراً.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من هذه النعم الّتي هي لتمتّع نفوسكم.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صفة لقاصرات الطرف قد سبق بيان المرجان وأمّا الياقوت فهو حجر صلب شديد اليبس رزين صاف منه أحمر وأبيض وأصفر وأخضر وأزرق ولا تعمل فيه النار لقلّة دهنيّته ولا يثقب غالباً لغلظة رطوبته ولا تعمل فيه المبارد لصلابته سيّما الأحمر منه وبعده الأصفر أصبر على النار من سائر أصنافه وأمّا الأخضر منه فلا صبر له على النار وفي الطبّ أنفعها وأغلاها الرمّانيّ وهو الّذي يشابه النار في لونه قيل: ومن تختّم بهذه

الأوصاف أمن من الطاعون وإن عمّ الناس وأمن أيضاً من الصاعقة والغرق ومن حمل شيئاً منها أو تختّم به كان معظما عند الناس وجيها عند الملوك وأكل معجون الياقوت يدفع ضرر السمّ ويزيد في القوّة. قال الشاعر:

وبقاء السمندر في لهـب النـــ ـــار مزيل فضـيلة اليـاقوت[1]

وبالجملة شبّههنّ سبحانه بالياقوت في حمرة الوجنة والمرجان صغار الدرّ في بياض البشرة وصفائها فإنّ صغار الدرّ أنصع بياضاً من كباره.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ «هل» يجيء على أربعة أوجه: الأوّل: بمعنى قد كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾[2] والثاني: بمعنى الأمر نحو قوله[3]: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي: فانتهوا والثالث: بمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾[4] والرابع: بمعنى «ما» الجحد كما في هذه الآية ما جزاء الإحسان في العمل إلّا الإحسان في الثواب. روي أنّه قرأ رسول الله ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلخ، ثمّ قال: **«هل تدرون ما قال ربّكم؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم قال ﷺ: **«يقول هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي بقبوله توحيدي إلّا أن اسكنه جنّتي وحظيرة قدسي برحمتي»**[5].

حكي أنّ ذا النون المصري رأى عجوزاً كافرة تنفق الحبوب للطيور وقت الشتاء فقال: إنّه لا يقبل من الأجنبيّ فقالت: أفعل قبل أولم يقبل ثمّ إنّه رآها في حرم الكعبة فقالت: يا ذا النون أحسن إلى نعمة الإسلام بقبضة من الحبّ. قال

١ـ الوافي بالوفيات، ج٢٨، ص١١١، ووفيات الاعيان، ج٧، ص٤١.

٢ـ سورة الدهر: ١.

٣ـ سورة المائدة: ٩٤.

٤ـ سورة الأعراف: ٤٤.

٥ـ روضةالواعظين، ص٤٣، والأمالي، للطوسي، ص٥٦٩، وبحار الأنوار، ج٨، ص١٠٥، وكنز العمال، ج٢، ص٤٣.

بعض الأكابر: الإحسان الأنعم ولا يخصّ مثل المطر والريح والشمس والقمر.

روي أنّ العبد إذا قال: لا إله إلّا اللّه بشروطها أتت هذه الكلمة إلى صحيفة فلا تمرّ على خطيئة إلّا محتها حتّى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها. وعن أبي ذرّ الغفاري قال: قلت يا رسول اللّه دلّني على عمل يدخلني الجنّة ويباعدني عن النار. فقال ﷺ: «**إذا عملت سيّئة فاعمل بجنبها حسنة فإنّها بعشر أمثالها**»؛ فقلت: يا رسول اللّه لا إله إلّا اللّه من الحسنات؟ فقال ﷺ: «**هي أحسن الحسنات**»[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من نعمه الواصلة في الدنيا والآخرة.

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ مبتدأ وخبر أي: ومن دون تينك الجنّتين الموعودتين للخائفين جنّتان أخريان لمن دونهم من أصحاب اليمين فالخائفون قسمان: المقرّبون وأصحاب اليمين وهم دون المقرّبين بحسب الفضائل العلميّة والعمليّة فدون بمعنى الأدنى مرتبة ومنزلة لا بمعنى غير

١ـ كتاب الدعاء، الطراني، م٣٦٠، ص٤٣٩، وجامع البيان، ج٨، ص١٤٥، وتفسير القرطبي، ج١٣، ص٢٤٤، والدر المنثور، ج٣، ص٦٤.

فالجنّتان الأوليان أفضل من الأخريين لفضل المقرّبين على الأبرار وقيل: دون ليس من الدناءة بل من الدنوّ وهو القرب أي ومن دون هاتين الجنّتين إلى العرش أقرب إليه، وحمل بعض المفسّرين على معنى الغير قالوا: ولكلّ رجل وامرأة من أهل الجنّة أربع جنان في الجهات الأربع ليتضاعف له السرور بالتنقّل من جنّة إلى جنّة.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ممّا ذكر من الجنّات.

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ صفة لجنّتان ادهام الشيء يدهامّ ادهيماما فهو مدهامّ أسودّ والأدهم الأسود فقوله: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أي: علا لونهما سواد ودهمة من شدّة الخضرة والري وإن شئت قلت: خضراوان تضربا إلى السواد من شدّة الخضرة.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث تمتّع أبصاركم بخضرة هاتين الجنّتين.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ نضخ الماء اشتدّ فورانه من ينبوعه أي: في الجنّتين عينان فوّارتان بالماء لا ينقطعان وهذا يدلّ على فضل الجنّتين الأوليين على الأخريين لأنّه قال سبحانه في الأوليين: يجريان، وفي الأخيرتين: نضّاختان، والنضخ دون الجري. ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من الصفاء والريّ.

﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ عطف الأخيرين على فاكهة كعطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة بياناً لفضلهما فإنّ ثمرة النخل فاكهة قال ابن عبّاس: نخل الجنّة جذوعها زمرّد أخضر وكربها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنّة منها حللهم وثمرها كالدلاء أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس له عجم كلّما نزعت وقطعت ثمرة عادت فكأنّها اخرى وأنهارها يجري من غير أخدود. وقال عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من حبّة من الرمّان تقيم في جوف مؤمن إلّا أنارت قلبه وأخرجت شيطان الوسوسة منه أربعين

يوماً»[١]. قيل: وأجوده الكبار الحلو المليس وأظنّ أن معنى الحلو المليس ما يغلب حلاوته على طعم حموضته وهو حارّ رطب يلين الصدر ويجلو المعدة وينفع من الخفقان ويزيد في الباءة، وثمرة النخل فاكهة وغذاء والرمّان فاكهة ورواء. في «الكافي» عن الصادق عليه السلام: **«الفاكهة مائة وعشرون لوناً سيّدها الرمّان»**[٢].

في «الفقيه» عن الصادق عليه السلام: **«الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا وهنّ أجمل من حور العين»**[٣]. القميّ قال: جوار نابتات على شطّ الكوثر كلّما أخذت منها واحدة نبتت أخرى[٤] قال الصادق عليه السلام: **«في قول الرجل: جزاك خيراً يعني: به أنّ خيراً نهر في الجنّة مخرجه من الكوثر والكوثر مخرجه من ساق العرش عليه منازل الأوصياء وشيعتهم وعلى حافتي ذلك النهر جوار نابتات سمّين باسم ذلك النهر وذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ فإذا قال الرجل لصاحبه: جزاك الله خيراً فإنّما المعنى رزقك الله تلك المنازل الّتي أعدّها الله لصفوته»**[٥].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيث هيّأ لكم ما به تلتذّون من الفواكه.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ وخيرات مخفّفة من خيّرات جمع خيّرة لأنّ خير الّذي بمعنى أخير لا يجمع ولا يقال: خيرون ولا خيرات، ومعنى خيرات منتخبات ومصطفيات وليس فيهنّ ما يشينهنّ من القبائح والعاهات لا ذربات وطمّاحات ولا طوّافات ولا متشوّقات ﴿حِسَانٌ﴾ أي: حسان الخلق والخلق وفي الحديث لو أنّ امرأة من نساء أهل الجنّة أطلعت على السماوات والأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحاً ولعصابتها على رأسها

١ـ مستدرك الوسائل، ج١٦، ص٣٩٦، وبحار الأنوار، ج٥٩، ص٢٩٧، وكنزالعمال، ج١٤، ص١٨٧.
٢ـ الكافي، ج٦، ص٣٥٢، وتفسيرالأصفي، ج٢، ص١٢٤٨، وتفسيرالصافي، ج٥، ص١١٥.
٣ـ من لايحضره الفقيه، ج٣، ص٤٦٩، ووسائل الشيعة[الإسلامية]، ج١٤، ص٨٥.
٤ـ تفسيرالقمي، ج٢، ص٣٤٦، وتفسيرالصافي، ج٧، ص٧٨، وتفسيرنورالثقلين، ، ج٥، ص٢٠١.
٥ـ الكافي، ج٨، ص٢٣٠، ومعاني الاخبار، ص١٨٢، وبحار الأنوار، ج٨، ص١٦٢.

خير من الدنيا وما فيها ولو أنّ حوراء بزقت في بحر لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها ويقلن: نحن الناعمات فلا نبأس، الراضيات فلا نسخط والخالدات فلا نبيد قيل: المراد من خيرات الحوراء وقيل: المؤمنات.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقد أنعم عليكم بما تستمتعون من هذه النساء.

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ بدل من خيرات جمع حوراء وهي البيضاء أو شديدة سواد العين قصرن في خدورهنّ لا يظهرن لغير المحارم وإن لم تكن الجنّة دار التكليف. والخيام جمع خيمة وهي القبّة المضروبة على الأعواد ولا تشبه خيام الدنيا إلّا بالاسم لأنّ الخيمة من خيامهنّ درّة مجوّفة عرضها ستّون ميلا في كلّ زاوية منها أهلون ما يرون إلّا حين يطوف عليهم المؤمنون والمعنى إنّهنّ مستورات في الحجال ويصف الله جواري جنانه الّتي خلقهنّ لخدمة أوليائه وألبسهنّ لباس نوره وأجلسهنّ على سرير أنسه في حجال قدسه وضرب عليهن خيام الدرّ وينتظرن أزواجهنّ.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقد خلق من النعم ما هي مقصورة لكم.

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ كالّذي مرّ نظيره والأوّل في أزواج المقرّبين وهذا في أزواج الأبرار أو التكرار زيادة التشويق والرغبة ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع أنّها ليست كنعم الدنيا إذ قد يطمث المرأة في الدنيا فيا لها من طيب وصالها وبراعة جمالها فالعقول فيها حيارى والقلوب سكارى.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ حال صاحبه المؤمنون، رفرف اسم جمع واحده رفرفة أو اسم جنس ضرب من البسط أو الوسائد أو هو ما تدلّى من الأسرّة أو ضرب من الثياب تتّخذ منه المجالس وتبسط وفضول الفرش والرقيق من الديباج خضر جمع أخضر أحد الألوان نعت لرفرف. ﴿ وَعَبْقَرِىٍّ ﴾ عطف على رفرف والمراد الجنس قيل: عبقر موضع كثير الحسن وقرية نباتها

في غاية الحسن والعبقريّ ضرب من البسط وموضع للحسن ينسب إليه كلّ نادر من إنسان وحيوان وثوب، جعل مثلاً لفرش أهل الجنّة وفي التكملة عبقر اسم موضع يصنع فيه الوشي كانت العرب إذا رأت شيئاً عجيبا نسبته إليه فخاطبهم اللّه على عادتهم وقيل: عبقر اسم رجل كان بمكّة يتّخذ الزرابيّ ويجيدها فنسب إليه كلّ شيء جيّد «حسان» جمع حسن حملا على المعنى، وقيل: الرفرف فراش في الجنّة إذا استقرّ عليه المؤمن طاربه من فرحه وشوقه يميناً وشمالاً وحيثما يريده المؤمن.

وروي في حديث المعراج أنّ رسول اللّه لمّا بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبرئيل وطاربه نحو العرش فقال ﷺ: **«إنّه طاربي يخفضني ويرفعني حتّى وقف بي على ربّي ولمّا حان الانصراف تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به حتّى أدّاه إلى جبرئيل فالرفرف خادم في الجنّة للمؤمنين مختصّ بخواصّ الأمور»**[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد هيّأ لكم ما تتّكئون عليه. ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ تنزيه وثبوت لجلاله تعالى لما ذكر في السورة من آلائه الفائضة على المؤمنين وارتفع شأنه عن جحود نعمائه وتكذيبها وهذا الموضع ممّا أريد فيه بالاسم المسمّى أو المراد الاسم فإذا كان الاسم حاله كذلك بالتبعة فكيف المسمّى؟ ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ والعظمة والكبرياء ويكرم أولياءه بهذه الكرامات وقيل: معنى الآية فاطلبوا البركة في كلّ شيء بذكر اسمه وانطقوا بيا ذا الجلال والإكرام وداوموا عليه.

تمّت السورة بعون الله.

١ـ تفسيرالقرطبي، ج١٧، ص١٩١.

سُورَةُ الواقِعَةِ

مكيّة، إلّا آية مدنيّة وهي ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول اللّه: «**من قرأ سورة الواقعة كتب أنّه ليس من الغافلين**»[1].

وروي أنّ عثمان بن عفّان دخل على عبد اللّه بن مسعود يعوده في مرضه الّذي مات فيه فقال: ما تشتكي قال: ذنوبي. قال: ما تشهّي قال: رحمة ربّي. قال: أفلا تدعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر بعطائك؟ قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطنيه وأنا مستغن عنه؟ قال: يكون لبناتك. قال: لا حاجة لهنّ فيه فقد أمرتهنّ أن يقرأن سورة الواقعة فإنّي سمعت رسول اللّهﷺ يقول: «**من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً**»[2].

وروى العيّاشيّ بالإسناد عن زيد الشحّام عن الباقرعليه السلام قال: «**من قرأ الواقعة قبل أن ينام لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر**»[3].

عن أبي بصير عن الصادقعليه السلام قال: من قرأ الواقعة في كلّ ليلة الجمعة أحبّه اللّه وحبّبه إلى الناس ولم ير في الدنيا بؤسا أبداً ولا فقرا ولا آفة من

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٥٤، وتفسيرنورثقلين، ج٥، ص٢٠٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٥٤، وتفسيرنورثقلين، ج٥، ص٢٠٣، والتمهيد، ج٥، ص٢٦٩، وكنزالعمال، ج١، ص.٥٩٣

٣. ثواب الأعمال، ١١٧، ووسائل الشيعة، ج٤، ص٧٨٥.

آفات الدنيا وكان من رفقاء أمير المؤمنين عليه السلام.[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ
الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ
أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ
﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ
سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾

الظرف منصوب بفعل محذوف تقديره اذكروا حين وقوع الحادثة والقيامة وهي الصيحة عند النفخة الأخيرة يكون من الأحوال ما لا يفي به المقال سمّاها واقعة مع أنّ دلالة اسم الفاعل على الحال لتحقّق وقوعها.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ الهائلة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يكنّى عن الحرب بالوقعة وكلّ أمر شديد يعبّر عنه بذلك قيل: سمّيت القيامة بالواقعة لصونها أي لا يكون عند وقوعها نفس تكذّب على الله ويفتري بالشريك والولد والإنكار للقيامة إذ ليس لمجيئها كذب ويقع صدقا إذ كلّ نفس حينئذ مؤمنة صادقة وقيل: كاذبة مصدر كالعاقبة بمعنى التكذيب.

﴿خَافِضَةٌ﴾ أي: القيامة خافضة لأقوام ﴿رَافِعَةٌ﴾ لآخرين وهو تقرير لعظمة ذلك اليوم فإنّ الوقائع العظام يرتفع فيها أناس إلى مراتب ويتّضع أناس وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل وإنّ القيامة يخفض

١ـ مستدرك الوسائل، ج٦، ص١٠٥، وبحار الأنوار، ج٨٩، ص٣٠٧.

أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا ويرفع أقواماً كانوا متضعين فيها بسبب تقواهم لأنّ جماعة يؤتي بهم بالذلّة والأغلال والسلاسل وجماعة بالمراكب والحليّ والحلل.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ الرجّ تحريك الشيء واضطرابه أي يحصل الخفض والرفع إذا حرّكت الأرض تحريكاً شديدا بحيث يهدم ما كان عليها من جبل وبناء ولا تسكن زلزلتها حتّى تلقى جميع ما في بطنها على ظهرها.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي: فتّت حتّى صارت كالسويق الملتوت من بسّ السويق إذا لتّه والمعنى مأخوذ من بسّ الغنم إذا أسيقت من أماكنها.

﴿فَكَانَتْ﴾ أي: فصارت بسبب ذلك ﴿هَبَآءً﴾ غبارا والغبار ما يسطع من سنابك الخيل والّذي يرى من شعاع الكوّة وما ذرته الريح من الأوزان ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ منشرا متفرقا وفي التفسير إنّ اللّه يبعث ريحاً من تحت الجنّة فتحمل الأرض والجبال وتضرب بعضها ببعض ولا يزال كذلك حتّى تصير غباراً ويسقط ذلك الغبار على وجوه الكفّار وذلك قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾.

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ والخطاب للامّة الحاضرة والأمم السالفة لكن للحاضرة وقع الخطاب تغليبا ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ﴿ثَلَٰثَةً﴾ صنفان في الجنّة وواحد في النار.

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ تقسيم للأزواج الثلاثة ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ مبتدء وخبر ما أصحاب الميمنة على أن ماء الاستفهامية مبتدء ثان وما بعده خبره أي أيّ شيء هم في حالهم والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والعظامة نحو زيد وأيّ زيد فهم أهل المنزلة السيّئة وأصحاب المشأمة هم أصحاب المنزلة الدنيّة أخذا من التيامن بالميامن وتشوّمهم بالشمائل كما يقول: فلان منّي باليمين والشمال إذا أوصفته بالرفعة والضعة أو الّذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والّذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم أو الّذين يكونون يوم القيامة على يمين العرش

فيأخذون طريق الجنّة والّذين يكونون على شمال العرش فيجيء بهم إلى النار.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة وأصل السبق التقدّم في السير ثمّ تجوّز به في غيره من التقدّم والجملة مبتدأ وخبر، مثل قوله:

«أنا أبو النجم وشعري شعري»

أو السابقون الأوّل: مبتدأ والثاني: تأكيد له كرّر تعظيما لهم والخبر جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وقيل: التقدير السابقون ما السابقون فحذف «ما» لدلالة ما قبله عليه والمراد بالسيف الّذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة من غير توان وحازوا الكمالات الدينيّة والفضائل اليقينيّة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بذلك النعت الجليل ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ درجاتهم وعلت مراتبهم ورفعت إلى حظائر القدس نفوسهم ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: كائنين في جنّات النعيم متعلق بالمقرّبون.

وقد قيل في السابقين: المراد السابقين إلى الإيمان أو الهجرة وقيل: إلى الصلوات الخمس عن عليّ عليه السلام.[1] وقيل: إلى الجهاد وقيل: إلى التوبة وأعمال البرّ وإلى كلّ ما دعا الله إليه وعن أبي جعفر عليه السلام قال: **«السابقون أربعة ابن آدم المقتول والسابق في أمّة موسى وهو حزبيل مؤمن آل فرعون وسابق امّة عيسى وهو حبيب النجّار صاحب أنطاكية والسابق في امّة محمّد عليّ بن أبي طالب»**[2] وقال كعب: هم أهل القرآن المتوجّون يوم القيامة فإنّهم كادوا أن يكونوا أنبياء إلّا أنّهم لا يوحى إليهم والمراد بأهل القرآن الملازمون لقراءته والعاملون به وقيل: الناس ثلاثة: فرجل ابتكر الخير في حداثة سنّه ثمّ داوم عليه حتّى خرج من الدنيا فهو السابق المقرّب، ورجل ابتكر عمره بالذنب طول الغفلة ثمّ تراجع بتوبة فهذا صاحب اليمين ورجل ابتكر شرّاً في حداثة سنّه ثمّ لم يزل

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٥٨، وتفسير نورالثقلين، ج٥، ص٢٠٩.

٢ـ تفسيرنورالثقلين، ج٥، ص٢٠٩، وتفسيرالصافي، ج٥، ص١٢٠، وبحار الأنوار، ج٦٦، ص١٥٦.

عليه حتّى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: هم جماعة كثيرة العدد من الأوّلين من الأمم الماضية ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ من أمّة محمّد لأنّ من سبق إلى إجابة نبيّنا قليل بالإضافة إلى من سبق إلى إجابة الأنبياء قبله ولا يخالفه قوله ﷺ: «إنّ أمّتي يكثرون سائر الأمم».[1] أي يغلبونهم فإنّ أكثريّة سابقي الأمم السالفة من سابقي هذه الامّة لا تمنع أكثريّة تابعي هؤلاء من تابعي أولئك مثل أن يكون سابقوا أمم السابقة ألفين وتابعوهم ألف المجموع ثلاثة آلاف ويكون سابقوا هذه الامّة ألفاً وتابعوهم ثلاثة آلاف فالمجموع أربعة آلاف فرضاً وهذا المجموع أكثر من المجموع الأوّل وفي الحديث أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ حال اخرى من المقرّبين والسرر جمع سرير، المشبّكة بالدرّ والياقوت المنسوجة المتواصلة من الوضن وهو نسج الدرع واستعير لكلّ نسج محكم. ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أي: مستقرّين على سرر متّكئين عليها وقاعدين قعود الملك متقابلين لا ينظر بعضهم من أقفاء بعض وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: يدور حولهم للخدمة حال الشرب وغيره ﴿وِلْدَٰنٌ ﴾ جمع وليد وخدمة الوليد أمتع من خدمة الكبير ﴿مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي: مبقون أبداً

١ـ بحار الأنوار، ج٦٦، ص١٥٧، وتفسير البيضاوي، ج٥، ص٢٨٥.

على شكل الولدان وطراوتهم لأنّهم خلقوا للبقاء لا للفناء قيل في الأسئلة المفخمة: هؤلاء هل يدخلون تحت قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[1]؟ فالجواب أنّهم لا يموتون فيها بل يلقي بين النفختين نوم وقيل: هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابون عليها ولا سيّئات فيعاقبون عليها وقيل: أولاد الكفّار خدّام أهل الجنّة، وقيل في معنى ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: مقرطون والخلد القلادة والسوار والقرط لأنّهم في حدّ الوصافة. ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ من الذهب والجواهر لا عرى لها ولا خراطيم الواسعة الرأس ولا يعوق الشارب منها عائق عن شرب من أيّ موضع أراد منها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق وهو الّذي له عروة وخرطوم وقيل: هي عجميّة معرّبة آبريز أو الكوب للماء والإبريق للغسل والكأس للشرب من الخمر.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ من خمر جارية من العيون والكأس القدح إذا كان فيها شراب وإلّا فهو قدح ومعنى الماء إذا جرى فهو فعيل بمعنى فاعل أو المعنى ظاهرة تراها العيون في الأنهار فيكون بمعنى المفعول من المعاينة من عانه إذا شخّصه وإفراد الكأس وجمع الأكواب والأباريق لأنّ العادة جرت على تعدّد الأواني والشرب يكون بكأس واحدة ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ الصدع شقّ في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ومنه الصداع وهو الانشقاق في الرأس من الوجع أي لا ينالهم بسبب شربها صداع كما ينالهم ذلك من خمر لدنيا ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا يسكرون ولا تذهب عقولهم أو المراد لا ينفد شرابهم فالنفاد إمّا للعقل أو للشراب.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يأخذون خيره وأفضله من ألوانها وهو عطف على قوله: ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي: يطوف عليهم ولدان بفاكهة ثمّ ذكر اللحم الّذي هو سيّد الإدام.

١ـ سورة آل عمران: ١٨٥.

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي: يتناولون من لحوم الطير مشوياً أو مطبوخاً بما يشتهون منها على حسب ميلهم وإرادتهم لا أنّهم مضطرّون وكارهون بل مشتهون.

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ عطف على ولدان أو مبتدء محذوف الخبر أي ولهم حور عين وحور جمع حوراء وهي الشديدة بياض العين والشديدة سوادها وعين جمع عيناه وهي الواسعة الحدقة الحسنة ﴿ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ صفة لحور، مثل الدرّ المصون في الصدف لم تمسّه الأيدي.

﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ مفعول له أي يفعل بهم ذلك جزاء بأعمالهم في الدنيا ويروى أنّ عقد ياقوتها يضحك في نحرها وفي رجيلها نعلان شراكهما من لؤلؤ تصوّتان بالتسبيح على كلّ حوراء سبعون حلّة ليست منها حلّة على لون الاخرى وسبعون لوناً من الطيب ليس منها لون على لون الآخر لكلّ امرأة سبعون سريرا من ياقوت أحمر منسوجة بالدرّ على كلّ سرير سبعون فراشاً بطائنها من إستبرق وفوق السبعين فراشاً سبعون أريكة لكلّ امرأة منهنّ سبعون وصيفة بيد كلّ وصيفة صفحتان من ذهب فيها لون من طعام يجد لآخر لقمة منه لذّة لا يجدها لأولها ويعطي لزوجها مثل ذلك على سرير من ياقوت أحمر عليه سوارات من ذهب موشّح بالجواهر.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أي: باطلاً واللغو السقط من الكلام وما لا يعتدّ به وما يرد من الكلام لا عن رويّة وفكر واللغا صوت العصافير ونحوها من الطيور ﴿وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ أي: لا يقال لهم: أثمتم والإثم اسم للأفعال البعيدة عن الثواب.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ والاستثناء منقطع أي: لكنّهم يسمعون فيها قولاً سلاما سلاما أي سماعهم السلام فيسلّمون سلاما بعد سلام ولا يسمع كلّ من المسلّم والمسلّم عليه إلّا سلام الآخر بدءاً ورداً المشتمل على السلامة من الزوال والنقائص. قال الشاعر:

سلام من الرحمن نحو جنابه فإنّ سلامي لا يليق ببابه[1]

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

شروع في تفصيل ما أجمل في التقسيم بعد بيان شؤون السابقين فقال:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ مبتدء وخبره جملة قوله: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: لا تدري ما لهم من الخير بسبب كوامل محاسنهم ﴿فِي سِدۡرٖ﴾ أي: هم في سدر ﴿مَّخۡضُودٖ﴾ غير ذي شوك ليس كسدر الدنيا كأنّه خضد ونزع عنه شوكه أو المعنى تثنى أغصانه لكثرة حمله من حصد الغصن إذا ثنّاه والسدر شجر النبق ثمر معروف عند العرب محبوب ويستظلّ به فجعل ذلك مثلاً بظلّ أهل الدنيا ونعيمها.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ قد نضد حمله وتراكب بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه ليست له سوق بارزة وهو شجر الموز وهو شجر له أوراق كبار وظلّ بارد وقيل: هو أمّ غيلان له أنوار كثيرة منتظمة طيّبة الرائحة تقصد العرب منه النزهة وإن كان لا يؤكل منه شيء قال مجاهد: كان لأهل الطائف واد معجب فيه الطلح والسدر وقالوا: يا ليت لنا في الجنّة مثل هذا الوادي! فنزلت هذه الآية.

﴿وَظِلٍّ مَّمۡدُودٖ﴾ ممتدّ لا ينقص ولا يتفاوت مثل ما بين الطلوعين وفي الحديث: في الجنّة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام ولا يقطعها. ويمكن أن يراد من معنى الظلّ الحفظ يقول: فلان في ظلّ فلان أيّ كنفه وحفظه

١ـ الحبل المتين، ص٢٦٣، ونورالبراهين، ج ١، ص٣٦.

ويمكن أن يكون المراد من الظلّ الراحة كما في قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[١] لأنّه إنّما يجلس المرء في الظلّ للاستراحة.

﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ أي: يصبّ أينما شاءوا وكيفما أرادوا بلا تعب ومسكوب سائل تجري على الأرض من غير أخدود.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ بحسب الأنواع والأجناس ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ في وقت من الأوقات كفواكه الدنيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عن متناوليها بوجه من الوجوه من العبد والشوك أو حائط يمنع عن التناوش.

﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ أي: رفيعة القدر أو مرتفعة وارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام أو مرفوعة على الأسرة وقيل: الكناية عن النساء رفعت عن نساء الدنيا جمالا وشأنا، في الحديث الولد للفراش وحينئذ ارتفاعها كونهنّ على الأرائك بقرينة قوله: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ وعلى المعنى الأوّل لدلالة ذكر الفرش الّتي هي المضاجع عليهنّ والمعنى ابتدأنا خلقهنّ ابتداء جديداً من غير ولادة. وفي الحديث: **«هنّ اللواتي قبضن في الدنيا عجائز شمطاً رمصاً شميطاً جمع شمطاء والشمط بياض شعر الرأس يخالطه سواد ورمص جمع رمصاء والرمص بالتحريك وسخ يجتمع في الموق جعلهنّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد كلّما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً فلمّا سمعت عائشة ذلك فقالت: وا وجعاه فقال ﷺ: ليس هناك وجع»**[٢].

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ بعد أن كنّ عجائز أبكارا أي: عذارى، جمع بكر والمصدر البكارة بالفتح؛ والبكرة أوّل النهار لتقدّمها على سائر أوقات النهار وسمّيت الّتي لم تفتضّ بكرا اعتباراً بالشيب لتقدّمها عليها.

١ـ سورة النساء: ٥٧.

٢ـ تفسيرنورالثقلين، ج٥، ص٢١٩، وتفسيرالقرطبي، ج١٧، ص٢١١.

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ جمع عروب كرسل جمع رسول أي: تبيّن محبّتها لزوجها بشكل وغنج وحسن تعرّبه بمحبّة زوجها وقيل: كلامهم عربيّ أترابا جمع ترب أي: مستويات في السنّ واللذة في سنّ ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهنّ والقامة ستّون ذراعاً في سبعة أذرع على قامة أبيهم آدم وفي الحديث: **«إنّ الرجل ليفتضّ في الغداة سبعين عذراء ثمّ ينشئهنّ الله أبكارا»**. قال ﷺ: **«إنّ الرجل من أهل الجنة ليتزوّج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف ثيب وثمانية آلاف بكر يعانق كلّ واحدة منهنّ مقدار عمره في الدنيا. وأدنى أهل الجنة الّذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبّة من الجواهر كما بين الجابية إلى صنعاء. والجابية بلد بالشام»**[1].

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ متعلّق بأنشأنا ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: هم امّة من الأولين وامّة من الآخرين وقيل: المراد من الثلّتين امّة محمّد ﷺ وعلى هذا القول الثلاثة الأولى المقدّمون في التقوى والتابعون بإحسان ومن يجري مجراهم وأمّا الّذين أنزل منهم في العمل فهم الثلاثة الأخيرين روي أنه ﷺ قال: **«إني لا أرجو أن يكونوا شطر أهل الجنة»**. ثمّ تلا: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ قال الحسن البصريّ: رأيت سبعين بدريّاً كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم وكانوا بالبلاء أشدّ منكم فرحا بالرخاء لو رأيتموهم قلتم: مجانين ولو رأوا أخياركم قالوا: ما لهولاء من خلاق ولو رأوا أشراركم حكموا بأنّهم لا يؤمنون بيوم الحساب إن عرض عليهم الحلال من المال تركوه خوفاً من فسادهم قلوبهم.

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ

١ـ كنز العمال، ج ١٤، ص٤٧٦، وتفسير البغوي، ج ٤، ص ٢٨٤.

عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ
مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾
فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ شروع في تفصيل أحوالهم وهم الكفّار لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: لا تدري ما لهم من شدّة الحال يوم القيامة.

﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ أي: هم في حرّ نار ينفذ في المسامّ وثقوب البدن والسموم الريح الحارّة يكون غالباً في النهار والحرور الريح الحارّة يكون بالليل والحميم الماء المتناهي في الحرارة والفور.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دخان أسود بهيم يقول العرب أسود يحموم إذا كان شديد السواد ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ولا نافع من أذى الحرّ لمن يأوي إليه نفى بذلك ما أوهم الظلّ من الاسترواح، وفي الآية تهكّم بأصحاب المشأمة أنّهم لا يستأهلون للظلّ البارد.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ تعليل لابتلائهم، ترف أي: تنعّم وأترفته النعمة أطغته أي: إنّهم كانوا قبل ذلك ممّا ذكر من سوء العذاب شغلوا أنفسهم بالنعم وتركوا الواجبات طلباً لراحة أبدانهم منهمكين في الشهوات.

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الذنب العظيم الّذي هو الشرك ومنه بلغ الغلام الحنث أي وقت المؤاخذة بالذنب وحنث في يمينه خلاف برّ فيها وقيل: الحنث هنا الكذب لأنّهم كانوا مع شركهم يحلفون باللّه لا يبعث اللّه من يموت.

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ﴾ لغاية جهلهم وعتوّهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ بعد الموت وكان أعضاؤنا من اللحم والجلد تراباً وبعضها عظاماً وتقديم التراب على العظام للاستبعاد ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: لا يكون البعث لنا ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الواو للعطف على الضمير في مبعوثون ومرجع المعنى أنّنا وآباءنا لا نبعث بعد تلك الحالة.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ردّاً لهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأمم الّذين من جملتهم أنتم وآباؤكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ والتعدية بإلى ضمّن فيه معنى السوق معلوم عند اللّه وقته والإضافة بمعنى من كخاتم فضّة والميقات هو الوقت المضروب للشيء ينتهي عنده أو يبتدأ منه والميقات قد يستعار للمكان ومنه مواقيت الإحرام للحدود المعيّنة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ وثمّ للتراخي زماناً أو رتبة الخطاب لأهل مكّة وأمثالهم ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهداية والصواب ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بآيات اللّه والبعث ﴿لَءَاكِلُونَ﴾ بعد الجمع والبعث ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ من الأولى لابتداء الغاية والثانية بيانيّة أي مبتدئون الأكل من شجر هو الزقّوم تخرج من قعر جهنّم. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي: تملئون بطونكم منها من شدّة الجوع أو بالقسر ولا يكتفي منكم بالأكل بل لا بدّ وملزمون بأن تملئوا منها بطونكم. ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على أكل الزقّوم وعقيبه بلا ريث لعطشكم الغالب ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ الماء الحارّ الشديد في الحرارة ولا يكون شربكم شرباً معتاداً بل مثل إلّا بل الّتي بها الهيام وهو داء يصيبها يشبه الاستسقاء فتشرب ولا تروي حتّى أن تموت.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: الّذي ذكر من الزقّوم والحميم رزقهم المعدّ لهم كالنزل الّذي يعدّ للضيف تكرمة له ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ فهلّا تصدّقون على الإعادة فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة واعلم أنّ الله تعالى إذا أخبر عن نفسه بلفظ الجمع يشير به إلى ذاته وصفاته وأسمائه كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١) وإذا أخبر عن نفسه بلفظ المفرد يشير به إلى ذاته المطلقة كما قال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢) هذا إذا كان المخبر هو الله وأمّا إذا كان العبد فينبغي أن يقول: أنت يا ربّ لا أنتم لإيهام الشرك المنافي لتوحيد القائل ولذا يقال: أشهد أن لا إله إلّا الله ليدلّ على شهادته بخصوصه.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: أخبروني ما تقذفونه في أرحام النساء من النطف وما تمنون مفعول الأوّل يقال: أمنى الرجل يمني ومنيت الشيء إذا قضيته وسمّي المنيّ منياً لأنّ الخلق منه يقضي. ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي:

١ـ سورة الحجر: ٩.

٢ـ سورة القصص: ٣٠.

تقدّرونه وتصوّرونه بشراً وهذه الجملة الاستفهاميّة مفعول ثان ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ له من غير دخل شيء فيه وأم قيل: منقطعة لأنّ ما بعدها جملة والمعنى بل نحن الخالقون والاستفهام للتقرير وقيل: متّصلة ومجيء الخالقون بعد نحن بطريق التأكيد لا بطريق الخبريّة.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ وقّتنا موت كلّ أحد بوقت معيّن حسبما تقتضيه الحكمة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يغلبنا أحد على أن نذهبكم ونأتي مكانكم بأشباهكم من الخلق وقادرون على ذلك. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخلق والأطوار ولسنا عاجزين عن خلق أمثالكم بدلا منكم أو تغيير صوركم إلى غيرها كما فعلنا بمن قبلكم من القردة والخنازير كاليهود والآية تشعر إلى الوعيد وإنشائهم من خلق لا يعلمونها من الألوان والأشكال وفي الحديثك «إنّ أهل الجنّة جرد مرد».[1] وإنّ الجهنّميّ ضرسته مثل احد، أما تخاف أن يجعلك من القردة والخنازير وأنت تقرء كلّ صباح ومساء في ذمّ اليهود بقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ تعني بذلك ما غيّروا حكم اللّه في الزنا من الرجم إلى أربعين جلدة وكذا غيّروا حكم القود من القتل إلى الدية حتّى كثر القتل فيهم؟ وأنت يا شرّ اليهود غيّرت أحكاماً فاستعدّ جواباً.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ﴾ أي: الخلقة ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ هي خلقتهم من نطفة ثمّ من علقة أو فطرة آدم من التراب ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلّا تتذكّرون أنّ من قدر عليها قدر على غيرها فإنّها أقلّ صنعا لحصول الموادّ وسبق المثال.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أخبروني ما تبذرونه من الحبّ وتعملون في الأرض بالسقي ونحوه والحرث إلقاء البذر في الأرض ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ وتردّونه نباتاً

١ـ كنزالعمال، ج١٤، ص٤٧١، وانظر: الاختصاص، ص٣٥٨.

يربو وينمو ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون لا أنتم، والزرع الإنبات وذلك بالأمور الإلهيّة دون البشريّة ولذا نسب الحرث إليهم ونفى عنهم الزرع ونسبه إلى نفسه، وفي الحديث: **«لا يقولنّ أحدكم: زرعت وليقل: حرثت فإنّ الزارع هو الله»**.

﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ لو للماضي وإن دخل على المضارع ولذا لا يجزمه فهو شرط غير جازم أي لو أردنا ﴿لَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الزرع بمعنى المزروع ﴿حُطَٰمًا﴾ الحطم كسر الشيء مثل الهشم ويستعمل في كلّ كسر متناه المعنى يابساً متكسّراً متفتّتاً بعد ما أنبتناه. ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أي: فصرتم بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تتعجّبون من سوء حاله أثر ما شاهدتموه على أحسن ما يكون وتندمون علي ما فعلتم فيه وأنفقتم عليه أو تندمون على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتحدّثون فيه والتفكّه التنقّل بصنوف الفاكهة ويستعار للتنقّل بالحديث وقرئ تفكّنون بالنون والتفكّن التعجّب والتندّم ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ حال من فاعل تفكّهون أي قائلين: إنّا ملزمون بغرامة ما أنفقنا أو المعنى إنّا مهلكون بهلاك رزقنا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ لا جدّ ولا نصيب لنا وحرمنا رزقنا ولو كنّا مجدودين لما فسد علينا هذا.

روي عن أنس بن مالك قال: مرّ رسول الله بأرض الأنصار فقال: **«ما يمنعكم من الحرث؟»** قالوا: الجدوبة. قال: **«أفلا تعقلون فإنّ الله يقول: أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر»**. ثمّ تلاﷺ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ الآية[1]. وفي الحديث إشارة إلى أنّ الله هو الّذي يعطي ويمنع بأسباب وبغيرها فالتوحيد هو أن يعتقد أنّ التأثير من الله لا من غيره كالكوكب وفي الحديث: **«ما سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي**

١ـ تفسير القرطبي، ج١٧، ص ٢٢٠، وتفسير الثعلبي، ج٩، ص٢١٦.

حوّل الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي[1] والبحار».

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أخبروني الماء الّذي تشربون عذباً فراتاً ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ السحاب إذا السحاب الأبيض وماؤه أعذب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ له بقدرتنا. ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً زعافاً لا يمكن شربه وحذف اللام هاهنا مع إثباتها في الشرطيّة الاولى لتقدّم أمر المطعوم على المشروب والوعيد بفقد المطعوم أصعب من الوعيد بالمشروب فإنّ المشروب إنّما يحتاج إليه تبعا للمطعوم ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلّا تشكرون بتوحيد منعمه وإطاعة أمره؟

وعن ابن عبّاس إنّ تحت العرش بحرا تنزل منه أرزاق الحيوانات يوحي اللّه إليه فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء حتّى ينتهي إلى سماء الدنيا ويوحي إلى سماء الدنيا أن غربليه فتغربله فليس من قطرة تقطر إلّا ومعها ملك يضعها موضعها ولا تنزل قطرة إلّا بكيل معلوم إلّا ما كان من يوم الطوفان فإنّه نزل بغير كيل ووزن وكانﷺ يكشف رأسه عند نزول المطر ويقول: **«حديث عهد بربّه».**

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: أخبروني النار الّتي تخرجونها بسبب قدح الزناد أو بسبب قدح آخر وتشعلونها والعرب تقدح بعودين تحكّ أحدهما على الآخر يسمّون الأعلى الزند والأسفل الزندة شبّهوهما بالفحل والطروقة ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ الّتي منها الزناد وهي المرخ والعفار ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ لها بقدرتنا.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ استيناف لبيان منافعها أي: جعلنا نار الزناد تبصرة في أمر البعث فإنّ أمر البعث ليس أبدع من إخراج النار من الشجر الرطب

١ـ جمع الفيفاء: الصحراء.

وهو حجّة على منكري عذاب القبر حيث تضمّن النار ما لا يحرق ظاهره لكنّ النار حاصله ومؤثّره لكنّ الأثر غير بيّن أو المعنى أنّ هذه تذكرة لما أوعدوا به من نار جهنّم لينظروا إليها ويتذكّروا ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: بلغة ومنفعة للمسافرين والّذين ينزلون القواء بالفتح وهو القفر الخالي من العمارة وتخصيصهم بذلك لأنهم أحوج إليها لأنّ المقيمين في العمارة ليسوا بمضطرّين إلى الاقتداح وعن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه: **«إنّ أدنى أهل النار عذابا الّذي يجعل له نعلان يغلي منهما دماغه في رأسه»**[1].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: أحدث التنزيه لربّك ونزّهه عمّا لا يليق به وقيل: معناه قل: سبحان ربّي العظيم فقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال: **«اجعلوا هذا الذكر في ركوعكم»**.[2] والباء للاستعانة وقيل: المراد هنا تلاوة القرآن وشرّف عبيده بأن أمرهم بالتسبيح ليطهّروا أنفسهم بتسبيحه تعالى.

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾

أي: فاقسم ولا مزيدة للتأكيد وتقوية الكلام كقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ويجوز أن يكون ردّاً لما يقوله الكفّار في القرآن من أنّه سحر وشعر وكهانة ثمّ استأنف القسم، ومواقع النجوم قيل: مطالعها ومساقطها وقيل: انكدارها وانتثارها يوم القيامة وقيل: هي الأنواء الّتي كان أهل الجاهليّة إذا امطروا قالوا: أمطرنا بنوء كذا. قال الباقر والصادق عليهما السلام: **«إنّ مواقع النجوم**

١ـ مسند أحمد، ج٢، ص٤٣٩، وتفسير ابن كثير، ج٢، ص٣٩١.

٢ـ من لايحضره الفقيه، ج١، ص٣١٥، وتهذيب الأحكام، ج٢، ص٣١٣، ووسائل الشيعة [الإسلامية] ج٤، ص٩٤٤، وبحار الأنوار، ج٨٢، ص ١٠٠.

رجومها للشياطين».[1] وكان المشركون يقسمون بها فحينئذ «لا» نافية فقال سبحانه: [فلا أقسم بها]. قرئ بموقع، أي عظم أمر من يحلف بها.

في «الفقيه» عن الصادق عليه السلام: **«المراد به اليمين بالبراءة من الأئمة عليهم السلام يحلف بها الرجل إنّ ذلك عند الله عظيم».**[2] وقيل: المعنى اقسم بنزول القرآن فإنّه نزل نجما نجما متفرّقا عن ابن عبّاس.

وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القسم المذكور ﴿لَقَسَمٌ﴾ لو علمتم بموجبه لعظمتموه وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ وهذه الجملة وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه أي الكتاب الكريم كثير النفع في صلاح المعاش والمعاد أو كريم عند الله ودالّ على مكارم الأخلاق وشرائف الأفعال أو كريم بسبب نزوله من عند كريم إلى أكرم الخلق.

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ ومصون عن غير المقرّبين إذ لا يطّلع عليه من سواهم لأنه مستنسخ في اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ إمّا صفة اخرى للكتاب فحينئذ المراد بالمطهّرين الملائكة المنزّهون عن أوضار الأوزار أو صفة للقرآن فيكون نفيا بمعنى النهي أي لا ينبغي أن يمسه إلّا من

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٧٦، وتفسيرالصافي، ج٥، ص١٢٨، وتفسير نورالثقلين، ج٥، ص٢٢٥.
٢ـ من لايحضره الفقيه، ج٣، ص٣٧٧، وتفسير الصافي، ج٥، ص١٢٩.

كان على طهارة من الأدناس كالحدث والجنابة والنفي بمعنى النهي مثل قوله عليه السلام: «المسلم أخو المسلم[1] لا يظلمه ولا يسلمه». أي لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه إلى من يظلمه وقيل: والقائل والقول كلاهما ضعيفان وهو محمّد ابن فضيل من العامّة قال: المراد من الطهارة هاهنا التوحيد يعني: إنّ غير الموحّد لا يجوز أن يمسّه.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صفة اخرى للقرآن مصدر بمعنى المفعول أي: منزل مثل الخلق بمعنى المخلوق.

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ الّذي ذكرت صفاته وهو القرآن ﴿أَنتُم﴾ يا أهل مكّة ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ أي: مكذّبون أو أي متهاونون به والإدهان عبارة عن المداراة والملاينة وترك الحدّ والاستحقار وفي الآية دلالة على حدوث القرآن.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال ابن عبّاس: أصاب الناس عطش في بعض أسفاره صلى الله عليه وآله فدعا فسقوا، فسمع رجلاً يقول: مطرنا بنوء كذا فنزلت الآية وقيل: المعنى تجعلون حظّكم من القرآن وشكر رزقكم الّذي رزقكم التكذيب بالقرآن. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لو حبس الله القطر عن أمّتي عشر سنين ثمّ أنزل لأصبحت طائفة تقول: سقينا بنوء كذا»[2]. قال صلى الله عليه وآله: «أخوف ما أخاف على أمّتي حيف الأئمّة والتكذيب بالقدر والإيمان بالنجوم»[3].

وفي الحديث: «ثلاث من أمر الجاهليّة الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء».[4] فالطعن معروف والنياحة البكاء على الميّت مع تعديد محاسنه

١ـ المبسوط، ج٥، ص٩٥، والكافي، ج٢، ص١٦٦، ووسائل الشيعة، ج٨ ص٥٤٢.

٢ـ سنن دارمي، ج٢، ص٣١٤ عبدالله الدارمي، وبحار الأنوار، ج٥٥، ص٣١٤.

٣ـ الفائق في غريب الحديث، ج٢، ص٧[جارالله الزمخشري]، والجامع الصغير، للسيوطي، ج١، وكنزالعمال، ج١٤، ص٥٥٧.

٤ـ بحار الأنوار، ج٥٥، ص٣١٤، وانظر: مجمع الزوائد، ج٣، ص١٣، وكنزالعمال، ج١٦، ص٥٥.

والأنواء جمع نوه المنازل الثماني والعشرون للقمر. والعرب كانت تعتقد أنّ الأمطار والخير من الأنواء وآثارها والصحيح أنّ الأنواء النجوم الّتي يسقط واحد منها في جانب المغرب وقت طلوع الفجر ويطلع رقيبه في جانب المشرق من ساعته. وبالجملة فللمؤمن أن يعتقد أنّ الخير بأمر الله وبيده والأفلاك والأنجم مسخّرات بأمره إن أراد كان وإن لم يشأ لم يكن.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ للتحضيض لإظهار عجزهم قيل: الحلقوم مجرى النفس والبلعوم مجرى الطعام أي فهلّا إذا بلغت النفس أي الروح الحلقوم وتداعت إلى الخروج والضمير كناية عن غير مذكور للدلالة ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ والحال أنتم أيّها الحاضرون حول صاحبها تنظرون إلى ما هو فيه من غمرات الموت ولكم تعطّف عليه ولكم رغبة في إنجائه من الموت تردّون روح ميّتكم إلى مقرّها. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى المحتضر قدرة وعلماً وتصرّفاً ﴿مِنكُمْ﴾ حيث لا تعرفون حاله إلّا ما تشاهدونه من آثار الشدّة ولا تقدرون على دفع أدنى شيء منها ونحن المتولّون لتفاصيل أحواله وبقبض روحه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ كنه ما يجري عليه والمراد هنا البصيرة لا البصر.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ يعني: هلّا إن كنتم غير مربوبين وغير مملوكين أذلّاء من دان السلطان رعيّته إذا استعبدهم وساسهم أو غير مجزيّين.

﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: تردّون النفس إلى مقرّها وتردّون روح ميّتكم إلى بدنه من الرجع وهو الردّ والمحضّض عليه بلو لا الاولى والثانية مكرّرة للتأكيد وحاصل المعنى إن كنتم غير مربوبين وغير مصدّقين بخلقنا إيّاكم فهلّا ترجعون النفس إلى مقرّها عند بلوغها الحلقوم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتقادكم.

فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ

ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أمّا في الكلام لتفصيل الجمل وشرح الأزواج الثلاثة المذكورة في أوّل السورة مثل قولك جاءني القوم فأمّا زيد فأكرمته وأمّا عمرو فأهنته أي إن كان المتوفّى وذلك المحتضر الّذي بلغت روحه الحلقوم من المقرّبين عند الله وهم السابقون وأجلّ الأزواج الثلاثة.

﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: فله استراحة ورحمة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ يعني: الرزق في الجنّة وقيل: هو الريحان المشموم من رياحين الجنّة يؤتى بها عند الموت فيشمّه ثمّ يقبض روحه، وقيل: الروح النجاة من النار والريحان الدخول في الجنّة، وقيل: روح في القبر وهو الهواء الّذي تستلذّه النفس ويزيل عنها المكروه وريحان في القيامة ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي ذات تنعّم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ واستعير اليمين للتيمّن والسعادة ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ إي: إن كان المتوفّى من أصحاب اليمن والبركة فسلام لك بأصحاب اليمين من إخوانك المؤمنين والملائكة ولك البشارة منهم بالسلامة من العذاب قال الفرّاء: فسلام لك إنّك من أصحاب اليمين فحذف إنّك فيكون السلام إشارة له بأنّه من أهل الجنّة وإلّا لقيل عليك.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أصحاب الشمال وهم الّذين كذّبوا بالبعث وضلّوا عن التوحيد والهداية ﴿فَنُزُلٌ﴾ فله نزل كائن ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ تشرب بعد أكل الزقّوم ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وإدخال في النار وقيل: إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها وقيل: ذلك ما يجده في القبر من سموم النار.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الّذي ذكر في هذه السورة الكريمة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ حقّ الخبر اليقين الواقع ولا يطرء على هذا الأمر التبدّل والتغيّر وإضافة العلم

والحقّ إلى اليقين إضافة الشيء إلى مرادفه كما فعلوا في العطف التفسيريّ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ الفاء لترتيب التسبيح فسبّح يا محمّد ونزّه ربّك عمّا لا يليق به من الأمور الّتي من جملتها التكذيب بآياته الناطقة والإشراك به وأعرض عمّا لا يليق من كلّ الأمور ولمّا نزلت هذه الآية قال ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». فلمّا نزل ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم».[1]

تمّت السورة بعون الله

١ـ الهداية، الشيخ الصدوق، ص١٣٦، ومن لايحضره الفقيه، ج١، ص٣١٥، وتهذيب الأحكام، ج٢، ص٣١٣.

سُورَةُ الحَدِيد

مدنية. العرباض بن سارية قال: إنّ النبي ﷺ كان يقرء المسبّحات قبل أن يرقد ويقول: «إنّ فيهنّ آية أفضل من ألف آية»[1].

وعن جابر الجعفيّ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام لم يمت حتى يدرك القائم عليه السلام وإن مات كان في جوار رسول الله»[2].

الحسين بن أبي العلا عن أبي عبد الله قال: «من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة فريضة أدمنها[3] لم يعذّبه الله حتى يموت أبداً ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبداً ولا خصاصة في بدنه»[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ
وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ

١ـ مستدرك الوسائل، ج٤، ص٢٨٩، وتفسير نورالثقلين، ج٥، ص٢٣١، ومسند أحمد، ج٤، ص١٢٨.

٢ـ الكافي، ج٢، ص ٦٢٠، وتفسيرمجمع البيان، ج٩، ص ٣٨١.

٣ـ أدمنه: أدامه.

٤ـ ثواب الأعمال، ص١١٧، وتفسيرالصافي، ج٥، ص ١٤١، وتفسيرمجمع البيان، ج٩، ص ٣٨١.

مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

التسبيح تنزيه اللّه تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عمّالا يليق بجنابه بدأ اللّه بالمصدر في الإسراء لأنه الأصل ثمّ بالماضي في هذه السورة والحشر والصفّ لأنّ الماضي أسبق الزمانين ثمّ بالمستقبل في الجمعة والتغابن ثمّ بالأمر في الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها وتعليم العباد استمرار التسبيح منهم في جميع الأزمنة والكونات من لدن أخرجها من العدم إلى الوجود مسبّحة في الأزمنة ولا يختصّ تسبيحها بوقت دون وقت وفي الحديث أفضل الكلام أربع: سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلّا اللّه واللّه أكبر وسبّح متعدّ بنفسه كما في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ فاللام في للّه إمّا مزيدة للتأكيد كما في نصحت له وشكرت له أو للتعليل أي فعل التسبيح وأحدثه خالصاً لوجهه.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ والمراد جميع الخلق من حيوان وجماد ونبات وغيره وعبّر بما تغليباً للأكثر والجماد ميّت في نظر المحجوب حتّى في نفس الأمر لا ميّت لأنّ الجماد مدبّر حيّ والمدبّر حيّ وليس من شرط الحيّ أن يحسّ لأنّ الإحساس والحواسّ أمر معقول زائد على الحياة وإنّما هما من شرط الإدراك والعلم وقد يحسّ الشيء وقد لا يحسّ أما ترى صاحب الأكلة والجذام إذا أكل واستعمل ممّا يغيب به إحساسه كيف يقطع عضوه ولا يحسّ به مع أنّه حيّ ليس بميّت ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ لأنّ وجود الشيء دالّة على تنزيهه تعالى فضلا عن امور زائدة. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الغالب بقدرته وسلطانه الحكيم في أفعاله، وورد حديث أنّ كلّ شيء من الجماد والحيوان يسمع عذاب القبر إلّا الثقلين يدلّ على أنّ السماوات

والأرض بجميع أجزائهما وما فيهما من الملك والشمس والقمر والنجوم والجنّ والإنس والحيوان والنبات والجماد لها حياة وفهم. ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي التصرّف الكلّيّ ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ جعل الشيء ميّتا وجعل الميّت حيّا مثل النطفة والبيض ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ تامّ القدرة فإنّ الصيغة للمبالغة.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابق على سائر الموجودات بالذات والصفات لأنّه مبدؤها والمراد بالسبق والأوليّة هو الذاتيّ لا الزمانيّ فإنّ الزمان من جملة الحوادث أيضاً ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها حقيقة ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ وجود الأشياء دلائله الواضحة ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ حقيقة فلا يحوم العقل حول إدراك كنهه وليس يعرف الله إلّا الله وتلك الباطنيّة سواء في الدنيا أو الآخرة. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ من الظاهر والخفيّ تامّ العلم بكلّ شيء جليّه وخفيّة ويمكن أن يكون معنى هو الأوّل أي الّذي تبتدء منه الأسباب والآخر الّذي تنتهي إليه المسبّبات والظاهر أي الغالب على كلّ شيء والباطن أي العالم بباطن كلّ شيء.

واحتجّ كثير من أهل التحقيق في إثبات أنّ الإله واحد بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ وقالوا: الأوّل هو الفرد السابق ولهذا لو قال: أحد أوّل مملوك اشتريته فهو حرّ ثمّ اشترى عبدين لم يعتقا لإنّ شرط كونه الأوّل حصول الفرديّة وهنا لم يحصل فلو اشترى بعد ذلك عبداً واحداً لم يعتق لأنّ شرط الأوليّة كونه سابقاً وهاهنا لم يحصل مع أنّ الشرط في كونه أولاً أن يكون فردا فكانت الآية دالّة على أنّ صانع العالم واحد فرد والأوّل الّذي لم يسبقه شيء في الوجود فهو تعالى شأنه نفى القدم عن كلّ أوّل بأوليّته ونفى البقاء عن كلّ آخر بآخريّته.

وقال بعض علماء الكلام: المراد من الآية مبالغة في نفي التشبيه لأنّ

كلّ من كان أولاً لا يكون آخرا وكلّ من كان ظاهراً لا يكون باطناً فأخبر سبحانه أنّه الأوّل الآخر الظاهر الباطن ليعلم أنّه لا يشبه شيئاً من المخلوقات والمصنوعات وأوضح المعاني قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ إنّه سبحان كان ولم يكن صور العوالم كما قال ﷺ: «كان الله ولم يكن معه شيء»[1].

وقال بعض المجرّبين: إنّ من قرأ بعد صلاة ركعتين خمساً وأربعين مرّة ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ حصل له ما طلبه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقدرته ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوّلها الأحد وآخرها الجمعة وهذه المدّة ليشهد الملائكة بحدوثها ويعلموا سنّة التدريج في الأمور واختلف في أنّ الأيّام من أيّام الدنيا أو الآخرة كما وقع اختلاف في الأربعين الّتي خمّر الله فيها طينة آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استولى بالتدبير على امور أراد خلقه ونظمه وقيل: معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ قصد وعمد.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض ويستتر فيها ويعلم ما يخرج من الأرض من أنواع النبات والحيوان والجماد لا يخفى عليه شيء منها.

قال أهل التأويل: يعلم سبحانه ما يلج في أرض قلب المؤمن من النيّة والإخلاص والتوحيد وفي أرض قلب الكافر من الشكّ والشرك وما يخرج منها بحسب حالهم والصحيح أنّ العلم محيط بتمام العوالم وقلب الكافر والمؤمن أيضاً جزء من العالم.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالكتب والملائكة والأقضية والصواعق والأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة الّذين يكتبون الأعمال والأرواح السعيدة.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الأرض وهو تمثيل لإحاطة علمه وفي

١ـ تفسير الصافي، ج٣، ص٢٨٨، وتفسير الثعلبي، ج٣، ص٣٥٨.

الحديث أفضل إيمان المرء أن يعلم أنّ الله معه حيث كان[١] قال موسى عليه السلام: «أين أجدك يا ربّ؟ قال: يا موسى إذا قصدت إليّ فقد وصلت إليّ».

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه ثواباً وعقاباً.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ والتأكيد في قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ الأول متعلّق بالإبداء والثاني بالإعادة ولذا قرن بالأوّل ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وبالثاني ما يكون في الآخرة من ردّ الخلق إليه.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ الإيلاج الإدخال حتّى يصير النهار أطول ما يكون خمس عشرة ساعة والليل أقصر ما يكون تسع ساعات ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ باختلاف الفصول ومطالع الشمس ومغاربها حتّى يصير الليل أطول ما يكون خمس عشرة ساعة والنهار أقصر ما يكون تسع ساعات. قال الشاعر:

فالشمس بالقوس أمست وهي نازلة

إن لم تزرني وبالجوزاء إن زارا[٢]

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بمكنوناتها من الأسرار والمعتقدات وهو بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه في نيّاتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم قال ابن عبّاس: اسم الله الأعظم في أوّل سورة الحديد في ستّ آيات من أوّلها، وتعليقها على المقاتل في الصفّ نافع جداً كما في فتح الرحمن.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

١ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٢٠، ص٢٥٩، وكنزالعمال، ج١، ص٢٦٧.

٢ـ وفيات الأعيان، ج٥، ص٣٤٣.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ جعلكم الله خلفاء في ذلك المال بالتصرّف فيه من غير أن تملكوه حقيقة لأنّ يدكم يد العارية على الحقيقة وفي الآية أمر وترغيب في الإنفاق أو المعنى جعلكم خلفاء من قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إيّاكم وسينتقل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به قيل: إنّ الآية نزلت في غزوة ذي العشرة وهي غزوة تبوك ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا﴾ حسبما أمروا به ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وله عشر أمثالها إذا أتى بحسنة. قال ﷺ: **«حكاية عن الله أنفق أنفق عليك»**.[1] وقال ﷺ: **«لاتوك فيوكى عليك»**[2].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: أيّ شيء ثبت لكم وحصل حال كونكم غير مؤمنين وما سبب عدم إيمانكم بالله؟ ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ توبيخ لهم بأنّه أيّ عذر لكم في ترك الإيمان والنبيّ ينبّهكم عليه بالحجج والآيات؟

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ والميثاق عقد يؤكّد بيمين وعهد أي قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان من قبل دعوة الرسول إيّاكم وذلك بما أودع الله قلوبكم من

١ـ كنز العمال، ج٦، ص٣٧٥، وتفسير القرطبي، ج١٤، ص٣٠٧، ومجمع البيان، ج٨، ص٢٢٢.

٢ـ أوكى الرجل: بخل.

دلالات العقل الموصلة إلى معرفة التوحيد أو المراد من الميثاق العهد المأخوذ يوم الذرّ حين أخرجهم من صلب آدم في صورة الذرّ وهي النمل الصغير ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن دمتم على ما بدأتم به ومصدّقين بحقّ لأنّ الآن تمّت الحجّة ولزمتكم الحجّة بالأدلّة السمعيّة والعقليّة.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ بواسطة جبرئيل عليه السلام ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ المطلق محمّد صلى الله عليه وآله ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات من الأمر والنهي والحلال والحرام ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الجهل والشرك إلى معرفة اليقين والتوحيد ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم لسعادة الدارين بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأيّ شيء لكم من أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله وهو له في الحقيقة وإنّما أنتم خلفاؤه في صرفه إلى ما عيّنه من المصارف ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والحال أنّه لا يبقى لكم منها شيء بل تبقى كلّها له بعد فناء الخلق فإنفاقها بحيث تستخلف عوضاً يبقى وهو الثواب كان أولى من الإمساك ونسب نفسه إلى الوارث من حيث إنّ الأموال صائرة إليه والميراث ما ترك الإنسان فخاطبهم بما يعرفون بينهم، قال عيسى عليه السلام: **«قلب كلّ إنسان حيث ماله فاجعلوا أموالكم في السماء يكن قلوبهم في السماء»**.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم﴾ يا معشر المؤمنين ﴿مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ أي فتح مكّة الّذي أزال الهجرة ﴿وَقَاتَلَ﴾ العدوّ تحت لواء رسول الله وقسيم ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ محذوف لوضوحه أي بعد الفتح وفي ﴿أَنفَقَ﴾ إشارة إلى إنفاق المال وفي ﴿قَاتَلَ﴾ إشارة إلى إنفاق النفس. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنفقون المقاتلون قبل الفتح ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأرفع منزلة عند الله ﴿مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾. وقد صرّح صلى الله عليه وآله أيضاً بفضل الأوّلين بقوله: **«لو أنفق أحدكم مثل احد**

ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصفه».[1] والمدّ قيل: ملء كفّي الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومدّ يده بهما وبه سمّي مدّاً وقد جرّب مراراً. أنّ هذا المقدار مساو مع الوزن المعروف الّذي يقال له: المدّ.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي كلّ واحد من الفريقين وعدهم الله المثوبة الحسنى وهي الجنّة لكنّ الدرجات متفاوتة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسب نيّاتكم وإخلاصكم.

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

ثمّ حثّ سبحانه على الإنفاق فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾ قيل: من مبتدأ و﴿ذَا﴾ خبره و﴿ٱلَّذِى﴾ بدله. قال الطبرسيّ: إنّ الصحيح أن يكون «ذا» مبتدءا والّذي يقرض الله صفته ومن خبر المبتداء قدّم عليه لما فيه من معنى الاستفهام والإقراض إعطاء العين على وجه يطلب بدله والمعنى كأنّه قيل: أ يقرض أحد مالا طيّباً فيعطيه الله عوضه أضعافا من فضله من السبع إلى السبعين إلى السبعمائة؟ وإنّما قلنا بمعنى الاستفهام لأنّ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ والفاء

١ـ كنزالعمال، ج ١١، ص٥٢٨، والتفسيرالثعلبي، ج ٣، ص ١٧٠.

إنّما تنصب فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه وهاهنا السؤال لم يقع عن القرض بل عن فاعله.

﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجر كريم حسن مرضيّ في نفسه. روي أنّه لمّا نزلت الآية جعل أبو الدحداح يتصدّق بنصف ماله من كلّ شيء له حتّى أنّه خلع إحدى نعليه قال بعضهم: سأل الله القرض منهم ولو كانوا يمكن لهم أن يخرجوا من وجودهم لخرجوا قبل سؤاله فضلا عن المال فإنّ العبد وما يملكه لمولاه، في الحديث: «عبدي استطعمتك فلم تطعمني».

وفي الإنفاق يكون عشر شرائط: الأوّل: أن يكون من الحلال. والثاني: أن يكون من أطيب ماله دون الرديء. والثالث: أن يتصدّق ويحبّ المال. والرابع: أن يعطيه وهو يرجو الحياة وهو صحيح يأمل العيش. الخامس: يخشى الفقر. السادس: أن يضعه في الأخلّ الأحوج الأولى بأخذه. السابع: أن يكتمه ما أمكن. الثامن: أن لا يتبعها المنّ والأذى. التاسع: أن يقصد به وجه الله. العاشر: أن يستحقر ما يعطي فالصدقة لا بدّ وأن تكون موصوفة بهذه الصفات العشرة وفي المرفوع: «النافلة هديّة العبد إلى ربّه فليحسن أحدكم هديّته وليطيّبها».

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الظرف منصوب بإضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم أي اذكر يوم رؤيتهم يوم القيامة على الصراط أو غيره ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ حال من مفعول ترى أي نور إيمانهم وطاعاتهم ومعنى السعي المشي السريع دون العدو ويستعمل أيضاً للجدّ في الأمر خيراً كان أو شراً وأكثر استعماله في الأفعال المحمودة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ جمع يمين والمراد جهة اليمين قيل: يكون النور بين أيديهم وفي جهة أيمانهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ إلّا أن ذكر الشمائل مضمر وذلك النور دليلهم الى الجنّة والمراد بالنور الضياء الّذي يرونه ويمرون فيه إنّ المؤمن يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ودون

ذلك حتّى أنّ من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلّا في موضع قدميه، قال عبد اللّه بن مسعود: ويعطون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من نوره على قدر الجبل وأدناهم نوراً نوره على إبهامه يطفى مرّة ويتّقد اخرى ويقول لهم الملائكة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي الّذي تبشّرون به اليوم جنّات ودخولها وحذف المضاف ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ﴾ صفة للجنّات أنتم دائمون فيها وما ذكر ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الّذي لا غاية وراءه.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ فذكر سبحانه حال المنافقين في ذلك اليوم يقولون: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ظاهراً وباطنا ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا يقولون ذلك لما أنّ المؤمنين يسرع بهم إلى الجنّة كالبروق الخاطفة على ركاب تزفّ بهم وهؤلاء مشاة إذ المعنى من انظرونا استقبلونا نستضيء بأنواركم وإنّ النظر بمعنى الإنظار لا يتعدّى بنفسه وإنّما يتعدّى بإلى فيكون المعنى اجعلوا نظركم إلينا لكن بمعنى النظرة والإمهال أليق. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ والاقتباس التناول من الشعلة أي نأخذ من نوركم قبساً سراجاً وشعلة لأنهم كانوا يستضيئون بنور المؤمنين فإذا سبقهم المؤمنون ووصلوا إلى مكانهم بقوا هؤلاء في الظلمة فيقولون: انظرونا نقتبس، وهيهات! أين الثريّا من يد المتناول؟

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ طرداً وتهكّماً لهم والقول من جهة الملائكة أو المؤمنين ارجعوا إلى الموقف ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ واطلبوا هناك فإنّه من ثمّة يقتبس النور أو فارجعوا إلى الدنيا لأنّ النور بالإيمان يحصل في الدنيا وهاهنا ليس دار التحصيل بل دار الجزاء فيرجعون فلا يجدون نوراً. ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ وقد ضرب بين المؤمنين وبينهم وحيل بينهم حائط بين الجنّة والنار ولمّا كان البناء ممّا يحتاج إلى ضرب باليد ونحوها من الآلات عبّر عنه

بالضرب مثل قولهم: ضرب الخيمة لضرب أوتادها بالمطرقة وبالجملة هو سورين أهل الجنّة والنار يقف عليه أصحاب الأعراف يشرفون على أهل الجنّه وأهل النار وهو السور الّذي يذبح عليه الموت بمرأى الفريقين ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ أي: لذلك السور والحائط والمانع باب يدخل فيه المؤمن فيكون السور بينهم باعتبار حاله الثانية بعد الدخول لا حين الضرب ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ باطن السور أو باطن. الباب فيه الرحمة لأنّه يلي الجنّة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ﴾ ومن جهته وعنده ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لأنه يلي النار، وبالجملة إنّ المؤمنين يسبقونهم ويدخلون الجنّة والمنافقين يجعلون إلى النار وبينهم السور المذكور. في الحديث: «**بيت المقدس أرض المحشر والمنشر**».

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا يريدون به ما كانوا يوافقون مع المؤمنين في الأمور الظاهرة كالمناكحة والموارثة والصلاة ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ محتموها بالنفاق وأهلكتموها إضافة الفتنة إلى النفس إضافة الميل والشهوة وإلى الشيطان في قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إضافة الوسوسة. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ وانتظرتم بالمؤمنين الدوائر وبمحمّدﷺ الموت وهو وصف قبيح، إنّ انتظار موت وسائل الخير ووسائط الحقّ من أعظم الجرم والقباحة ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في النبوّة أو في غد اليوم الموعود ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الفاسدة الّتي من جملتها انتكاس أمر الإسلام، جمع امنيّة أباطيل الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ﴾ الكريم ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي الشيطان غرّكم بحلمه تعالى وإمهاله وقيل: الغرور الدنيا. قال قتادة: ما زال أهل الدنيا على خدعة من الشيطان حتّى قذفوا في النار والغرور مبالغة وهو كلّ ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وفسّر بالشيطان لأنّه أخبث الغارّين.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ فداء تدفعون به العذاب عن أنفسكم والفداء ما يحفظ الإنسان عن النائبة أي لا يؤخذ منكم دية ولا نفس اخرى مكان أنفسكم ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ظاهراً وباطنا فالناس ثلاثة أقسام: مؤمن ظاهراً وباطنا وهو المخلص؛ ومؤمن ظاهراً لا باطناً وهو المنافق؛ وكافر ظاهراً وباطنا.

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ مرجعكم جهنّم لا ترجعون إلى غيرها أبداً ﴿هِىَ﴾ أي: النار ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ تتصرّف فيكم تصرّف المولى في عبيده أو هي أولى بكم فالمولى مشتقّ من الأولى ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾

من أنى الأمر يأني أنيا إذا جاء أناه أي وقته وحان حينه وأدرك أي ألم يجيء وقت أن تخشع قلوبهم لذكره ويسارعوا إلى طاعة بالامتثال من غير توان ولا فتور. قوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن وهو عطف على

ذكر الله فإن كان المراد من الذكر القرآن أيضاً فالعطف لتغاير العنوانين وتفسيريّ كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[1] ومعنى الخشوع في الآية في قوله: ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ الانقياد التامّ وأوامره ونواهيه روي أنّ المؤمنين كانوا مجدبين بمكّة فلمّا هاجروا أصابوا الرزق والنعمة فصيّروا عمّا كانوا عليه من الخشوع فنزلت الآية وعن ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية أربع سنين وقيل: ظهر بين الأصحاب من المزاح والمضاحك فنزلت الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ الآية .وقيل: إنّ هذه الآية قرئت بين قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديدا فقال بعض الأصحاب: هكذا كنّا وقد قست قلوبنا. ﴿وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عطف على تخشع والمراد النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: الأجل والزمان أو الأعمار والآمال وزالت عنهم الروعة الّتي كانت تأتيهم من التوراة والإنجيل إذا سمعوهما ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والقسوة غلظة القلب وإنّما تحصل من اتّباع الشهوة والصفوة لا يجتمعان ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وخارجون عن حدود دينهم رافضون لما في كتبهم بالكلّيّة. وفيه إشارة إلى أنّ عدم الخشوع في أوّل الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر.

قال عيسى بن مريمعليه السلام: **«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم والقلب القاسي بعيد من الله ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنّكم أرباب وانظروا في ذنوبكم كأنّكم عبيد فإنّما الناس رجلان مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية»**[2].

١ـ سورة الأنفال: ٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٩٥، وتفسير الثعلبي، ج٩، ص٢٤١.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميّتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة وبيان المنكر في البعث أي كما أنّ الله يحيي الأرض بعد يبسها وجمودها كذلك يحيي الأموات بعد بلاها ومحو صورتها ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا وتعلموا بموجبها وكان استماع آية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ سبباً لتوبة فضيل بن عياض ومجاورته في الحرم وقصّته معروفة، وكذلك ابن المبارك وكان منهمكاً في الشرب وضرب العود، بينما هو في هذه الحالة إذ سمع قارئا يقرء هذه الآية فتاب ورجع ممّا كان عليه وآل أمره إلى ما آل لكن وتعيها أذن واعية.

وعن مالك بن دينار وهو أحد الزهّاد الثمانية أنّه سئل عن سبب توبته فقال: إنّي كنت شرطيّاً وكنت منهمكاً على شرب الخمر ثمّ اشتريت جارية جميلة ووقعت في عيني أحسن موقع؛ فولدت لي بنتاً فشغفت بها فلمّا دبّت على الأرض؛ ازدادت في قلبي حبّا وألفتني وألفتها؛ فلمّا تمّ لها سنتان ماتت فأكمدني الحزن عليها لكنّي تجلّدت خوفاً من أن يصيبني غضب من الله فلمّا كانت ليلة النصف من شعبان وكانت ليلة جمعة بتّ ممتلئاً من الخمر ولم أصلّ صلاة العشاء فرأيت كأنّ أهل القبور قد خرجوا وحشر الخلائق وأنا معهم فسمعت حسّاً من ورائي فإذا أنا بتنّين عظيم أعظم ما يكون أسود قد فتح فاه مسرعا نحوي فمررت بين يديه هارباً فزعاً مرعوباً فمررت في طريقي بشيخ نقيّ الثياب طيّب الرائحة فسلّمت عليه فردّ عليّ السلام فقلت له: أجرني فقال: «**أنا ضعيف وهذا أقوى منّي وما أقدر عليه ولكن مرّ وأسرع فلعلّ الله سبّب لك ما ينجيك منه**». فولّيت هاربا على وجهي وصعدت على شرف من شرف القيامة فأشرفت على طبقات النيران فنظرت إلى أهلها فكدت

أهوي فيها من فزع التنّين وهو في طلبي فصاح بى صائح: ارجع فلست من أهلها فاطمأننت إلى قوله ورجعت ورجع التنّين في طلبي فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ سألتك بالله أن تخبرني من هذا التنّين فبكى الشيخ وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل فإنّ فيه ودائع للمسلمين فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك فنظرت إلى جبل فيه كوى وستور معلّقة وعلى كلّ كوّة مصراعان من الذهب مكللان بالدرّ فلما نظرت إلى الجبل هربت إليه والتنّين من ورائي حتّى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع فلعلّ لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوّه وإذا الستور قد رفعت فأشرف عليّ أطفال بوجوه كالأقمار وقرب التنين منيّ فتحيّرت في أمرى فصاح بعض الأطفال: ويحكم أشرفوا كلّكم فقد قرب منه فأشرفوا فوجاً بعد فوج فإذا بابنتي الّتي ماتت فلمّا رأتني بكت وقالت: أبي والله ثمّ دنت ومدّت يدها الشمال فتعلّقت بها فولّى هارباً ثمّ اجلستني وقعدت في حجري وقالت يا أبت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فبكيت وقلت: يا بنيّه وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت نحن أعرف به منكم قلت: فأخبريني عن التنّين. قالت: ذلك عملك السوء قوّيته. قلت: ومن الشيخ الّذي مررت به؟ قالت: ذلك عملك الصالح أضعفته حتّى لم يكن له طاقة بعملك السوء. قلت: وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنّا فيه إلى أن تقوم القيامة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم؛ فانتبهت فزعاً، فلمّا أصبحت فارقت ما كنت عليه وتبت إلى ربّي.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ أي: المتصدّقين والمتصدّقات ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ عطف على الصلة من حيث المعنى أي إنّ الناس الّذين تصدّقوا وتصدّقن وأقرضوا وأقرضن الله والمراد من الحسن التصدّق من

الطيّب عن طيبة النفس وخلوص النيّة. وروى مسلم عن جابر أنّه قال: شهدت مع رسول اللّه ﷺ صلاة العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة فلمّا فرغ ﷺ من الصلاة قام متوكّئاً على بلال فأمر بتقوى اللّه وحثّ على طاعته ووعظ الناس ثمّ مضى ﷺ إلى النساء فوعظهنّ وذكّرهنّ. فقال: **«تصدّقن فإنّ أكثركنّ حطب جهنّم»**. قالت امرأة: لم يا رسول اللّه؟ فقال: **«لأنّكنّ تكثرن الشكاية وتكفرن العشير»**. أي الزوج فجعلن يتصدّقن من حليّهن ويلقين في ثوب بلال حتّى اجتمع فيه شيء كثير قسّمه على فقراء المسلمين[١].

﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ﴾ أي: ثواب التصدّق يضاعف لهم ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو رضى اللّه. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ كافّة وهو مبتدء ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدء ثان ﴿هُمُ﴾ مبتدء ثالث خبره ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ أي: أولئك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بمنزلة الصدّيقين والشهداء المشهورين في علوّ المرتبة ورفعة المحلّ. قيل: الشهداء على ثلاث درجات الدرجة الأولى الشهيد بين الصفّين وهو أكبرهم درجة ثمّ كلّ من قضى ومات بقارعة أو بليّة وهي الدرجة الثانية مثل الغرق والحرق والهالك في الهدم والمطعون والمبطون والغريب والميّتة في نفاسها والميّتة بالوضع والميّت يوم الجمعة وليلة الجمعة والميّت على الطهارة، والدرجة الثالثة ما نطقت به هذه الآية العامّة للمؤمنين وقال بعضهم في معنى الآية: هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا وصدّقوا بجميع ما أخبر سبحانه وأخبر رسله. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ مبتدء وخبر أي: لهم أجرهم وثواب طاعاتهم مثل ثواب الصدّيقين والشهداء الّذين معروفون بالفضيلة والكمال وقد حذف أداة التشبيه تنبيها على قوّة المماثلة وبلوغها حدّ الاتّحاد، وحاصل المعنى أنّ المؤمنين المصدّقين بآيات اللّه لهم من الأجر والنور ما للصدّيقين

١ـ صحيح مسلم، ج٣، ص١٩.

وللشهداء قال بعض أهل التحقيق: لا يكون الأجر إلّا مكتسباً فإن أعطيت ما هو خارج عن الكسب فهو نور وهبات ولا يقال له «أجر» ولهذا قال سبحانه: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فإنّ أجرهم ما اكتسبوه ونورهم ما وهبه اللّه لهم بالتفضّل. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الموصوفون بهذه الصفات القبيحة أصحاب النار وملازموها بحيث لا يفارقونها أبداً وفيه دليل على أنّ الخلود في النار مخصوص بالكافر والمراد بالكفر الكفر باللّه في مقابله الإيمان باللّه وبالتكذيب ما بأيدي الرسل في مقابله تصديق الرسل.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فكلّ ما قبل الموت تسمّى دنيا وكلّ ما تأخّر عنه أخرى ﴿لَعِبٌ﴾ أي: عمل باطل تتعبون فيه أنفسكم إتعاب اللاعب ﴿وَلَهْوٌ﴾ تشغلون أنفسكم بها عمّا يهمّكم من أعمال الآخرة ﴿وَزِينَةٌ﴾ تزيّنون بها من الملابس والمراكب والمنازل الحسنة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنساب والأحساب ويعبّر عن كلّ نفيس بالفاخر ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ بالعدد وتطاولون بها على الناس.

فالحياة في الدنيا وأمورها لعب كلعب الصبيان وزينة كزينة النسوان وتفاخر كتفاخر الأقران وتكاثر كتكاثر الدهقان ولذائذها تجمع في ستّة أشياء مطعوم ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح فأكبر طعامها العسل وهو ريق ذبابة، وأكبر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأكبر الملبوس الديباج وهو نسج دودة، وأكبر المشموم المسك وهو دم ظبية، وأكبر المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأكبر المنكوح النساء وهو مبال في مبال، هذه اللذائذ أنفع أم ركعتان؟ ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أي هي صفاتها شبيهة بغيث والغيث مطر يحتاج إليه يغيث الناس من الجدب عند قلّة المياه فهو مخصوص بالمطر النافع بخلاف المطر فإنّه عامّ ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الكفّار

الحرّاث يقول العرب للزارع: كافر لأنّه يستر بذره بتراب الأرض والكفر في اللغة التغطية ولهذا يسمّى الكافر كافراً لأنه يغطّي الحقّ بالباطل والكفر القبر يسترها الناس، وفي الحديث: «**أهل الكفور أهل القبور**». والليل كافر لستره الأشخاص ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي النبات الحاصل من الغيث والمراد الكافرون بالله لأنّهم أشدّ إعجاباً بزينة الدنيا. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يجفّ بعد خضرته ونضارته والهائجة أرض يبس بقلها أو اصفرّ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته مونقاً ناضراً وإنّما لم يقل: فيصفرّ إيذاناً بأنّ اصفراره مقارن لجفافه. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ فيصير ذلك الزرع منكسراً والحطم الكسر المتفاني والمقصود التحقير لأمور الدنيا وزينتها وبيان أنّها خياليّة باطلة لا حقيقة لها وتمثيل لحال الدنيا في سرعة تقضّيها وفخر الإنسان على مثل هذا الشيء إنّما هو من جهله بحقيقته ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن أقبل عليها ولم يطلب بها الآخرة. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لا يقدّر قدره لمن أعرض عنها وقصد بها الآخرة وإذا كان كذلك فنيّة الحسنة تجعل المباح طاعة كما قيل: إنّ من استقامت سريرته وصلحت نيّته أدرك جميع ما تمنّاه في الأعمال الصالحة، في الحديث: من نام على طهارة وفي عزمه أنّه يقوم من الليل فأخذ الله بنفسه إلى الصباح كتب الله له قيام ليلة فالدنيا من هذه الجهة حسنة نافعة مفيدة للعاقل ومن ذمّها فقد عقّ أمّة لأنّ الأنكاد والشرور الّتي ينسبها الناس إلى الدنيا ليس هو فعلها وإنّما هو فعل أولادها فإنّ الشرّ فعل المكلّف لا فعل الدنيا وهي مطيّة العبد عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشرّ فمن لم يستوف حقّه من الدنيا بهذه الكيفيّة كان غاشاً لنفسه. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: كالمتاع الّذي يتّخذ من نحو الزجاج والخزف ممّا يسرع فناؤه ويميل الطبع أوّل ما رآه فالعمل للحياة الدنيا متاع الغرور.

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ
ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ
مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ
وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ
يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ
بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ
وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾

ثمّ رغّب سبحانه في السياق إلى الجنّة فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي: سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: إلى أسبابها وموجباتها مثل الأعمال الصالحة والاستغفار كما قال ﷺ: «**اللّهم إنّي أسألك عزائم مغفرتك**»[1] أي توفّقني للأعمال الّتي تغفر لصاحبها لا محالة أي محتوماتها، وتلك الأسباب والموجبات منحصرة كاتّباع شريعه النبي ﷺ وأمرنا سبحانه بالإسراع إلى هذا الأمر على وجه المبالغة فإنّ صيغة المفاعلة للمبالغة وأمرنا بالإسراع لقلّة عمر الدنيا وطريق الإسراع في مرتبة الطبيعة والجسمانيّات الامتثال بالأوامر والاجتناب على النواهي.

وفي مرتبة النفس تزكيتها عن الأخلاق الرذيلة كالكبر والرياء والعجب والغضب والحسد وحبّ الجاه والمال وتحليتها بالأخلاق المحمودة كالتواضع والإخلاص والحلم والصبر على الشدائد والرضى والتسليم وفي مرتبة الروح

١ـ كنز العمال، ج ٢، ص ١٧٢، والجامع الصغير، ج ١، ص ٢٣٢.

بتحصيل معرفة الله واليقين. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كعرض سبع سماوات وسبع أرضين وإذا كان عرضها كذلك فيكف بطولها فإنّ طول كلّ شيء أكثر من عرضه في الغاية، وتقديم المغفرة في الآية لتقديم التخلية على التحلية ﴿أُعِدَّتْ﴾ وهيّئت ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه دليل على أنّ الجنّة مخلوقة بالفعل والإيمان بالرسل والعمل بكتابهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي وعد بالمغفرة والجنة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وعطاؤه ﴿يُؤْتِيهِ﴾ تفضيلا وإحساناً ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إيتائه إيّاه مع وجود القابليّة وقبولهم ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وفي الآية إشارة على أنّه سبحانه يجزي ويعطي الدائم الباقي على القليل ولو اقتصر في الجزاء على قدر ما يستحقّ بالأعمال كان عدلاً منه لكنّه يفضل بالزيادة على أنّه سبحانه لو لم يدعنا إلى الطاعة ولم يبيّن لنا الطريق الموصل إلى السعادة لما اهتدينا فذلك كلّه من فضل الله.

في الحديث قال النبي ﷺ: «خرج من عندي خليلي جبرئيل آنفا فقال: يا محمّد والّذي بعثك بالحقّ إن عبداً من عباد الله عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل يحيط به بحر فأخرج الله له عيناً عذبة في أسفل الجبل وشجرة رمّان كلّ يوم تخرج رمّانة فإذا أمسى نزل وأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمّان فأكلها ثمّ قام للصلاة فسأل ربّه أن يقبض روحه ساجداً وأن لا يجعل للأرض ولا لشيء على جسده سبيلاً حتّى يبعثه الله وهو ساجد ففعل ونحن نمرّ عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا وهو على حاله في السجود. قال جبرئيل: ونحن نجد في العلم أنّه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله فيقول له الربّ: أدخلوا عبدي الجنّة برحمتي فيقول العبد: بل بعملي فيقول الله:

فايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله فتؤخذ نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة وهبت عليه النعم الباقية بلا عبادة في مقابلتها فيقول الله: أدخلوا عبدي النار فيجرّ إلى النار فينادي ويقول: برحمتك أدخلني الجنّة فيقول الله: ردّوه إليّ فيوقف

بين يديه فيقول: عبدي من خلقك ولم تك شيئاً؟ فيقول: أنت يا ربّ فيقول: أ كان ذلك بعملك أو برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك فيقول: من قوّاك على عبادتي خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا ربّ فيقول: من أنزلك في جبل وسط البحر وأخرج الماء العذب من بين المالح وأخرج لك رمّانة كلّ ليلة وسألتني أن اقبضك ساجداً من فعل ذلك كلّه بك؟ فيقول: أنت فقال: ذلك كلّه برحمتي وبرحمتي أدخلك الجنّة الباقية»[1].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما نافية أصاب السهم إذا وصل إلى المري ثمّ استعير بالحادثة والنائبة أي ما حدث من حادثة كائنة في الأرض كجدب وآفة في الزروع وغيرها ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وموت وخوف عدوّ وجوع ﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ مكتوبة مثبتة في علم الله أو في اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ وقبل أن نخلق النفوس ليستدلّ ملائكته به على علمه تعالى والآية صريحة على أنّ جميع الحوادث الأرضيّة قبل دخولها في الوجود وكذا جميع أعمال الخلق مكتوبة في اللوح وليعرف الملائكة حلمه سبحانه فإنّه تعالى مع علمه أنّهم يقومون على المعاصي خلقهم ورزقهم وأمهلهم وفيها دليل على أنّه عالم بالأشياء قبل وقوعها لأنّ إثباتها في الكتاب محال. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إثباتها في كتاب مع كثرتها ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ متعلّق بقوله: ﴿يَسِيرٌ﴾.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أخبرناكم بإثباتها كي لا يحصل لكم الحزن والألم ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا يقال: أسى على مصيبة أي حزن ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وأعطاكم فإنّ من علم أنّ كلّا من المصيبة والنعمة مقدّر يذهب ما قدّر فواته ويأتي ما قدّر إتيانه لا محالة لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آت، قيل لبزرجمهر: أيّها الحكيم مالك لا تحزن على ما

١ـ المستدرك، ج٤، ص٢٥١، وكنزالعمال، ج١٤، ص٤٩٤.

فات ولا تفرح بما هو آت؟ قال: لأنّ الفائت لا يتلافى بالعبرة والآتي لا يستدام بالحبرة أي بالسرور.

والمراد من الآية نفي الأسى المانع لأمر الله والفرح الموجب للبطر والاختيال ولذا عقّب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ فإنّ من فرح بالحظوظ الدنيوية اختال وافتخر بها لا محالة والمختال المعجب المتكبّر من تخيّل فضيلة تتراءى للإنسان من نفسه ومنها يتأوّل لفظ الخيل لما قيل: إنّه لا يركب أحد فرساً إلّا وجد في نفسه نخرة كأنّ الخضراء له عرشت والغبراء باسمه فرشت وكسرى حامل غاشيته وقيصر راعي ماشيته وإسكندر قهرمان حاشيته.

وفي الآية إشارة إلى أنه يلزم أن يثبت الإنسان على حال في السرّاء والضرّاء فإن كان لا بدّ له من فرح فليفرح شكراً لا بطراً وإن كان لا بدّ من حزن فليحزن صبراً على بلائه لا ضجراً.

قال قتيبة بن سعيد دخلت على أحياء العرب فإذا أنا بفضاء مملوّ من الإبل الميّتة بحيث لا تحصى ورأيت شخصاً على تلّ يغزل صوفاً فسألته فقال: كانت باسمي فارتجعها من أعطاها وما سرّني أنّها لي في مباركها وما حزنني أنّها خرجت من ملكي. ومثل هذا يكون دأب الصالحين ولا يجري عليهم أحلام التلوين والاضطراب في اليقين بل لصاحب المال مصيبتان: يسلب عن كلّه ويسأل عن كلّه.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ بدل من كلّ مختال فإنّ المتكبّر بالمال يضنّ به غالباً ويأمر غيره به والبخل إمساك المقتنيات عمّا يحقّ إخراجها فيه وفي الحديث: **«أربعة لا يجدون ريح الجنّة وإنّ ريحها ليوجد في مسيرة خمسمائة عام: البخيل والمنّان ومدمن الخمر والعاقّ للوالدين»**.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الإنفاق ولا يخرج من ماله حقّ الله ﴿فَإِنَّ

﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عنه وعن إنفاقه ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المحمود في ذاته مستغن عن إقبال الخلق إليه وإدبارهم.

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكة إلى الأنبياء إلى الأمم وهو الأظهر ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ والحجج الواضحة ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وأنزلنا مع الرسل جنس الكتب لتكميل القوّة النظريّة والعمليّة فالنزول مع الكتاب شأن الملائكة والإنزال إليهم شأن الأنبياء ﴿وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ليعاملوا بينهم بالعدل إيفاء واستيفاء قيل: المراد من الميزان وإنزاله إنزال أسبابه وإلّا فالميزان من مصنوعات البشر وقيل: المراد نفس الميزان. روي أنّ جبرئيل عليه السلام نزل بالميزان نفسه فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال: قومك يزنوا به حتّى يعدلوا في الحقوق[1].

قال الغزاليّ: إنّ هذا الميزان هو ميزان معرفة الله ومعرفة كتبه ورسله ليتعلّم الإنسان من أنبيائه وليس المراد ما يوزن به البرّ والشعير ولعلّ دليله قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾[2]، أي: مقيماً للعدل في جميع أموره فإذا كان الله قائماً بالعدل في جميع الأمور كان الواجب على العباد أن يقوموا به أيضاً. وقال غير الغزاليّ: ما الدليل على العدول عن الظاهر؟ بل المراد من الميزان هو هذا الميزان المعروف.

﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدم من الجنّة معه خمسة أشياء من حديد: السندان والثاني الكلبتان والثالث الميقعة- أصله موقعة ما يحدّون به وقد وقعته بالمقيعة فهو وقيع حدّدته بها- والرابع المطرقة وهي آلة الضرب من الحديد والخامس الإبرة وهي مسلّة الحديد وفي الحديث: **«إنّ الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض أنزل الحديد والنار والملح»**. وعن ابن عبّاس ثلاثة

١ـ تفسير جامع الجوامع، ج٣، ص٥١٣، والكشاف، ج٤، ص٦٦.

٢ـ سورة آل عمران: ١٨.

أشياء نزلت مع آدم: الحجر الأسود وكان أشدّ بياضاً من الثلج وعصا موسى وكانت من أسّ الجنّة طولها عشرة أذرع والحديد وقيل: المراد وأنزلنا الحديد أي: خلقنا كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾[1] وذلك أنّ أوامره وأحكامه تنزل من السماء وقيل: أصل الحديد ماء وهو منزّل من السماء. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو القتال والدفاع به وذو قوّة شديدة ويحفظكم من أذى الموذي بالدفع به ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ كالسكّين والفأس والمسحاة وما من صنعة إلّا والحديد آلتها. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ كأنّه قيل: ليستعملوه وليعلم الله علماً يتعلّق به الجزاء وإلّا فهو عالم بمن يعمله في جهاد دينه ومقاتلة أعداء دينه ومن يعمل الحديد لإزهاق أرواح المؤمنين ويستعمله في الشرّ ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من فاعل ينصر أي غائبين عنه أي ينصرونه ولا يبصرونه وإنّما يحمد ويثاب من أطاع بالغيب من غير معاينة للمطاع أو حال من مفعول ينصر أي حال كونه تعالى غير مرئيّ لهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه غالب لا يفتقر إلى نصرة الغير واستعمال القوّة في حقّ الله بمعنى القدرة وهي الصفة الّتي تتمكّن الحيّ من الفعل وتركه بالإرادة.

قال بعض أهل الأوراد: إنّ ذكر القويّ له خاصيّة ظهور القوّة في الوجود وما تلاه ذو همّة ضعيفة إلّا وجده القوّة ولا ذو جسم ضعيف إلّا كان له ذلك ولو ذكره مظلوم بقصد إهلاك الظالم ألف مرّة كان له ذلك وكذلك خاصيّة اسم العزيز وجود الغنى فمن ذكره أربعين يوماً في كلّ يوم أربعين مرّة أعانه الله وأعزّه. وفي الأربعين الإدريسيّة يا عزيز المنيع الغالب على أمره فلا شيء يعادله قال السهروردي: من قرأه سبعة أيّام متواليات كلّ يوم ألفاً أهلك خصمه إذا كان الخصم بغير حقّ وإن ذكره في وجه العسكر سبعين مرّة ويشير إليهم بيده فإنّهم ينهزمون.

١ـ سورة الزمر: ٦.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ اللام للقسم أي: وباللّه قد بعثنا نوحاً إلى قومه وهم بنو قابيل ونوح يقال له: آدم الثاني ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قومه أيضاً وهم نمرد ومن تبعه ذكرهما اللّه بالرسالة تشريفاً لهما ولأنهما أبوان للأنبياء ومن أول الرسل فالبشر كلّهم من ولد نوح والعرب والعبرانيّون كلّهم من ولد إبراهيم.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ وفي نسلهما ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأنا بعض أولادهما وأوحينا إليهم الكتب مثل هود وصالح وموسى وهارون وداود ﴿فَمِنْهُم﴾ أي فمن ذرّيّة هذين الصنفين أو من المرسل إليهم ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى طريق الحقّ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن طاعة اللّه.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: ثمّ أرسلنا وأتبعنا على آثار نوح وإبراهيم ومن عاصرهما وبعد عصرهما من الرسل مثل هود وصالح فإنّهما بعد نوح ومثل إسماعيل وإسحاق ويعقوب فإنّهم بعد إبراهيم وبالجملة أرسلنا رسولاً بعد رسول حتّى انتهى إلى عيسى والآثار جمع إثر بالكسر تقول: خرجت على إثره أي عقبه.

قال الحريريّ: يقال شفعت الرسول بآخر أي جعلتها اثنين فإذا بعثت بالثالث فوجه الكلام أن يقال: عزّزت بثالث أي قوّيت كما قال سبحانه: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[1]، فمعنى قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: آتينا بعيسى بعد الرسل فأوّل أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ دفعة واحدة ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ أي: اتّبعوا عيسى في دينه كالحواريّين وأتباعهم ﴿رَأْفَةً﴾ وهي اللين ﴿وَرَحْمَةً﴾ وهي الشفقة كما كان الصحابة رحماء بينهم حتّى كانوا أذلّة على المؤمنين وكان أهل الإنجيل قد أمروا في الإنجيل بالصفح والإعراض عن مكافاة الناس على الأذى وكانوا متوادّين متحابّين بينهم ووصفوا بالرحمة خلاف اليهود الّذين وصفوا بالقسوة.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ ورهبانيّة منصوب بفعل مضمر يفسّره الظاهر أي أتباع عيسى ابتدعوا الترهّب وحملوا أنفسهم على هذا الأمر واستحدثوها بينهم والرهبانيّة المبالغة في العبادة بمواصلة الصوم ولبس المسوح وترك أكل اللحم والامتناع عن المطاعم اللذيذة والملابس الفاخرة والمناكح والتعبّد في الغيران والرهبة المخافة مع الحزن والاضطراب ورهبان فعلان من رهب كخشيان من خشي.

وقرئ بضمّ الراء كالرهبان جمع راهب وركبان جمع راكب والرهبان لمّا كان اسما لطائفة مخصوصة صار بمنزلة العلم وإن كان جمعاً في نفسه والتحقّق بالنصارى وأعراف فقيل: رهبانيّ كما يقال: أعرابيّ وأنصاريّ.

وسبب ابتداعها أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوا حتّى لم يبق منهم إلّا قليل فخافوا أن يفتتنوا في دينهم فاختاروا

١ـ سورة يس: ١٤.

الرهبانيّة في قلل الجبال فارّين بدينهم مخلّصين أنفسهم للعبادة منتظرين البعثة النبويّة الّتي وعدها عيسى لهم كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[1].

وروي أنّ الله لمّا أغرق فرعون وجنوده استأذن الّذين كانوا آمنوا من السحرة موسى عليه السلام في الرجوع إلى الأهل والمال بمصر فأذن لهم ودعا لهم فترهّبوا في رؤوس الجبال فكانوا أوّل من ترهّب وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتّى توفّاه الله ثمّ انقطعت الرهبانيّة بعدهم حتّى ابتدعها بعد ذلك أصحاب المسيح عليه السلام.

﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ ما فرضنا الرهبانيّة عليهم في كتابهم ولا على لسان رسولهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع أي ما رعوا جميعاً حقّ رعايتها بسبب التثليث والقول بالاتّحاد والكفر بمحمّد صلى الله عليه وآله وعدم تصديق النبيّ العربيّ ونحوها. قال صلى الله عليه وآله: **«من آمن بي وصدّقني فقد رعاها حقّ رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون»**[2].

وقال الزجّاج: الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ﴾ استثناء متّصل تقديره ما فرضناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله ولكنّ الصحيح أنّا ما فرضنا الرهبانيّة عليهم لكن هم ابتدعوا ذلك وألزموا أنفسهم ذلك التطوّع ودخلوا عليه فلزمهم تمامه كما أنّ الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يعرض عليه لزمه أن يتمّه فقوله: **«فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها»** على ضربين أحدهما: أن يكونوا قصّروا فيما ألزموه أنفسهم والثاني: وهو الأجود أن يكونوا حين بعث النبيّ فلم يؤمنوا به كانوا تاركين طاعة الله فما رعوا تلك الرهبانيّة ودليل قوّة هذا المعنى قوله:

١ـ سورة الصف: ٦.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص٤٠٤، وتفسير نورالثقلين، ج٥، ص٢٥٢، وتفسيرالصافي، ج٥، ص١٤٠.

﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: من العيسيّين إيماناً برسول اللّه لأنّ عدم تصديق محمّد يلزمه تكذيب عيسى لأنه بشّر به ﷺ فالّذين عملوا منهم وصدّقوا بما يجب عليهم أعطيناهم ما يحسن ويليق لهم من الأجر.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: من العيسيّين خارجون عن حدّ الإيمان روي أنّ نفرا من الصحابة أخذهم الخوف والخشية حتّى أراد بعضهم أن يعتزل عن النساء والإقامة على رؤوس الجبال وترك الأكل والشرب اللذيذ وبعضهم أراد الخصاء فنهاهم ﷺ عن ذلك كلّه وقال: **«لا رهبانيّة في الإسلام ورهبانيّة أمّتي في المسجد»**[1].

قال بعض أهل التحقيق: إنّ الكامل من الرجال من سدّ باب الابتداع ولم يزد في التكاليف حكماً واحداً ولا يجعل ورده وذكره غير ما ورد في الكتاب والسنّة فيكون حينئذ ممتثلا لا مخترعاً وقد شاهدنا بعض الناس متسرّعين إلى بعض النوافل مثل وضع الخواتم العديدة في أصابعهم لكنّهم متكاسلون عن القيام بحقوق الواجبات ولا يقومون بفرض واحد على وجهه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسل المتقدّمه ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يعني: محمّدا وفي إطلاقه إيذان بأنّه علم فرد الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين وأجرين والكفل الحظّ الّذي فيه الكفالة كأنّه تكفّل بأمره نصيباً لإيمانكم بمن تقدّم من الأنبياء ونصيباً لإيمانكم بمحمّد ﷺ. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وهو الضياء الّذي تمشون به على الصراط ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة.

١ـ الخصال، للصدوق، ص١٣٨، وبحار الأنوار، ج٦٥، ص٣١٩، وتفسير مجمع البيان، ج٩، ص٤٠٢.

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لا مزيدة مؤكّدة مثل قوله[1]:﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ وإنّما يحسن إدخال مثل هذا اللام المزيدة في كلام أواخره أو أوائله جحد وتقدير الكلام إن تتّقو اللّه وتؤمنوا باللّه ورسله يؤتكم كذا وكذا ليعلم الّذين لم يسلموا من أهل الكتاب ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أن هي المخفّفة والاسم ضمير الشأن والمعنى أنّ الّذين لم يؤمنوا لا أجر لهم ولا نصيب من فضل اللّه. ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فأتى المؤمنين منهم أجرين وحاصل ليعلموا أنّهم لا ينالوا شيئاً من الفضل والكفلين والمغفرة ولا يتمكّنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الّذي هو الإيمان بمحمّدﷺ وإنّ الفضل بيده سبحانه ولا يعطيه إلّا لمن آمن به وقيل: إنّ المراد من فضل اللّه هنا النبوّة أي ليعلم أهل الكتاب أنّهم لا يقدرون على نبوّة الأنبياء ولا على صرفها عمّن شاء اللّه أن يخصّه بها فيصرفونها عن محمّد إلى من يحبّونه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

تمّت السورة.

١ـ سورة الأعراف: ١٢.

سُورَةُ المُجَادَلَة

من قرأها كتب من حزب الله يوم القيامة[1]. هي اثنتان وعشرون آية مدنيّة أو إلّا آية منها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ
أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ
وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ
يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾

سمع مجاز مرسل عن أجاب بعلاقة السببيّة، والمجادلة المفاوضة على سبيل الجدل والمبالغة من جدلت الحبل أي أحكمت فتله والمراد هنا

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٤٠٧، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٥١، وتفسير نورالثقلين، ج٥، ص٢٥٤.

المكالمة بالخشونة والمعنى قد أجاب اللّه دعاء المرأة الّتي تكالمك في حقّ زوجها وتستفتي في شأن زوجها في ظهاره إيّاها. ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والشكاية والشكاة والشكوى إظهار البثّ والمكروه والشكوة سقاء صغير يجعل فيه الماء وهو استعارة كقولك: بثثت له ما في وعائي ونفضت ما في جرابي إذا ظهرت ما في قبلك.

نزلت في خولة بنت ثعلب بن مالك الخزرجية وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة روي أنّها كانت حسنة البدن رآها أوس وهي تصلّي فاشتهى مواقعتها فلمّا سلّمت راودها وأبت وكان به خفّة فغضب عليها وقال: أنت عليّ كظهر امّي وكان أوّل ظهار وقع في الإسلام ثمّ ندم على ما قال: وكان الظهار والإيلاء من طلاق الجاهليّة فقال لها: ما أظنّك إلّا وقد حرمت عليّ فشقّ ذلك عليها فأتت رسول اللّهﷺ فقالت: يا رسول اللّه إنّ زوجي أوس أبو ولدي وابن عمّي وأحبّ الناس إليّ ظاهر منّي وما ذكر طلاقاً وقد ندم على فعله فهل من شيء يجمعني وإيّاه؟ وذكرت تفاني أهلها وأنّ لها صبية صغاراً وقالت: إن ضممتهم إليّ جاعوا وإن ضممتهم إلى أبيهم ضاعوا. فقال النبيﷺ: «أظنّ أنك حرمت عليه». فجعلت تراجع رسول اللّه مقالتها الأولى وكرّرﷺ مقالته عليها؛ فقالت: أشكو إلى اللّه مما لقيت من زوجي حال فاقتي ووحدتي وقد طالت معه صحبتي ونفضت له بطني وصرت عقيماً لا ألد بعد وكانت في كلّ ذلك ترفع رأسها إلى السماء استنزالاً للأمر الإلهيّ حتّى نزل جبرئيل بهذه الآيات الأربع قبولاً لشكواها فكانت سبباً لظهور حكم الظهار[1] و﴿قَدْ﴾ تدخل على ماض متوقّع.

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي يعلم تخاطبكما والمحاورة رجع الكلام من

١ـ مستدرك الوسائل، ج١٥، ص٣٨٨، وتفسير القرطبي، ج١٧، ص ٢٧٠.

الحور بمعنى الرجوع ومنه في الدعاء نعوذ بالله من الحور بعد الكور أي من الرجوع إلى النقصان بعد وصول الزيادة أو إلى الوحشة بعد الأنس وذلك التحاور لأنّ المرأة تراجع الرسول في طلب التحليل والرسول لا يحكم به ويدافعها بجواب ينبئ عن التوقّف وترقّب الوحي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ قال صاحب تفسير «روح البيان»: إنّ هذه المرأة هي الّتي وعظت عمر بن الخطّاب في أيام خلافته وهو راكب على حمار في طريق والناس معه فاستوقفته ووعظته فقالت: يا عمر قد كنت تدعى عميراً ثمّ قيل لك: عمر ثمّ قيل لك: أمير المؤمنين فاتّق الله يا عمر فإنّه من أيقن الموت خاف الفوت ومن أيقن الحساب خاف العذاب فقيل لعمر: أ تقف لهذه العجوز هذا الوقوف الطويل؟ فقال عمر: هي خولة سمع الله قولها من سبع سماوات ولا يسمع كلامها عمر؟

قال بعض أهل التحقيق: من أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه: اتّق الله ولا تفعل كذا فيقول في جوابه: عليك نفسك. والإنسان لا يستغني عن تنبيه وإيقاظ وينبغي أن يكون الإنسان كالنحل يأخذ من النبات الطيّب والأزهار المعطّرة ثمّ يخرجه عسلاً فيه شفاء من كلّ داء وشمعاً وضياء لنفسه. قال الشاعر:

المرء لو لا عرفه فهـو الـدميّ   والمسك لو لا عرفه فهو الدم

العرف الأول بضم العين بمعنى المعروف والثاني بمعنى الرائحة والدميّ جمع دمية الصور المنقّشة من الرخام والعاج وفي زماننا يقال له المجسّمة.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ أيّها المؤمنون فلا يلحق بهم الذمّي لأنّه ليس من أهل الكفّارة من النساء، والظهار مصدر ظاهر الرجل أي قال لزوجته: أنت عليّ كظهر امّي ويعبّر عن البطن بالظهر وكنّي عن البطن بالظهر الّذي هو عمود البطن لمراعاة الأدب في الكلام لئلّا يذكر ما يقارب الفرج والمعنى إنّ

الّذين يقولون لنسائهم: أنتنّ كظهور امّهاتنا.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ يعني: ما اللواتي تجعلونهنّ من الزوجات كالامّهات بأمّهاتهم ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ إن نافية بمعنى ما امّهاتهم في الحقيقة إلّا اللّائي جمع الّتي أي النساء اللّاتي ولدن المظاهرين فلا تشبه بهنّ في الحرمة إلّا من ألحقها الشرع بهنّ من أزواج النبيّ ومثل المرضعات ومنكوحات الآباء لكرامتهنّ فدخلن بذلك في حكم الأمّهات ولكنّ الزوجات فأبعد شيء من الأمومة.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: إنّ المظاهرين منكم ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ عند الشرع والعقل والطبع لأنّ الزوجة ليست بالأمّ ولا ممّن ألحقه الشرع بالأمومة فهذا التشبيه منكر غير معروف مطلقاً ﴿وَزُورًا﴾ وباطلا وكذبا منحرفاً عن الحقّ، والزور بالتحريك الميل ويقال للكذب: زور بالضمّ لكونه مائلاً عن الحقّ. فإن قلت: قوله: أنت عليّ كظهر أمّي إنشاء لتحريم الاستمتاع بها[١] وليس بخبر والإنشاء لا يوصف بالكذب قلنا: هذا من قبيل إطلاق السبب على المسبّب لأنّ هذا الإنشاء يتضمّن إلحاق المحلّلة بالأمّ المحرّمة وهذا الإلحاق مناف لمقتضى الزوجيّة فيكون كاذباً لا محالة وفي الحديث قال رسول الله: **«إلّا انبّئكم بأكبر الكبائر؟»** قلنا: بلى يا رسول الله قال: **«الإشراك بالله وعقوق الوالدين»**. وكان متّكئاً وقال: **«إلّا وقول الزور وشهادة الزور»** فما زال يقولها حتّى قلنا: لا يسكت[٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة لما سلف إمّا على الإطلاق على مذهب الأشاعرة أو بالمتاب عنه على مذهب الاعتزال.

١ـ انظر: وسائل الشيعة، ج١٥، ص٥٠٦.

٢ـ تحرير الأحكام، للعلامة الحلي، ج٥، ص٢٩٧، ومستدرك الوسائل، ج١٧، ص٤١٦.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: الّذين يقولون ذلك القول المنكر ثمّ يعودون إلى ما قالوا، اللّام وإلى يتعاقبان كثيرا نحو يهدي للحقّ وإلى الحقّ والمراد إذا عادوا إلى ما قالوا بالتدارك قال ابن عبّاس: العود في الآية المراد الندم فقال: معناه يندمون ويرجعون إلي الالفة وقال الفرّاء: المعنى يرجعون عمّا قالوا يقال: عاد لما فعل أي رجع ونقض ما فعل ويحتمل أن يقال: عاد لما فعل يريد فعله مرّة اخرى وهو أن يكرّر لفظ الظهار، عن أبي العالية واحتجّ بأنّ لفظ العود يدلّ على تكرير القول وردّه أبو عليّ الفارسيّ: ليس هذا كما ادّعوا لأنّ العود قد يكون إلى شيء لم يكن عليه قبل وقد سمّيت الآخرة معادا ولم يكن فيها أحد ثمّ صار إليها. وقال الأخفش: تقدير الآية «والّذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا» ثمّ يعودون إلى نسائهم وعليهم تحرير الرقبة لما نطقوا به وقال: التقديم والتأخير كثير في التنزيل.

وأمّا ما ذهب إليه أئمّة الهدى من آل محمّد ﷺ فهو أنّ المراد بالعود إرادة الوطي ونقض القول الّذي قاله فعليه تحرير رقبة قبل الوطي فإنّ الوطي لا يجوز إلّا بعد الكفّارة[1] كما قال سبحانه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي: من قبل أن يجامعها والتحرير هو أن يجعل الرقبة المملوكة حرّة بالعتق بأن يقول المالك لمن تملّكه: أنت حرّ. وبالجملة فالنكاح باق وحرمة الوطي أيضاً باق ما لم يكفّر ونزول بالتكفير.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الحكم بالكفّارة أيّها المؤمنون ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ الوعظ زجر يقترن بتخويف أي تزجرون به من ارتكاب المنكر المذكور فإنّ الغرامات مزاجر من تعاطي الجنايات والتباعد عن الباطل فيحصل من هذا

١ـ تفسير نورالثقلين، ج٥، ص٢٥٦.

الحكم التدارك للمظاهر ولغير المظاهر الاجتناب عن ارتكاب مثله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ من قليل وكثير فيجازيكم بها. ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ المظاهر ولا يتمكّن من تحرير الرقبة بأن كان فقيراً وقت التكفير ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ عليه ﴿مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ ليس فيها رمضان ولا الأيّام المحرّمة صومها كالعيدين بحيث لا يفعل يوماً عن يوم ولا شهراً عن شهر بالإفطار والتتابع عند أكثر الفقهاء وقال أصحابنا الإماميّة: إنّه إذا صام شهراً ومن الثاني شيئاً ولو يوماً وأحداً ثمّ أفطر لغير عذر فقد أخطأ إلّا أنّه يبني عليه ولا يلزمه الاستيناف وإن أفطر قبل ذلك استأنف ومتى بدأ بالصوم وصام بعض ذلك ثمّ وجد الرقبة لا يلزمه الرجوع إلى التحرير وإن رجع كان أفضل وقال قوم: إنّه يلزمه الرجوع إلى العتق.

﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ أي: من لم يطق الصوم لعلّة أو كبر فعليه إطعام ستّين مسكينا والمسكين- ويفتح ميمه- من لا شيء له أوله ما لا يكفيه وأسكنه الفقر أي قلّل حركته، لكلّ مسكين نصف صاع عند أصحابنا وهو مدّان فإن لم يقدر فمدّ هذا إذا كان حرّاً وأمّا إذا كان المظاهر عبداً فعليه الصوم إلّا إذا أمكنه المولى عن ثمن الرقبة فحينئذ لا يجوز له الصوم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ البيان والتعليم ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وتعملوا بحكمه وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليّتكم. ﴿وَتِلۡكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الّتي لا يجوز تعدّيها وتجاوزها والحدّ الحاجز بين الشيئين اللّذين يمنع اختلاط أحدهما بالآخر ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الّذين لا يقبلون الحدود ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يشاقّونهما ويعادونهما ويكونون في حدّ غير حدّ هما وفي شقّ غير شقّهما وقيل: المحادّة مفاعلة من لفظ الحديد والمراد المقابلة سواء كان في ذلك حديد حقيقة أو كان ذلك مخالفة شديدة

شبيهة بالخصومة بالحديد ويضعون حدودا غير حدودهما قال صاحب تفسير «روح البيان»: كالامراء السوء الّذين وضعوا أموراً خلاف ما حدّه الشرع وسمّوها القانون.

﴿كُبِتُوا﴾ أي: أخزوا وصرعوا منكوساً وذلّوا والعبارة تصلح أن يكون دعاء عليهم وإخباراً عمّا سيكون وأتى بالماضي لتحقّقه أي سيكبتون ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من كفّار الأمم الماضية ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ حال من واو الجمع في كبتوا أي والحال إنّا قد أنزلنا آيات واضحات فيما فعلنا بمن حادّ الله من قبلهم من الأمم. فإن قيل: إنّ الإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل والآيات الّتي هي من الكلام من الأعراض القارّة فكيف قال: أنزلنا؟ فالمراد: أنزل ما يتلقّف من الله ويرسل إلى عباده مثل جبرئيل فيسند الإنزال إليها مجازاً فكونها المقصودة منه ويصدق على الآيات لفظ النزول لأنّها نازلة من السماء. ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالآيات ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ يذهب بغيرهم من الإهانة الحاصلة بالعذاب.

يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا
يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ
أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ
يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا
جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا
نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾

يوم منصوب بالذكر المقدّر تهويلاً له والمراد يوم القيامة أي يحييهم بعد الموت للجزاء ﴿جَمِيعًا﴾ كلّهم فيكون تأكيداً للضمير أو حالاً أي مجتمعين ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ من القبائح ببيان صدورها أو بتصويرها في تلك النشئة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤوس الأشهاد تشهيراً لحالهم ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ كأنّه قيل: كيف ينبّئهم بأعمالهم وهي أعراض فانية متلاشية؟ فقيل: أحصاه الله وأحاط بها عدداً وحفظاً لم يفت عن علمه شيء والإحصاء مأخوذ من لفظ الحصى إذ أصله العدد بآحاد الحصى للتقوّي على الضبط ﴿وَنَسُوهُۚ﴾ أي والحال أنّهم قد نسوه لكثرته أو لتهاونهم حين ارتكبوه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور والشهود بمعنى الحضور والمراد بالحضور الحضور العلمي لا الحضور الجسميّ. ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بيان على شمول شهوده تعالى والهمزة للإنكار الّذي مقرّر للرؤية والمعنى ألم تعلم علما يقينيّا بمرتبة المشاهدة والرؤية أنّه تعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض من الموجودات قال ابن عبّاس: إنّها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن اميّة كانوا يتحدّثون فقال أحدهم: أ ترى الله يعلم ما نقول: فقال الآخر: يعلم بعضا وقال الثالث: إن كان يعلم بعضا فهو يعلم كلّا لأنّ من علم بعضا بغير سبب فقد علمها كلّها فنزلت الآية.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ «ما» نافية ويكون تامّة بمعنى يقع ويوجد ونجوى فاعله وهو مصدر بمعنى التناجي كالشكوى يقال: نجاه

نجوى أي سارّه كناجاه المناجاة والنجوى السرّ الّذي يكتم وأصله أن تخلو في نجوة ومرتفع من الأرض منفصل بارتفاعه عمّا حوله كأنّ المتناجي بنجوة من الأرض لئلّا يطّلع عليه أحد والمعنى أنّه ما يتسارّ ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى ﴿رَابِعُهُمْ﴾ أي جاعلهم أربعة من حيث يشاركهم في الاطّلاع عليها ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ أي: ولا نجوى خمسة نفر ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ ثمّ عمّم الحكم فقال: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: أقلّ ممّا ذكر لا الاثنين والواحد فإنّ الواحد أيضاً يناجي نفسه ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ كالستّة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ بالعلم والإحاطة ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ وفي أيّ مكان ولو كانوا تحت الأرض ثمّ إنّ هذه المعيّة مع المؤمن والكافر لكن له سبحانه معيّة اللطف والتقرّب ببعض عباده المخصوصين بالفيض.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ ويخبرهم أعمالهم في الدنيا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنّ نسبة ذاته المفيضة للعلم إلى الكلّ سواء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا﴾ نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتخلّفون ثلاثة وخمسة ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيضوهم فنهاهم رسول اللّه ثمّ عادوا لمثل فعلهم والخطاب للرسول والهمزة للتعجّب من حالهم ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ عطف على قوله: ﴿يَعُودُونَ﴾ داخل في حكمه وبيان لما نهوا عنه أي بما هو إثم في نفسه وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول والعدوان والمعصية خلاف الطاعة. ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ﴾ أهل النجوى ﴿حَيَّوْكَ﴾ والتحيّة في الأصل مصدر حيّاك على الإخبار من الحياة فمعنى حيّاك اللّه جعل لك حياة ثمّ استعمل للدعاء ثمّ غلب في الإطلاق عليه، السّلام ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي بشيء لم يقع من اللّه أن يحيّك به فكانوا يقولون: السام

عليك والسام بلغتهم الموت أو القتل بالسيف وهم يوهمون أنّهم يقولون: السلام عليك وكانﷺ يردّ عليهم «عليكم» بدون الواو.

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: فيما بينهم إذا خرجوا من عندك: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ أي: هلّا يعذّبنا الله ويغضب علينا بجرأتنا على الدعاء بالشرّ عليه لو كان نبياً حقاً ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ أي: كافيهم جهنّم في التعذيب من حسبه إذا كفاه يصلونها ويقاسون حرّها وإن لم يعجّل تعذيبهم لحكمة ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والمقرّ والفاء في فبئس لما فيه من معنى التعقيب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بألستهم وقلوبهم ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ في أنديتكم وخلواتكم ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ كما يفعله المنافقون واليهود ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ وما يتضمّن خير المؤمنين وذكر الله وقراءة القرآن وإصلاح الناس.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ والمضاف محذوف أي اتّقوا عذاب الله وما يفضي إلى سخطه ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ المعهودة الّتي هي التناجي بالإثم بقرينة ليحزن ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لا من غيره لأنّه المزيّن لها فكأنّها منه ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والحزن بضمّ الحاء بعده السكون متعدّ من الباب الأوّل والحزن بفتحين لازماً من الباب الرابع والحزن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغمّ ويضادّه الفرح فالمعنى أنّ النجوى الممنوعة من الشيطان ليجعل قلوب المؤمنين محزونة ويشوّش قلوبهم ويتوهّمون أنّه تصيبهم نكبة أو أمر موحش، وفي الحديث: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه»**.

﴿وَلَيۡسَ﴾ أي: الشيطان أو التناجي ﴿بِضَآرِّهِمۡ﴾ بالّذي يضرّ المؤمنين ﴿شَيۡـًٔا﴾ من الأشياء ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بمشيّته وإرادته أو بعلمه وإن كان يوجب الحزن للمؤمنين لكن إذا سلّمت عاقبته لا يكون ضرراً في الحقيقة

وهذه نكتة كلاميّة أصوليّة إذ الضرر إذا كانت عاقبته الثواب لا يكون ضرراً في الحقيقة والنفع إذا كانت عاقبته العذاب لا يكون نفعا مثل الجهاد لأنّ سبب الجهاد أمره تعالى وهو يلحقهم الآلام والأمراض عقيب ذلك لكن هذا ليس بضرر بل نفع لهم وقيل: إنّ الآية المراد بها الأحلام الّتي يراها الإنسان في نومه فيحزنه.

روي أنّ فاطمة عليها السلام رأت كأنّ الحسن والحسين عليهما السلام أكلا من أطيب جزور بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله إليهما فماتا فلمّا أصبحت سألت النبي صلى الله عليه وآله وسأل هو جبرئيل وجبرئيل ملك الرؤيا فقال: «لاعلم لي به فعلم» صلى الله عليه وآله أنّه من الشيطان[1].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ والشيطان يناجي النفس الأمّارة ويتزيّن لها القبائح والمعارضات ليقع القلب والروح في الاضطراب والحزن للتقاعد عمّا أمره الله وينقطع عن السير فليكن العبد على المعالجة دائماً بتفويض الأمور إليه ويشتغل بما هو عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ
لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ
فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ
ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ

١ـ هذه القضية كاذبة جداً لأن فاطمة عليها السلام معصومةٌ الصديقة الفاضلة الزكية المحدثّةُ العلمية وبضعةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وروحه الذي بين جنبيه .... ولا يمكن تسلط الشيطان عليها – ولو في النوم–معاذ الله من هذه الكلمات المتشططة .... ولم أجدها في الكتب المصدرية.

وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يعني: المخلصين ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ من أيّ قائل كان من إخوانكم توسّعوا وليتفسح بعضكم عن بعض ولا تتضامّوا ﴿فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ متعلّق بقيل أو بقوله: ﴿تَفَسَّحُوا۟﴾ والصحيح الثاني لأنّ البيهقيّ صرّح في تاج المصادر بأن التفسّح يعدّى بفي ﴿فَٱفْسَحُوا۟﴾ فتوسّعوا ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما تريدون من المكان والصدر والرزق والقبر فإنّ الجزاء من جنس العمل والآية عامّة في كلّ مجلس خيراً اجتمع فيه المؤمنون سواء كان مجلس الرسولﷺ وكانوا يتضامّون تنافسا في القرب منه أو مجلس الذكر أو الجمعة وفي الحديث: **«لا يقيمنّ أحدكم الرجل من مكانه ومجلسه ثمّ يخلفه فيه ولكن تفسّحوا وتوسّعوا»**.

روي إنّ رجلاً من الفقراء دخل المسجد وأراد أن يجلس بجنب واحد من الأغنياء فلمّا قرب منه قبض الغنيّ إليه ثوبه فرأى النبيﷺ ذلك فقال للغنيّ: **«خشيت أن يعديه غناك أو يعديك فقره»**. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾ يقال: نشز الرجل إذا ارتفع عن مكانه وكذلك النشز بفتحتين المكان المرتفع من الأرض والمعنى إذا قيل: لكم قوموا للتوسعة على المقبلين ولمن جاء بعدكم ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾ وارتفعوا وقوموا ولا تتثاقلوا عن القيام وتوسّعوا لإخوانكم لضرورة داعية إليه أو للتحبّب والمواساة. وفي الحديث أنهﷺ كان يكرم أهل بدر فأقبلت جماعة منهم فلم يوسّعوا لهم فقالﷺ: **«قم يا فلان»** فأقامﷺ من المجلس بعدد المقبلين من أهل بدر فتغامز به المنافقون أنّه ليس من العدل يقيم أحداً من مجلسه وشقّ ذلك على من أقيم من مجلسه

وعرف رسول الله الكراهة في وجوههم فأنزل الله الآية[1].

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ جواب لأمر أي من فعل ذلك طاعة للأمر يرفعهم الله بالنصر والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة لأنّ من تواضع رفعه الله ومن تكبّر وضعه. ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: ويرفع العلماء منهم خاصّة وهو من عطف الخاصّ على العامّ للدلالة على طبقاتهم ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ أي: مراتب مرتفعة بسبب ما جمعوا من العلم والعمل والعمل مع العلم لا يدرك شأوه العمل العاري عن العلم وإن كان العامل في غاية الصلاح قال ابن عبّاس: تمّ الكلام عند قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ وينتصب ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بفعل مضمر تقديره ويرفعهم درجات أي إلى درجات أو رفع درجات أو على الحاليّة أي ذوي درجات.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم لا يخفى عليه شيء والعمل لا بدّ وأن يكون حسبما قرّره الشارع وبيّنه العلماء الربّانيّون وهم الأئمّة الاثنا عشر لأنّهم أهل البيت وأهل البيت أدرى بما في البيت.[2] وللعلماء إطلاقات كما قالوا: نحن العلماء وشيعتنا المتعلّمون[3] والباقي همج رعاع فالمتعبّد بغير طريقتهم ومن غير علمهم كحمار الطاحونة يدور ولا يقطع المسافة والعالم من شأنه أن يجمع مع علمه العمل وكلّ علم لم يوطد بعمل فإلى ذلّ يصير والعلماء أيضاً لهم درجات من الشرف في الزيادة والنقصان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ خالصاً ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ وكالمتوه سرّاً في بعض شؤونكم فقدّموا قبل أن تسارّوه صدقة

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج١٧، ص٢٤، وتفسيرالقرطبي، ج١٧، ص٢٩٧.

٢ـ بحار الأنوار، ج٧٨، ص٢٧٤.

٣ـ بصائرالدرجات، ص٢٩ (نحن العلماء وشيعتنا المتعلمون وسائر الناس غثاء) وبهذه العبارة في المنيةالمريد، ص١٨٢.

للفقراء وأراد بذلك تعظيم الرسول وأن يكون ذلك سبباً لأن يتصدّقوا فيوجروا عليه فلمّا نهوا عن المناجاة حتّى يتصدّقوا ضنّ كثير من الناس فلم يناجه أحد إلّا عليّ بن أبي طالب فإنّهعليه السلام كان له دينار فباعه بعشرة دراهم وناجى رسول اللّه عشر نجوات[1].

وقال بعض أهل التفسير: وكان ذلك الحكم عشر ليال أو أقلّ ونسخت بآية ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُوا﴾ الآية.

وبالإسناد إلى مجاهد قال: «قال عليّ: إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها بعدي وهي آية النجوى» وفي الخصال عنهعليه السلام في احتجاجه على أبي بكر قال: «فأنشدك بالله أنت الّذي قدّم بين يدي نجواه لرسول الله صدقة فناجاه وعاتب الله قوماً بقوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ الآية أم أنا؟». فقال أبو بكر: بل أنت[2] وبالجملة نزلت الآية حين أكثر الناس عليه السؤال حتّى أسأموه وأملّوه فأمرهم اللّه بتقديم الصدقة للفقراء عند المناجاة فكفّ الناس أمّا الفقير فلعسرته وأمّا الغنيّ فلشحّه ثمّ نسخت بقوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ وهو وإن كان متّصلاً به تلاوة لكنّه متراخ عنه نزولاً.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: ذلك التصدّق أنفع لكم من الإمساك ﴿وَأَطۡهَرُ﴾ لأنفسكم من درن البخل الناشي من حبّ الدنيا وهذا يشعر بالندب لكن قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ منبئ عن الوجوب لأنّه ترخيص لمن لم يجد فهو غفور لهم ورحيم بهم.

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُوا بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾ والمعنى أخفتم الفقر؟ والمفعول محذوف وأفرد الصدقة أوّلاً لكفاية شيء منها وجمع ثانياً نظراً إلى

۱ـ شواهدالتنزيل، ج۲، ص۳۲۳، وينابيع المودّة، ج۱، ص۳۰۰، وبحار الأنوار، ج۳۵، ص۳۸۰.

۲ـ الاحتجاج، ج۱، ص۱۸۲، وحلية الابرار، ج۲، ص۳۱۱.

كثرة التناجي والمناجي ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وشقّ عليكم ذلك ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخّص لكم في أن لا تعلوه وأسقط عنكم تقديم الصدقة و«إذ» في الآية فيها معنى الظرفيّة أي إنّكم تركتم ذلك فيما مضى وتجاوز اللّه عنكم فتداركوه بما تؤمرون به بعد هذا فإن فرّطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وتداركوه بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة وفي تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر إشارة إلى إنافة قدرهما وعلوّ شأنهما فإنّ الصلاة رئيس الأعمال البدنيّة وبها يتحقّق صورة العبوديّة ومعناها وهي مخّ العبادة والعبوديّة من الخضوع والذلّة والتكبير والتهليل والركوع والسجود والصلاة على النبيﷺ ومن تركها فهو محروم من تمام هذه الكيفيّة الجامعة والويل لتاركها وإنّ الزكاة أمّ الأعمال الماليّة بها يطهّر القلب من دنس البخل فإنّها هي المطهّرة وبها ينمو المال في الدنيا لأنّه سبحانه يمحق الربا ويربي الصدقات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ تعجيب من حال المنافقين الّذين يتّخذون اليهود أولياء ويناصحونهم ويتحاببون إليهم بالمعاشرة أي ألم تنظر إلى هؤلاء الّذين يتولّون من الموالاة لا من الإعراض أي والوا قوماً غضب اللّه عليهم وهم اليهود كما ينبئ عن هذا المعنى قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ والغضب حركة للنفس مبدؤها إرادة الانتقام وهو بالنسبة إليه تعالى نقيض الرضا ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أي المتولّين لمن غضب اللّه عليه منكم ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي وليسوا من القوم المغضوب عليهم لأنّهم منافقون مذبذبون وإن كانوا كفّاراً في الواقع لكنّهم ليسوا من اليهود. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أي يحلفون واللّه إنّا لمسلمون ويدّعون الإسلام وهو عطف على تولّوا ﴿وَهُمْ

يَعْلَمُونَ﴾ أي هم في يمينهم عالمون بكذب حلفهم فإنّ الحلف على ما يعلم أنّه كذب في غاية القبح والآية نزلت حين ما كان ﷺ في حجرة من حجراته فقال: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار وينظر بعين شيطان». فدخل عبد اللّه بن نبتل- كجعفر بتقديم النون على الباء الموحّدة- وكان اللعين أزرق. فقال ﷺ: «له علام تشتمني أنت وأصحابك؟». فحلف باللّه ما فعل: فقال ﷺ: «فعلت». فانطلق بأصحابه فحلفوا باللّه ما سبّوه فنزلت الآية[1].

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بسبب ذلك التولّي والنفاق ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وتنكير العذاب يشعر بشدّته ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي تمرّنوا على هذا العمل السيّئ واعتادوا ويستفاد معنى الاعتياد والتمرين من «كان» الدالّة على الزمان الماضي أي ذلك كان دأبهم وبئس العمل عملهم وهو النفاق وموالاة أعداء اللّه.

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

١ـ انظر: تفسير مجمع البيان، والكشاف، ج٤، ش ص٧٨.

﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الكاذبة الفاجرة الّتي يحلفون بها عند الحاجة ﴿جُنَّةً﴾ وهي الترس الّذي يجنّ صاحبه ويستره، وقاية وسترة على أكاذيبهم ويحفظ نفوسهم وأموالهم ﴿فَصَدُّواْ﴾ أي: منعوا الناس وصرفوهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن دين اللّه وتثبيط من لقوا عن الدخول في الإسلام ﴿فَلَهُمۡ﴾ بسبب كفرهم وصدّهم ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ مخز بين أهل المحشر وقوله: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لأنّ العذاب الأوّل موصوف بالشدّة والثاني بالخزي قيل: الأوّل عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة. ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ قليلا، من الإغناء وإذا دخلوا النار لا تنفعهم أموالهم الّتي صانوها وأولادهم الّذين ربّوهم فإنّ يوم القيامة يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات القبيحة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ وملازموها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً وتقديم ضميرهم لتقوية الإسناد ورعاية الفاصلة لا للحصر لخلود غير المنافقين فيها أيضاً من الكفّار.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ أي: اذكر يوم يجمعهم اللّه ﴿فَيَحۡلِفُونَ﴾ في ذلك اليوم ﴿لَهُۥ﴾ أي للّه على أنّهم مسلمون مخلصون كما قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ ﴿كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ في الدنيا. ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ مصدره الحسبان ويقارب الحسبان الظنّ ولكنّ الظنّ هو أن يخطر النقيضان بباله فيغلب أحدهما الآخر والحسبان هو أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ المبالغون في الكذب حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علّام الغيوب والمراد من حرف التنبيه في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ﴾ بيان وتنبيه على توغّلهم في النفاق موتاً وحياة.

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ من حذت الإبل إذا استوليت عليها وجمعتها

وسقتها سوقاً عنيفاً أي ملكهم الشيطان لطاعتهم له في كلّ ما يريد منهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: كان بالاستيلاء سبباً لنسيان الله فلم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنافقون ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وجنوده وأعوانه والحزب الفريق الّذي يجمعه مذهب واحد ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الموصوفون بالخسران حيث فوّتوا على أنفسهم النعيم المقيم.

قال بعض المشايخ: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس ويشغل قلبه عن القيام لشكرها ويشغل لسانه بالكذب عن ذكر ربّه وسمعه عن الحقّ بسماع اللهو ومتى ما احتجب القلب عن التذكّر صار وطن إبليس وجنوده. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: يعادونهما ويتعدّون حدودهما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: إنّهم في جملة من هو أذلّ خلق الله لأنّ ذلّة أحد المتخاصمين على مقدار عزّة الأخرى وحيث كانت عزّة الله غير متناهية كانت ذلّة من يحادّه كذلك وذلك بالسبي والقتل في الدنيا وعذاب النار في الآخرة.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ أي قضى وأثبت في اللوح ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ ولمّا جرى الكلام مجرى القسم بقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ فأورد الكلام كجواب القسم بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾ والمراد بالغلبة الحجّة والسيف أو بالعاقبة لأنّهم الفائزون بالعاقبة الحميدة وسبب نزول الآية أنّ عبد الله بن ابيّ بن سلول رئيس المنافقين قال: أ تظنّون الروم والفارس كبعض القرى الّتي غلبتم عليها؟ والله إنّهم لأكثر عدداً وأشدّ بطشاً من أن تظنّوا فيهم ذلك فنزلت الآية. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ تعليل للغلبة، قويّ في نصرة أوليائه لا يغلب عليه في مراده.

فإن قلت: إذا كان الله قويّاً غالباً فما وجه انهزام المسلمين في بعض الأحيان مع أنّه وعد النصرة؟

فالجواب أنّه لو شدّد المحنة على الكافر والباطل في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الضروريّ بأنّ الإيمان حقّ وما سواه باطل ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب فلهذه الحكمة تارة يسلّط المحنة على المؤمنين واخرى على الكافرين لتكون الشبهات باقية والمكلّف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ أو لكلّ أحد والمراد بنفي الوجدان نفي الموادّة أي إنّ الإيمان يفسد بموادّة الكفّار ولا يصدر من كامل الإيمان هذا الأمر ومن أخلص توحيده لا يأنس إلى أعداء اللّه وإلى مبتدع ولا يجالسه ولا يؤاكله ويظهر من نفسه العداوة ومن داهن مبتدعا سلبه اللّه التوفيق نعم إذا كانت المعاشرة مع الكفّار بسبب هدايته أو بسبب معاملة مشروعة فحينئذ غير ممنوعة بل في بعض الموارد لازمة والموادّة المحرّمة هي إرادة منافع الكفّار دينا ودنيا مع كونه كافرا. ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ أي: ولو كان من حادّ اللّه آباء الموادّين أو أبناء الموادّين ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ الموادّين ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ والعشيرة أهل الرجل الّذين يتكثّر بهم ويصيرون بمنزلة العدد الكامل وذلك أنّ العشرة هو العدد الكامل وحاصل المعنى أنّ المؤمن المتصلّب في الدين لا يوالي هؤلاء الأقارب بعد أن كانوا محادّين اللّه ورسوله فكيف بغيرهم كما أنّ أمير المؤمنين عليّاً وحمزة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب قتلوا يوم بدر عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليدين عتبة وكانوا من عشرتهم وقرابتهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الّذين لا يوادّونهم ﴿كَتَبَ﴾ اللّه ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أثبته فيها ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ وقوّاهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وهو نور القرآن والدين أو المراد النصر على العدوّ ﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الأربعة من الماء والعسل واللبن والخمر ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مؤبّدين لا يقرب منهم زوال كما قال ﷺ: «ينادي مناد إنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا».[1] ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ والرضى ترك السخط ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بالكرامات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ لا حزب الشيطان ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الناجون من المكاره.

تمّت السورة بحمد الله.

١ـ صحيح مسلم، ج٨، ص١٤٨، وسنن الترمزي، ج٥، ص٥١.

سُورَةُ الحَشْرِ

مدنية. فضلها: أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ: «من قرأ الحشر لم يبق جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسيّ ولا حجاب ولا السماوات السبع ولا الأرضون السبع والهواء والرياح والطير والشجر والدوابّ والشمس والقمر والملائكة إلّا صلّوا عليه واستغفروا له وإن مات في يومه أو ليلته مات شهيداً»[1].

وعن أبي سعيد المكاري عن الصادق عليه السلام: «من قرأ إذا أمسى الرّحمن والحشر وكّل الله بداره ملكاً شاهراً سيفه حتى يصبح»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ

١ـ ثواب الأعمال، ص١١٧، ووسائل الشيعة، ج٤، ص٨٩٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص٤٢٣، وتفسير نورالثقلين، ج٥، ص٢٧٢.

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ التسبيح تبعيد الله عن ما لا يليق به وتطهير عمّا لا ينبغي بشأن الألوهيّة ولا بدّ أن يكون بالجنان واللسان والحال والأوّل: اعتقاد العبد بتعاليه عن الشريك فحينئذ يلزم المعتقد مثل التوحيد والتعظيم والثاني: القول بما يدلّ على تعاليه مثل التكبير والتهليل والثالث: دلالة المصنوعات على أنّ صانعها متّصف بنعوت الجلال متقدّس عن المكان وبهذا البيان يعمّ تسبيح كلّ الموجودات شاءوا أم أبوا. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الغالب على أمره الحكيم في أفعاله.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: يهود بني النضير من ديارهم بأن سلّط الله المؤمنين عليهم وأمر نبيّه بإخراجهم من حصونهم وأوطانهم. سبب النزول: نزلت في إجلاء بني النضير فمنهم من خرج إلى خيبر ومنهم من خرج إلى الشام.

وذلك أنّ النبيﷺ لمّا دخل المدينة صالحه بنو النضير وهم رهط من اليهود أولاد هارون على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه فقبلﷺ ذلك منهم. فلمّا غزاﷺ بدرا وظهر على المشركين قالوا: والله إنّه النبيّ الّذي وجدنا نعته في التوراة لا تردّ له راية فلمّا غزا غزوة احد وهزم المسلمون ارتابوا ونقضوا العهد فركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكّة وحالفوا قريشاً على أن يكون كلمتهم واحدة على محمّدﷺ ثمّ دخل أبو سفيان في أربعين فارسا ودخلوا البيت وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة ثمّ رجع كعب وأصحابه إلى المدينة ونزل جبرئيل فأخبر النبيّ بما تعاقد عليه كعب وأبوسفيان.

وفي بعض الأخبار أنّهﷺ ذهب إلى بني النضير في نفر من أصحابه

دون العشرة في أمر دية فقالوا: يا أبا القاسم نعم حتّى تطعم وترجع بحاجتك وكان ﷺ جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة فهل من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه فقال أحد ساداتهم وهو عمرو بن جحاش: أنا لذلك فقال الآخر منهم: لا تفعلوا والله ليخبرنّ بما هممتم به إنّه لنقض للعهد فلمّا صعد الرجل ليلقي الصخرة أتاه ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام ورجع مسرعاً إلى المدينة وبعث محمّد بن مسلمة إلى بني النضير أن اخرجوا من بلدي وكانوا ساكنين في قرية زاهرة من أعمال المدينة وقال ﷺ: «لا تساكنوني بها ولقد هممتم بما هممتم من الغدر». فأرسل إليهم المنافقون أن أقيموا في حصونكم فإنّا نمدّكم فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ إنّا لا نخرج من ديارنا فافعل ما بدا لك وكان المتولّي أمر ذلك سيّد بني النضير حيّ بن أخطب فسار ﷺ مع المؤمنين حتّى نزل بهم. وباقي القصّة معروفة. والمراد من الخارجين الّذين كفروا في الآية هؤلاء ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ اللّام تعلّق بأخرج قيل: كان ذلك أوّل حشرهم إلى أرض الشام ثمّ تحشر الناس يوم القيامة إلى أرض الشام أيضاً في القيامة وذلك الحشر الثاني قال ابن عبّاس: قال لهم النبيّ: «اخرجوا». قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر. وقيل: معناه لأوّل الجلاء لأنّهم كانوا أوّل من اجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب ثمّ اجلي إخوانهم من اليهود وقيل: إنّما قيل: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ لأنّ الله فتح على نبيّه في أوّل ما قاتلهم.

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيّها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟﴾ من ديارهم بهذا الذلّ والهوان لوثاقة حصونهم ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ هؤلاء اليهود ظنّاً قويّا بمنزلة اليقين ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾. والمراد من الحصن كلّ موضع لا يوصل

إلى جوفه ولذا يقال: درع حصينة أي ظنّوا أنّ حصونهم تمنعهم عن بأس الله تقديم الخبر للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها وتقديم المسند يفيد حصر المسند إليه على المسند فإنّ معنى قائم زيد أنّ زيداً مقصور على القيام لا يتجاوزه إلى القعود.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أتاهم أمره ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ ولم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد أخيه الرضاعيّ بأمر رسول الله ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ القذف الرمي البعيد والمراد هنا الإلقاء وإثباته وركزه والرعب خوف يملأ القلب فيغيّر العقل ويشوّش الرأي ويفرّق التدبير أي أثبت وملأ قلوبهم هذا النوع من الخوف. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كانوا يخربون ويهدمون بيوتهم بأيديهم من داخل ليهزموا ولئلّا يكون للمؤمنين ويخربها المؤمنون من خارج ليصلوا إليهم وإزالة لتحصّنهم وإضراراً بهم وتوسيعاً لمجال القتال وإسناد هذا إليهم مع أنّه يقول: ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما أنّهم السبب فيه فكأنّهم أمروهم بالتخريب.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ والألباب اتّعظوا بما جرى عليهم واتّقوا مباشرة ما يؤدّي إليه عن مثل هذه الأمور من الكفر والاعتبار مأخوذ من العبور وهو المجاوزة من شيء إلى شيء وسمّي أهل التعبير في الرؤيا لأنّ صاحبه ينتقل من المتخيّل إلى المعقول وسمّيت الألفاظ عبارات لأنّها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع ويقال: السعيد من اعتبر بغيره لأنّه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ حكم ﴿عَلَيْهِمُ﴾ بني النضير ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروج من أوطانهم ولو لا امتناعيّة وما بعدها مبتدء وأن مخفّفة اسمها ضمير الشأن أي ولو لا كتاب الله عليهم الجلاء في علمه أو في لوحه المحفوظ ﴿لَعَذَّبَهُمْ

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة. ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ استيناف وغير متعلّق بجواب لو لا إذ لو كان معطوفا عليه لزم أن ينجو من عذاب الآخرة أيضاً لأنّ لو لا يقتضي انتفاء الجزاء لحصول الشرط لكن جملة مستأنفة وبيان أنّهم إن نجوا من عذاب الدنيا بكتابة الجلاء لا نجاة لهم من عذاب الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ أي: ما حاق لهم وسيحيق بسبب أنهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ وخالفوا أمرهما والمشاقّة كون الإنسان في شقّ وطرفه في شقّ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ كائنا من كان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ له بحذف العائد فليحذر المؤمنون من المخالفة مطلقاً والمشاقّة مع الرسول المنازعة في حكمة أمره ونهيه.

﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ ما شرطيّة نصب بقطعتم واللينة فعلة نحو حنطة من اللون على أنّ أصلها «لونة» فياؤها مقلوبة عن واو لكسرة ما قبلها نحو ديمة وقيمة ويجمع على ألوان وهي ضروب النخل وقيل: من اللين ويجمع على أليان وهي النخلة الكريمة بكونها قريبة من الأرض والطيّبة الثمرة فقوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أي من نخلة كريمة ناعمة.

﴿أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً﴾ الضمير راجع لما وتأنيثه لتفسيره باللينة قائمة ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما كانت من غير أن تتعرّضوا لها ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي قطعها وتركها بأمر اللّه فلا جناح عليكم وفي كلّ من القطع والترك حكمة.

﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وليذلّ اليهود الخارجين عن إطاعة المسلمين وحصول ضرب من الاستخفاف لهم لأنّهم إذا رأوا المؤمنين يتحكّمون في أموالهم كيف ما شاءوا من القطع والترك يتضاعفون حسرة ويزدادون غيظاً.

وسبب النزول: أنّ رسول اللّهﷺ حين أمر أن تقطع نخيلهم وتحرق

قالت بنو النضير: يا محمّد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخيل وإحراقها؟ وكان في أنفس المؤمنين أيضاً من ذلك شيء فنزلت الآية. وفي شرح مسلم للنوويّ أنّ أنواع التمر مائة وعشرون وقيل: أنواع التمر بلغت مائة وبضعاً وثلاثين. ونقل أنّ عالم فاس محمّد بن غازي أرسل إلى عالم سلجماسة إبراهيم بن هلال يسأله عن حصر أنواع التمر بتلك البلدة فأرسل إليه جملاً أو جملين من كلّ نوع تمرة واحدة وأرسل إليه هذا ما يتعلّق به علم الفقير ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وأحسن أنواعها العجوة والصيحانيّ، والبرنيّ، والبرنيّ فارسيّ معرّب أي ثمر مبارك وأصله «بر نيك».

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ
أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ
ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ
تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو
مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ
وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

المعنى: الفيء ردّ ما كان للمشركين على المسلمين بتمليك الله إيّاهم

ذلك على شرط فيه، وأفأته عليه أي رددته عليه.

سبب النزول: قال ابن عبّاس: الآية نزلت في أموال كفّار أهل القرى وهم بنو النضير وقريظة وهما بالمدينة وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال وخيبر وقرى عرينة وينبع جعلها لرسوله يحكم فيها ما أراد وأخبر أنّها له كلّها، فقال أناس: فهلّا قسّمها فنزلت الآية ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ وقيل: الآية الاولى بيان أموال بني النضير خاصّة لقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ الآية والآية الثانية بيان الأموال الّتي أصيب من غير قتال وقيل: إنّهما واحد والآية الثانية بيان قسم المال الّذي ذكر اللّه في الآية الأولى.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ في تفسير «روح البيان» في الآية بيان حال ما أخذ من أموالهم وما موصولة ويجوز أن تكون شرطيّة أي وما جعله اللّه فيئا لرسوله وأرجعه إليه وجعله عائداً إليه وفي معنى العود والإرجاع إشعار بأنّ ما كان في يدهم بغير حقّ لعدم إيمانهم فرجعه اللّه إلى مستحقّه لأنّه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق ليتوسّلوا به إلى طاعته فمن خرج عن عبوديّته فليس له حقّ لكن لمّا كان هذا الحكم يوجب الهرج والمرج فيكون موجبه بإذن النبيّ والوليّ ويجوز أن يكون معنى ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي صيّره له فالعود على هذا المعنى أن يتحوّل الشيء إلى غيره بأمر وإن لم يكن ذلك التحوّل مسبوقاً بالحصول له وكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ في الآية يؤيّد هذا المعنى.

قال المطرّزي في مغرب اللغة: إنّ الفرق بين الغنيمة والفيء والنفل أنّ الغنيمة ما نيل من أهل الشرك عنوة والحرب قائمة وحكمها أن تخمّس وسائرها بعد الخمس للغانمين خاصّة. والفيء ما نيل منهم بعد ما تضع الحرب أوزارها وتصير الدار دار الإسلام وحكمه أن يكون لكافّة المسلمين ولا يخمّس والنفل ما ينفله الغازي أي يعطا زائداً على سهمه وهو أن يقول

الإمام: من قتل قتيلا من أهل الشرك فله سلبه أو قال: للسريّة ما أصبتم فلكم ربعه أو نصفه ولا يخمّس.

وبالجملة بيّن كيفيّة أموال بني النضير فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من اليهود الّذين أجلاهم وإن كان الحكم سارياً في جميع الكفّار الّذين حكمهم ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ الإيجاف في الخيل والإيضاع في الإبل و(ما) نافية أي: لم تسيروا إليها على خيل وإبل وإنّما كانت ناحية من المدينة مشيتم إليها مشياً والركاب الإبل الّتي يحمل القوم و﴿مِنۡ﴾ زائدة بعد النفي أي «ما أوجفتم خيلاً» وهو جماعة الأفراس لا واحد له وقيل: واحده خائل لأنّ راكبه يختال ويتكبّر من تخيّل فضيلة تتراءى للإنسان من نفسه لما قيل: إنّه لا يركب أحد فرسا إلّا وجد في نفسه نخوة والخيل يستعمل للأفراس والفرسان نحو يا خيل الله اركبي فهذا للفرسان وقوله عليه السلام: «عفوت لكم عن صدقة الخيل»[1] يعني: الأفراس والفرس يرى المنامات كبني آدم ولا طحال له وهو مثل لسرعته وحركته والبعير لا مرارة له. وحاصل المعنى أنّكم ما قطعتم لها شقّة بعيدة ولا لقيتم مشقّة شديدة، وما كان فيهم راكب إلّا النبيّ صلى الله عليه وآله وكان راكباً حماره مخطوماً بليف وقيل: كان صلى الله عليه وآله راكبا جملا فافتتحها صلحاً من غير أن يجري بينهما مسابقة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وقد سلّط النبيّ صلى الله عليه وآله على هؤلاء تسليطاً غير معتاد من غير أن تقتحموا مطابق الحروب فحينئذ لا حقّ لكم في أموالهم والأمر فيه مفوّض إليه بصيغة حيث يشاء ولا تقسّم قسمة الغنائم الّتي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهرا وذلك لأنّهم طلبوا القسمة كخيبر فنزلت لبيان هذا الأمر. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فيفعل ما أراد بقدرته.

١ـ الخلاف، ج٢، ص٨٢، والمعتبر، للحلي، ج٢، ص٤٩٧.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان للأوّل ولذلك لم يعطف عليه ويعيّنه سبحانه أنّه للرسول وأهل بيته خاصّة من غير أنّ يكون للمقاتلين حقّ.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وذكر الله التعظيم والتبرك وهو راجع الى النبيّ ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ في «الكافي» عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«نحن والله الّذين عنى الله بذي القربى الّذين قرنهم بنفسه ونبيّه واليتامى والمساكين منّا خاصّة ولم يجعل لنا سهما في الصدقة أكرم الله نبيّه وأكرمنا أن يطعمنا الأوساخ ممّا في أيدي الناس».**[1] ومعنى الآية ولذي قربى الرسول ويتامى ذرّيّته ومساكينهم وأبناء سبيلهم من بني هاشم.

وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: **«نحن قوم فرض الله طاعتنا ولنا الأنفال ولنا صفو المال».**[2] يعني: ما كان يصطفى لرسول الله من فره الدوابّ وحسان الجواري والدرّة الثمينة والشيء الّذي لا نظير له.

ثمّ بيّن سبحانه لم فعل ذلك فقال: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ وقرئ تكون بالتاء ورفع دولة والدولة اسم للشيء الّذي يتداوله القوم بينهم يكون لهذا مرّة والمعنى لئلّا يكون الفيء متداولا بين الرؤساء منكم يعمل فيه كما كان يعمل في الجاهلّية فإنّ الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون من عزّ بزّ ومن غلب سلب فيجعلون الاستقلال منوطاً بالغلبة على الأموال فكلّ من غلب على شيء يستقلّ به مثل كليب بن وائل ونظرائه. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ ما موصولة أي: ما أعطاكم الرسول أيّها المؤمنون من الفيء فخذوه وما أمركم به فاعملوه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ﴾ عن أخذه وفعله ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ عنه وامتنعوا منه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

١ـ الكافي، ج ١، ص٥٣٩.

٢ـ بصائر الدرجات، ص٢٢٤، وتهذيب الأحكام، ج٤، ص١٣٢، والكافي، ج ١، ص٥٤٦.

شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيعاقب من يخالف أمره ونهيه.

والآية دالّة وصريحة بأن اتّباع أوامره وترك نواهيه واجب سواء كان أصولاً اعتقاديّة أو فرداً عمليّة يجب التمسّك به وكلّما فعلهﷺ بأمر الله وقد قسمﷺ أموال خيبر ومنّ عليهم في رقابهم وأجلى بني النضير وبني قينقاع وأعطاهم شيئاً من المال وقتل رجال بني قريظة وسبى ذراريهم ونساءهم وقسّم أموالهم على المهاجرين ومنّ على أهل مكّة وقد جعل الله تدبير الامّة اليه وإلى الّذي نصّ النبيّ بخلافته بعهده.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الّذين هاجروا من مكّة إلى المدينة ومن دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ يطلبون بذلك رضى الله ونصرة دينه ورسوله وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ قيل: بدل من لذي القربى قال الزجّاج بيّن سبحانه من المساكين الّذين لهم الحقّ فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ وهذا الإبدال الّذي جعلوه من قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لئلّا يلزم دخول الرسول في زمرة الفقراء لأنّه يوهم الذمّ والنقصان وإذا لم يصحّ تسمية الرسول فقيرا فلأن لا يصحّ تسميته تعالى فقيرا أولى ومنعوا الإبدال من الله ورسوله فحينئذ على الإبدال خصّ بأموال بني النضير من الفيء ولو كان المراد عدم الإبدال فالمراد غنائم خيبر حيث قسّم للمهاجرين ولم يقسّم الأنصار وإن كان المعنى لرسول الله لأنّ الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله ورسوله.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾ حيث اضطرّ هم كفّار مكّة إلى الخروج وأخذوا أموالهم وكانوا مائة فخرجوا منها وإلّا فهم هاجروا باختيارهم حبّاً لله ورسوله واختار والإسلام على ما كانوا فيه من الشدّة حتّى كان الرجل يعصب الحجز على بطنه ليقيم صلبه من الجوع وكان الرجل يتّخذ حفيرة في الشتاء ما له دار

غيرها وكانﷺ يبشّر الصعاليك من المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة ويقول: يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة عام[1].

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عطف على يبتغون أي ناوين نصرة الله بإعلاء دينه ونصرة رسوله وأيّ نصرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المهاجرون ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الراسخون في الصدق كأنّ الصدق مقصور عليهم.

ثمّ مدح سبحانه الأنصار حتّى طابت عن الفيء أنفسهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ يعني: المدينة وهي دار الهجرة ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ مدحهم الله بخلوص الإيمان ولزوم دار الهجرة تبوأ في مكان أي اتّخذه مسكناً وعطف الإيمان على الدار في المعنى لأنّ الإيمان ليس بمكان يتبوّءوه والمراد وآثروا الإيمان ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ قيل: المراد من قبل قدوم المهاجرين عليهم وقيل: تقدير الآية ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ من قبل المهاجرين لأنّ الأنصار لم يؤمنوا قبل المهاجرين والّذي قال: معنى الآية قبل إيمان المهاجرين المراد منهم أصحاب ليلة العقبة وهم سبعون رجلاً بايعوا النبيﷺ على حرب الأبيض والأحمر.

والأنصار بنو الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر بن شالح وهو أصل العرب العرباء ومن الأنصار غسّان اسم ماء نزل عليه قوم من ولد الأزد فشربوا منه فنسبوا إليه وعطف الإيمان على التبوّء على تنزيل الحالّ منزلة المحلّ أو المعنى آثروا الإيمان كما ذكرنا وذلك مثل قوله: «علّفتها تبناً وماء بارداً».

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ يوصف الأنصار أي يحبّون من هاجر إليهم لمحبّتهم الإيمان ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ ونفوسهم ﴿حَاجَةً﴾ ممّا أوتي

١ـ بحارالنوار، ج٧، ص١٢٢، ومجمع البيان، ج٧، ص١٦١.

المهاجرون من الفيء أي إنّ نفوسهم لم تبتغ ما أوتوا ولم تطمع إلى شيء منه يحتاج إليه ولم يحسدوا باقتصاصهم الفيء من أموال بني النضير. ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: يقدّمون المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بأموالهم ومنازلهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: فقر وحاجة ولم يكن إيثارهم عن غنى والخصاصة خلّة وحاجة وأصلها خصاص البيت وهي فرجه شبّه حالة فقرهم ببيت ذي فرج وهو من القصب والشجر وذلك يرى من ذلك البيت الخلّة والفرجة.

وكانﷺ قسّم أموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلّا ثلاثة نفر محتاجين أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصّمة وقيل: لم يعط إلّا رجلين لأنّ الحارث قتل في بئر معونة وقالﷺ لهم: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقالت الأنصار: بل نقسّم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت الآية ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ الآية».[1] ولمّا أعطى المهاجرين أمرهمﷺ بردّ ما كان للأنصار لاستغنائهم عنهم ولأنّهم لم يكونوا ملكوهم وإنّما كانوا دفعوا لهم النخيل لينفعوا بثمرها.

روي عن أنس إنّه قال: أهدي لرجل من الأنصار رأس شاة وكان مجهوداً فوجّه به إلى جار له زاعماً أنّه أحوج إليه منه فوجّه جاره أيضاً إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتّى تداول ذلك الرأس سبعة بيوت إلى أن رجع إلى المجهود الأوّل.

قال حذيفة العدويّ: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي ومعي شيء من المال وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٤٣٠، وبحار الأنوار، ج١٩، ص١٦٢، والكشاف، ج٤، ص٨٤.

فأشار برأسه أن نعم فإذا برجل يقول: آه آه فأشار إليّ ابن عمّي أن انطلق إليه فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ قال: نعم فسمع آخر يقول: آه آه! فأشار هشام أن انطلق إليه فجئت إليه فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام؛ فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمّي فإذا هو قد مات.

والصحيح إنّ الآية نزلت في حقّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام في «الأمالي» عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه جاء إليه رجل وشكا إليه الجوع فبعث رسول الله إلى بيوت أزواجه فقلن: ما عندنا إلّا الماء فقال رسول الله: **«من لهذا الرجل الليلة»**. فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: **«أنا له يا رسول الله»**. فأتي فاطمة وقال: **«لها ما عندك يا ابنة رسول الله؟»** فقالت: ما عندنا إلّا قوت العشية لكنّا نؤثر ضيفنا. فقال: **«ابنة محمّد نوّمي الصبية وأطفئ السراج»**. فلمّا أصبح عليّ عليه السلام غدا على رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره الخبر، فلم يبرح حتّى أنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[1].

وعن أمير المؤمنين في «الاحتجاج» إنّه قال للقوم بعد موت عمر بن الخطّاب في حديث عدّ المناقب: **«نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية غيري؟»** قالوا: لا.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشحّ بخل مع الحرص في مقابلة السخاء وفي مقابلة الجود البخل والجود والبخل يتطرّق إليهما الاكتساب بطريق العادة بخلاف الشحّ والسخاء لأنهما غريزيتان وكلّ سخيّ جواد وليس كلّ جواد سخيّاً ومن يوق بالملكات والرياضيّات من الإطاعة ينزّه نفسه وحرصه على إمساك المال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم الّذين هاجروا بعد ما قوى الإسلام جاءوا إلى المدينة أو المراد التابعون بإحسان وهم الّذين اتّبعوا النبيّ بعد

١ـ الأمالي، ص١٨٥، ووسائل الشيعة [الإسلامية]، ج٦، ص٣٢٣.

الفريقين ويشمل حال المؤمنين إلى يوم القيامة كما في الحديث: «مثل أمّتي كالمطر لا يدري أوّله خير أم آخره» ﴿يَقُولُونَ﴾ خبر للموصل لمن تقدّمهم من المؤمنين يدعون لهم قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ يستغفرون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: حقداً وعداوة لأحد من المؤمنين ويعصمنا ربّنا من إرادة السوء بالمؤمنين لأنّ من أبغض مؤمناً وأراد به السوء لأجل إيمانه فهو كافر وإذا كان بغضه لغير ذلك فهو فاسق ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ متعطّف على العباد منعم عليهم وفي الآية دلالة على أنّ الترحّم والاستغفار مستحبّ على المؤمنين الآخرين للسابقين منهم لا سيّما لآبائهم ولمن علّمهم امور دينهم.

فائدة الغلالة اسم لما يلبس بين الشعار والدثار، والغلّ والغلول تدرّع الحقد ويستعار الغلالة للذرع كما يستعار الدرع. قال الشاعر:

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زرّ أزراره على القمر[1]

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ
وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ
وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى
صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا
إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا
وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا
ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

١ـ مختصر المعاني، ص٤٥، وتاج عروس، ج٧، ص٤١٥.

لمّا وصف اللّه المهاجرين والأنصار والتابعين لهم عقّب ذلك بذكر المنافقين والهمزة استفهام للتعجّب عن حال المنافقين والكافرين ﴿أَلَمْ﴾ تنظر وتعلم ﴿إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ من أهل المدينة النفق الطريق النافذ ومنه نافقاء اليربوع وهو الدخول من باب والخروج من باب ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والمراد بالإخوان بنو النضير وبإخوانهم توافقهم في الكفر وصداقتهم وموالاتهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ اللام موطّئة للقسم أي واللّه لئن أخرجتم أيّها الإخوان دياركم وقراكم قسراً بإخراج محمّد إيّاكم منها ﴿لَنَخْرُجَنَّ﴾ البتّة ﴿مَعَكُمْ﴾ ونذهبنّ في صحبتكم أينما ذهبتم وهو جواب للقسم وجواب الشرط مضمر ولمّا كان جواب القسم وجواب الشرط متماثلين اقتصر على جواب القسم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا﴾ أي: في شانكم لا نطيع أحداً يمنعنا من الخروج معكم أبداً ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ﴾ أي: قاتلكم محمّد وأصحابه حذف منه اللام الموطّئة ﴿لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ أي لنعاونكم على عدوّكم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدكم المؤكّدة بالأيمان الفاجرة.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ قهرا ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ تكذيب لهم في أقوالهم ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك فإن ابن أبيّ وأصحابه أرسلوا إلى بني النضير وذلك سرّاً أن لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإنّ معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب فطمع بنو النضير فيما قاله اللعين فقال أحد سادات بني النضير: وهو سلّام بن مشكين لحيّ بن أخطب الّذي كان هو المتولّي لأمر بني النضير: واللّه يا حيّ إنّ قول ابن ابيّ لباطل وإنّما يريد أن يورّطك في الهلكة حتّى تحارب محمّدا فيجلس في بيته ويتركك فقال حيّ: تأبى نفسي إلّا عداوة محمّد وإلّا قتاله فقال سلّام: فهو واللّه جلاؤنا

من أرضنا وذهاب أموالنا وسبي ذرارينا فكان ما كان. ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ فرضاً ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ فراراً وانهزاماً وتولية الأدبار كناية عن الانهزام ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لا يكون النصر للمنافقين ولا ينفعهم نفاقهم.

﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشر المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إنّ خوف المنافقين منكم أشد من خوفهم من الله لأنّهم يشاهدونكم ويعرفونكم ولا يعرفون الله. وحاصل المعنى أنّهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في قلوبهم من الله فإن قلت: كأنّهم كانوا يرهبون من الله حتّى يكون رهبتهم منكم أشدّ قلنا: إنّ رهبتهم في السرّ منكم أشدّ من رهبتهم من الله الّتي يظهرونها لكم وذلك لأنّهم كانوا يظهرون رهبة شديدة من الله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحقّ ولا يعلمون عظمة الله وذلك إشارة إلى ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشدّ والعبد هو الّذي لا يخاف إلّا من مولاه ولا يراقب إلّا إيّاه ولا يلتفت إلى ما سواه.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ معاشر المؤمنين جميعاً ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: إنّهم لا يبرزون لحربكم وإنّما يقاتلونكم متحصّنين بالقرى ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ أي: يرمونكم من وراء الجدران بالنبل والحجر. والقرى جمع قرية وهي مجتمع الناس للتوطّن. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ استيناف سيق لبيان أنّ ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم وهم بالنسبة إلى أقرانهم أقوياء وإنّما جبنهم وضعفهم بالنسبة إليكم بما قذف الله في قلوبهم من الرعب وإذا أراد الله نصرة قوم استأسد أرنبهم وإذا أراد الله قهر قوم استرنب أسدهم ووصف البأس بالشدّة للمبالغة. ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ يا محمّد ﴿جَمِيعًا﴾ متّفقين ذوي السعة ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ والحال أنّ قلوبهم متفرّقة وفي الآية تشجيع لقلوب المؤمنين على قتالهم وأهل الباطل متفرّقون أبداً وإن

اجتمعوا بالأبدان وتوافقوا بالظواهر لأنّ اللّه يقول: ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي ما ذكر من تشتّت قلوبهم بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لا شيئاً حتّى يعرفوا الحقّ من عدم العقل والفقه وهو مذموم في القرآن بموجب هذه الآية وممّا نسب إلى أمير المؤمنينعليه السلام قوله: «وإنّ العقل عقلان، فمسموع ومطبوع».

ولا ينفـــع مطبـــوع إذا لم يـــك مســـموع
كمـا لا تنفـع الشـمس ونـور العـين ممنـوع[1]

قال عليّ بن عبيدة: العقل ملك والخصال رعيّة فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها فسمع هذا الكلام أعرابيّ فقال: هذا الكلام يقطر عسله: وكل شيء إذا كثر رخص إلّا العقل فإنّه إذا كثر غلا: وقال أعرابيّ: لو صوّر العقل لأظلمت معه الشمس ولو صوّر الحقّ لأضاء معه الليل وغاية قوّة العقل أن يتسلّم لأوامر الشرع لأنّ الّذي وضع الأشياء أعرف بمواضعها.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبر مبتدء محذوف تقديره مثله أي مثل المذكورين من المنافقين واليهود كمثل المشركين الّذين قتلوا قبلهم ببدر لأنّ البدر كانت قبل غزاة بني النضير بستّة أشهر أو سنة أو كمثل بني قينقاع لأنّهم اخرجوا قبل بني النضير إلى الشام ولم يدر الحول عليهم حتّى هلكوا. ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ الوبل والوابل المطر الثقيل ولمراعاة الثقل يقال: للأمر الّذي يخاف ضرره وبال أي ذاقوا سوء عاقبة كفرهم وهو عذاب القتل والأسر ببدر ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مولم لا يقادر قدره حيث يكون ما في الدنيا بالنسبة إليه كالذوق بالنسبة إلى الأكل.

كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ

١ـ تاريخ مدينة دمشق، ج٥١، ص٤١٦.

إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ
فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ
نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا
يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

أي: مثل المنافقين في غرورهم لبني النضير وخذلانهم إيّاهم ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾ والمراد من قول الشيطان مجاز عن الإغواء والإغراء فإن أريد بالإنسان الجنس فالمراد من قوله: ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ يكون يوم القيامة كما ينبئ عنه قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وإن أريد من الإنسان الإنسان المعهود وهو أبو جهل- كما قيل في بعض التفاسير- فقوله: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾ أي: دم على الكفر وذلك يوم بدر حين قال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾[1] لأنّ أصحاب أبي جهل لمّا قاتلوا يوم بدر ونصر اللّه محمّدا بإمداد الملائكة، رأى إبليس جبرئيل مع محمّد فخافه فتبرّء اللعين منهم وانهزم.

وقال بعض أهل التفسير: إنّ المراد بالإنسان في الآية المذكورة برصيصا الراهب من بني إسرائيل في زمان الفترة عن ابن عبّاس قال: إنّه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصا عبد اللّه في صومعة سبعين سنة وقيل: مائتين وخمسين سنة حتّى كان يؤتى بالمجانين والمرضى فيعودهم فيبرءون على يده وكان يحسده إبليس غاية وقد عجز عن إغوائه فاوتي يوماً بامرأة في

١ـ سورة الأنفال: ٤٨.

شرف قد جنّت وكان لها إخوة فأتوه بها فكانت عنده فلم يزل به الشيطان يزيّن له حتّى وقع عليها فحملت فلمّا استبان حملها أخاف الراهب من الشناعة فقتلها ودفنها فلمّا فعل ذلك ذهب الشيطان حتّى لقي إخوتها فأخبرهم بالّذي فعل الراهب وأنّه دفنها في مكان كذا حتّى بلغ الخبر إلى ملكهم فسار الملك والناس فاستنزلوه فأقرّ لهم بالّذي فعل فأمر به فصلب فلمّا وقع على خشبته تمثّل له الشيطان وقال: أنا الّذي ألقيتك في هذا فهل أنت مطيعي في ما أقول لك اخلّصك مما أنت فيه؟ قال: نعم قال: اسجد لي سجدة واحدة فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة؟ فقال: أكتفي منك بالإيماء فأومأ له بالسجود فكفر بالله وقتل فهو قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي صار عاقبة الفريقين من الداعي والمدعوّ ومن المنافقين واليهود أنّهما معذّبان في النار وذلك جزاؤهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيمانا خالصاً ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وتحرّزوا عن العصيان بالطاعة وتجنّبوا عن الكفر بالشكر وتوقّوا عن النسيان بالذكر ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ما استفهاميّة أي: أيّ شيء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة وعبّر عن يوم القيامة بالغد لدنوّه لأنّ كلّ آت قريب سمّاه باليوم الّذي بلي يومك تقريباً له أو لأنّ الدنيا زمانها كيوم والآخرة كغده. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تكرير للتأكيد في شأن التقوى والأوّل في أداء الواجبات والثاني في ترك المحرّمات كما يؤذن به الوعيد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ والتقوى هو التجنّب عن كلّ ما يؤثم من فعل وترك ووقاية النفس في الدنيا عن ترتّب الضرر في الآخرة وتقوى العامّة عن ضرر الأفعال وتقوى الخاصّة عن ضرر الصفات من الأخلاق وتقوى أخصّ الخواصّ عن جميع ما سوى الله.

قال مالك بن دينار: دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون فقلت له: كيف حالك؟ فقال كيف حال من أصبح وأمسى يريد سفراً بعيداً بلا اهبة، وتقدّم على ربّ عدل حاكم بين العباد ثمّ بكى بكاء شديدا قلت: ما يبكيك؟ قال: أبكاني قلّة الزاد وبعد المسافة والعقبة الكؤود فقلت: إنّ الناس يزعمون أنّك مجنون فقال: وأنت اغتررت بقولهم مالي جنّة ولكن حبّ مولاي قد خالط قلبي وجرى بين لحمي ودمي فأنا من حبّه هائم ثمّ قال: يا مالك كن من الناس خائباً، وأرض بالله صاحباً، قلّب الناس كيف شئت تجدهم عقارباً.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾ المراد بالموصول اليهود والمنافقين المعهودين أو الجنس كائنا من كان من الكفّار ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف المضاف أي نسوا حقّ الله وتركوا أداء حقّ الله من الطاعات ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لأنفسهم حتّى يتداركوا بالاعتذار والتوبة وهذا الإنساء مجازاتهم بسبب إقدامهم على ترك طاعة الله ونسيانهم ذكر الله.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الناسون المخذولون بالإنساء ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طريق الطاعة و﴿هُمُ﴾ يفيد معنى شدّة الخروج عن الطاعة بل عن الإيمان والإنسان العاقل لا بدّ وأن يراعي حقّ ربوبيّة الله ومراعاة حظّ شخصه كي لا يحرم السعادة لأنّ المنسي محروم لا محالة.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الّذين نسوا الله واستحقّوا النار، والنار مع اللام من أسماء جهنّم في تعبير القرآن كالساعة للقيامة وجاء في الشعر أيضاً:

الجنّة الدار فاعلم إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرّطت فالنار

هما محلّان ما للناس غيرهما ... فانظر لنفسك ماذا أنت تختار

ويقال: أصحاب النار وأصحاب الجنّة فباعتبار الصحبة الأبديّة والاقتران الدائم والصحبة في الأصل اقتران الشيء بالشيء في زمان ممّا قلّ أو كثر ولا يقال للعصاة المؤمنين أصحاب النار قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الّذين اتّقوا المعاصي أي لا يستوون ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بيان لكيفيّة عدم الاستواء بين الفريقين هم أهل الكرامة وأصحاب النار أهل الهوان فنبّه الله الناس بتذكير سوء حال أهل النار وحسن حال أهل الجنّة للاحتراز عن الغفلة.

قال النبي صلى الله عليه وآله: «**إنّ أهون أهل النار عذاباً وأخفّهم من له شراكان ونعلان من النار ويغلي منها دماغه كما يغلي المرجل ما يرى إنّ أحداً أشدّ منه عذاباً**».[1] وكان بعض العارفين ليلة يردّد قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[2] ويبكي فقيل له: قد أبكتك ما تبكي عند مثلها؟ فقال: فما ينفعني عرضها إذا لم يكن لي فيها موضع قدم.

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ العظيم الشأن المنطوي على فنون القوارع قال

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٨، ونورالثقلين، ج٤، ص٥٢٠.

٢ـ سورة آل عمران: ١٣٣.

ابن عبّاس: إن السماء أطبّ من ثقل الألواح لمّا وضع اللّه عليها في وقت موسي فبعث اللّه لكلّ حرف منها ملكا فلم يطيقوا حملها فخفّفها على موسى وكذلك الإنجيل على عيسى والفرقان على محمّد ثمّ إنّه لا يلزم في الإشارة وجود حملة المشار إليه إي الأبعاض المترتّبة وجوداً بل يكفي وجود بعض الإشارة حقيقة ووجود بعض حكماً ويحتمل أن يكون المشار إليه هنا الآية السابقة من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الخ فإنّ لفظ القرآن كما يطلق على المجموع يطلق على البعض منه حقيقة بالاشتراك أو باللغة أو مجازاً بالعلاقة فيكون التذكير باعتبار تذكير المشار إليه. ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال وهي ستّة آلاف وستّمائة وثلاثة وسبعون جبلا سوى التلول كما في زهرة الرياض. ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ يا من شأنه الرؤية أو لرأيته يا محمّد مع أنّ شأن الجبل القسوة والصلابة خاضعاً ذليلاً والفرق بين الخشوع والخضوع أنّ الخشوع انقياد الباطن للحقّ والخضوع انقياد الظاهر له وقيل: الخضوع في البلدان والخشوع في الصوت والبصر وأكثر ما يستعمل في القلب بسبب ضراعة القلب ﴿مُّتَصَدِّعًا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: متشقّقاً من أن يعصيه فيعاقبه والصدع شقّ في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد والصخر والمراد علوّ شأن تأثير القرآن لما فيه من المواعظ وتوبيخ الإنسان على عدم تخشّعه وقسوة قلبه عند تلاوته.

وحاصل المعنى أنّه لو ركّب في الجبل عقل وشعور كما ركّب فيكم أيّها الناس ثمّ أنزل عليه القرآن ووعد وواعد كما وعدتم وأوعدتم لخشع وتصدّع من خشية اللّه وأنتم لا تنفعلون وهذا البيان مثل قولك لمن تعظه ولا تنجع فيه وعظك: لو كانت هذا الحجر لأثّر فيه. ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع القرآن والمثل حقيقة عرفيّة في القول

المشهور السائر ويستعار لكلّ أمر غريب ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ ونبيّنها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما ينفعهم ويتذكّرون به قال النبيﷺ: «أعطوا أعينكم حظّها من العبادة». قالوا: ما حظّها من العبادة؟ قال: «النظر في المصحف والتفكّر فيه والاعتبار عند عجائبه»[1].

قال بعض العلماء: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكّرا فهو سهو ومن لم يكن نظره عبرة فهو لهو والتفكّر إمّا أن يكون في الخالق أو الخلق والأوّل: إمّا في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله أمّا في ذاته فممنوع لأنّه لا يعرف الله إلّا الله إلّا أن يكون التفكّر في ذاته باعتبار عظمته وجلاله من حيث وجود الواجب وامتناع المكان والصمديّة الّتي هي الاستغناء عن الكلّ وأمّا في صفاته فهو فيها باعتبار كمالها بحيث يحيط علمه بجميع المعلومات وقدرته بجميع الأشياء ونحو ذلك وأمّا في أفعاله فهو فيها بحسب شمولها ووقوعها على الوجه الأتمّ كلّ يوم هو في شأن والثاني: إمّا أن يكون فيما كان من العلويّات والسفليّات أو فيما سيكون من أهوال القيامة وأحوال الآخرة إلى أبد الآباد مثل أن يتفكّر في وعد الله بالثواب فيتولّد منه الرغبة في الطاعة وإمّا في وعيد الله بالعقاب فيتولّد منه الرهبة من المعصية وإمّا في تفريط نفسه في جنب الله فيتولّد منه الندامة والتوبة.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ في سورة الحشر خواصّ بعض أسماء الحسنى وكلمة ﴿هُوَ﴾ في أصل وضعه كناية عن المفرد المذكر الغائب وكثيرا ما يكنى به عن من لا يتصور فيه الذكورة والأنوثة كما هو هاهنا فإنّه راجع إلى الله وهو مبتدء وخبره لفظة الله أي هو المعبود بالحقّ المسمّى

١ـ كنزالعمال، ج١، ص٥١٠، وتفسيرالقرطبي، ج١، ص٢٨.

باللّه الدالّ على جلال الذات وكمال الصفات فبهذا التعبير لا يلزم أن يتّحد المبتدء والخبر بأن يكون التقدير اللّه اللّه حتّى لا يصح الحمل فحصل التغاير الاعتباريّ أو ﴿ٱللَّهُ﴾ بدل من هو الموصول مع صلته خبر المبتدء أو ﴿هُوَ﴾ إشارة إلى الشأن واللّهُ مبتدء و﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر والجملة خبر ضمير الشأن و﴿إِلَٰهَ﴾ مبنيّ على الفتح مرفوع المحلّ على الابتداء و﴿لَآ﴾ لنفي الجنس أي جنس المعبود بالحقّ لتعدّد الآلهة الباطلة و﴿إِلَّا هُوَ﴾ مرفوع على البدليّة من محلّ المنفي أو من ضمير الخبر المقدّر للا والمقدّر موجود أو ممكن.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾ بفتح الميم وكسر اللام هو المتصرّف بالأمر والنهي في الجمهور وذلك يختصّ بسياسة الناطقين ولهذا يقال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ولا يقال: ملك الأشياء والأنبياء والأوصياء عبيد الملك على حسب الحقيقة لأنّهم مستغنون عن غيره تعالى واحتياج الناس كلّهم إليهم في حياتهم العاجلة والآجلة فهم الملوك في العالم العرضي وإلّا فلا ملك للعبد قيل: وخاصيّة اسم الملك صفاء القلب فمن واظب عليه وقت الزوال كلّ يوم مائة مرّة صفا قلبه وزال كدره ومن قرأه بعد الفجر مائة وإحدى وعشرين مرّة أغناه اللّه من فضله.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ هو من صيغ المبالغة من القدس وهو النزاهة والطهارة أي البليغ في النزاهة عمّا يوجب نقصاناً وهو بالعبريّ قديساً وحقيقة القدس الاعتلاء عن قبول التغيّر وروح القدس جبرئيل لأنه عليه السلام ينزل بما يطهّر به نفوسنا من الفيض الإلهيّ والقرآن والحكمة وبيت المقدس لأنّه يتطهّر فيه من الذنوب، قال السهروردي: من قرأه كلّ يوم ألف مرّة في خلوة أربعين يوماً شمله بما يريد.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي ذو السلامة من كلّ آفة ونقص وعجز هو مصدر بمعنى

السلامة وصف به للمبالغة نحو زيد عدل فما ورد من قوله ﷺ: «أنت السلام معناه أنت الّذي سلم من كلّ عيب ونقص ومنك السلام أي الّذي يعطي السلامة وإليك السلام أي يرجع السلامة إليك وكلّ من عليها فان وخاصّيّة هذا الاسم صرف الآلام والمصائب وإذا قرئ على مريض مائة وإحدى عشرة مرّة برىء أو خفّف عنه ما لم يحضر أجله».

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ والإيمان التصديق بوحدانيّة الله وهو تعالى موحّد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقيل: المعنى واجب الأمن والطمأنينة للنفوس بعدم ظلمه في امور لأنّ الإنسان في أصل فطرته عرضة للأخطار مثل المرض والجوع والعطش وو المحرقة والمغرقة والجارحة والكاسرة ولم يؤمنه من هذه المخاوف إلّا الّذي أعدّ له الأسباب الدافعة له مثل الأطعمة وأعدّها لجوعه والأشربة لعطشه ونحو ذلك فهو تعالى أمّنه ثمّ خوّفه الأعظم من هلاك الآخرة ولا يحصّنه منه إلّا كلمة التوحيد والله هاديه إليها حيث قال: «لا إله إلّا الله حصني فمن دخله أمن من عذابي».[1] فلا آمن في العالم إلّا وهو مستفاد من أسباب هو متفرّد بخلقها وأحقّ العباد بهذا الاسم من كان سبباً لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة وبهذا المعنى أشار ﷺ بقوله: «إنّكم تتهافتون في النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم»[2].

فإن قيل: هو الّذي خلق أسباب الخوف فكيف ينسب إليه الأمن؟

فالجواب أنّ الخوف تارة للعبد من معاصيه فهو المسبّب على نفسه الخوف وقد حذّره تعالى عن العصيان فالعبد أوجب على نفسه الخوف وتارة

١ـ الأمالي، للصدوق، ص٣٠٦، والأمالي، للطوسي، ص٢٧٩.

٢ـ مجمع البحرين، ج٣، ص٣٥٨، وانظر، كنز العمال، ج٣، ص٦٣٤.

يكون الخوف من عظمته تعالى وذلك أمر حسن له وأمّا الأمن فمنه تعالى وكونه تعالى مخوّفاً لا يمنع كونه مؤمنا كما أنّ كونه مذلّاً لم يمنع كونه معزاً.

﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ قيل: عدّ هذا الاسم من أسمائه الّتي علت لعلّ معناها عن مجاري الاشتقاق فلا يعلم تأويله إلّا اللّه وقال بعضهم: المبالغ في الصيانة عن المضارّ من قولهم: هيمن الطائر إذا نشر جناحه على فرخه حماية له ويؤول معناه إلى الرقيب الحافظ وقيل: معناه الشاهد ومنه قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ وقيل: مفيعل من الأمن وأصله مؤامن بهمزتين قلبت الهمزة الثانية ياء لكراهة اجتماعهما فصار مؤيمن ثمّ صيّرت الأولى هاء كما قالوا في أراق الماء والدم: هراقة فيكون حينئذ بمعنى المؤمن.

حكي أنّ ابن قتيبة لمّا قال في المهيمن: إنّه مصغّر من مؤمن والأصل مؤيمن فأبدلت الهمزة هاء قيل له: هذا يقرب من الكفر فليتّق اللّه قائله لأنّ فيه ترك التعظيم وقد قيل: إنّه من أسماء اللّه في الكتب القديمة وقيل: إن خاصيّة هذا الاسم الإشراف على البواطن والأسرار ومن قرأ مائة مرّة بعد الغسل والصلاة في خلوة بجمع خاطر نال ما نوى ونافذ للنسيان.

﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب في حكمه أو من عزّ عزازه إذا قلّ والمراد عديم المثل وخاصيّة هذا الاسم الغنى والعزّ صورة أو معنى فمن ذكره أربعين يوماً في كلّ يوم أربعين مرّة أعزّه اللّه ولم يحوجه إلى أحد، وفي «الأربعين الإدريسيّة» يا عزيز المنيع الغالب على أمره فلا شيء يعادله من قرأ سبعة أيّام متواليات كلّ يوم ألفاً أهلك خصمه وإن ذكره في وجه العسكر سبعين مرّة ويشير إليهم بيده فإنّهم ينهزمون.

﴿الْجَبَّارُ﴾ الّذي قهر خلقه أو أصلح حالهم وسمّي الّذين يدّعون أنّ اللّه يكره العباد على للمعاصي في عرف المتكلّمين بالمجبّرة وفي قول

المتقدّمين: جبريّة وفي وصف الله بالجبّار على أنّه يجبر الناس على ما هو المصلحة لهم من مرض أو موت وبعث وفقر ونحوها وخاصيّة هذا الاسم الحفظ من ظلم الجبابرة يذكر عشر صباحاً ومساء إحدى وعشرين مرّة.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الّذي تكبّر عن كلّ ما يوجب حاجة ونقصاناً أي إنّه المبالغ في الكبرياء والعظمة أقصى المراتب والّذي تكبّر عن كلّ ما يوجب حاجة ونقصانا وصيغة التفعّل للتكليف بما لم يكن فإذا قيل: تكبّر وتسخّى دلّ على أنّه بريء ويظهر الكبر والسخاء وليس بكبير ولا سخيّ والتكليف بما لم يكن لمّا كان على الله مستحيلاً حمل على لازمه وهو كمال الكبر ومنه ترحّمت على إبراهيم بمعنى رحمة كمال الرحمة والفرق بين المتكبّر أنّ المتكبّر عامّ لإظهار الكبر الحقّ كما وصف الله ولإظهار الكبر الباطل كما في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1] والاستكبار إظهار الكبرياء باطلاً كما في حقّ إبليس استكبر.

فإن قيل: إنّ التكبّر صفة ذم فكيف جعل من أسماء الله؟

فالجواب أنّ التكبّر هو الامتناع عن الانقياد فلهذا كان مذموماً في حقّ الخلق وهو صفة مدح في حقّ الله لأنّه يفيد الاستغناء والمتكبّر هو الّذي يرى غيره حقيراً بالنسبة إلى شخصه وهذا المعنى لا يتصوّر إلّا لله فهو المتكبّر وخاصيّة هذا الاسم ظهور الخير والبركة. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى عن إشراكهم أي: سبّحوا الله تسبيحاً ونزّهوه تنزيها عمّا يشركه الكفّار به من المخلوقات.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته ومعنى الحقّ التقدير يقال: خلق النعل إذا قدّرها وسوّاها بمقياس وخاصيّة هذا الاسم إذا

١ـ سورة الأعراف: ١٤٦.

ذكر في جوف الليل ساعة فما فوقها يتنوّر قلب الذاكر ويذكر لجمع الضائع والغائب خمسة آلاف مرّة. ﴿ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد للأشياء حال كون الأشياء بريئة من التفاوت والنقصان بحيث لا يجوز أن يزيد عليها أو ينقص منها على حسب ما يقتضيه المصلحة مثل أن يكون اللازم من السماوات أن تكون في الخلقة عالية والأرض سافلة المصوّر لصور الأشياء بالشكل المخصوص ومميّزها عن غيرها وقوله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته».[1] أراد بالصورة ما خصّ الإنسان به ولو رجع الضّمير إليه تعالى فمن قبيل إضافة التشريف مثل بيت الله وناقة الله لا على سبيل التشبيه والبعضيّة تعالى شأنه عن الصورة والصورة الإلهيّة عبارة عن الصفات السبع المرتّبة وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وآدم مظهر هذه الصفات بالفعل دون سائر الموجودات.

بالجملة فقد يظنّ أنّ هذه الأسماء مترادفة والكلّ يرجع إلى معنى وليس كذلك بل ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ في الأسماء المقدّر على وجه الحكمة ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد على ذلك التقدير و﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ المبدع لأشكال المحدثات بحيث يترتّب عليها خواصّها وكلّ ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى التقدير أوّلاً وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً فقدّم سبحانه ذكر الخالق على البارئ لأنّ الإرادة والتقدير متقدّمة على تأثير القدرة وقدّم البارئ على المصوّر لأنّ إيجاد الذات متقدّم على إيجاد الصفات ولو أنّه تعالى يوجّه الأشياء بتمامها أقلّ من طرفة عين إذا أراد لكن صورة الترتيب كما وصف الله نفسه تعالى.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لدلالتها على المعاني الحسنة والحسنى تفضيل

۱ـ الكافي، ج ۱، ص ۱۳٤، وعيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ۲، ص ۱۱۰.

الأحسن مؤنّثا كالعليا في تأنيث الأعلى إذ لا نسبة لأسمائه إلى غير الأسماء كما لا نسبة لذاته المتعالية إلى ذوات الغير وتعدّد الأسماء لا يدلّ على تعدّد المسمّى كما أنّ الواحد يسمّى أباً من وجه وجداً من وجه وخالا من وجه وعالماً من وجه وطبيباً من وجه.

وقيل: إنّ أسماء اللّه أربعة آلاف اسم ألف منها في القرآن والأخبار وألف في التوراة وألف في الإنجيل وألف في الزبور قال رسول اللّه في دعائه: «**أسألك بكلّ اسم سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب**».[1] فعلى هذا كون أسماء الحسنى تسعة وتسعين- على ما قيل- بالنظر إلى الأشهر الأشرف.

قال بعض أهل الذكر: إنّ من السرّ المكتوم في الأسماء أن يأخذ حروف الأسماء مثل قولك: الكبير المتعال ولا يأخذ الألف واللام بل يأخذ كبير متعال وينظركم لها من العدد بالجمل الكبير فتذكّر ذلك العدد في خلوة بالشرائط المعتبرة عند أهل الذكر من الطهارة وأمثالها لا يزيد عن العدد لا ينقص لأنّ العدد ولا ينقص لأنّ العدد في الذكر بالأسماء كأسنان المفتاح وإنّها إذا زادت أو نقصت لا تفتح الباب فإنّه يستجاب لك وهو الكبريت الأحمر فضنّ الدرّ وافهم السرّ.

واعلم أنّ إطلاق الاسم على اللّه توقيفيّ عند الأكثر ولا يصحّ إطلاقه إلّا بعد أن كان وارداً في القرآن أو الحديث الصحيح وقيل: كلّ لفظ دلّ على جلالة اللّه ويليق به جائز الإطلاق وإلّا فلا واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فكلّ اسم دلّ على هذه المعاني كان اسماً حسناً وإنّه لا فائدة في الألفاظ إلّا رعاية المعاني فإذا كانت المعاني صحيحة كان

١ـ الدعوات الراوندي، ص٥٦.

المنع من إطلاق اللفظ المقيّد غير لائق.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ينطق بتنزّهه عن جميع النقائص الأشياء إمّا نطقاً وبياناً وإمّا برهاناً وخلقاً لأنّ وجود كلّ موجود ينطق في عالم الصورة أو المعنى على قدرته لأنّ ذلك الموجود شاهد قدرته.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الغالب على أمره الحكيم العالم بحقيقة الأشياء على ما هي عليه وهي أنفس المعارف وأكثرها خيراً كما قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] والإنسان إذا حصل له الحكمة لا ينبغي له أن يفتخر بذاته بل بصفاته ولا ينبغي أن يمدح نفسه إلّا على مصلحة دينه والفخر بالذات لا يكون إلّا للّه وهذا كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[2] لكنّ الترتّب والمزايا بالأوصاف ولذا ذكر سبحانه شرف التربة والوصف بقوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وقال ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر». أي لا افتخر[3] عليكم بالسيادة وإنّما أفتخر بالعبودية فإذا كان هذا كلام النبي ﷺ وهو أكمل الكاملين في الإمكان فكيف يجوز أن يمدح الناقص نفسه فمدحه لنفسه سمّ قاتل ينبئ عن العجب وشهادة الزور لجهله بمقامه عند اللّه هل هو مقبول أو مردود.

فائدة: اعلم أنّ الحكمة الشريعة المحمّديّة هي الحكمة الكاملة الّتي نحن مأمورون بامتثالها وإنّما الأولى لنا أن نسكت عن امور يدقّ عن أفهامنا من العلوم الغامضة في علم الكلام مثلاً مثل أنّ الصفات الثابتة هل هي موجودات بوجودات مستقلّة غير وجوده أولاً ومثل أنّ الوجود هل هو واحد

١ـ سورة البقرة: ٢٦٩.

٢ـ سورة الكهف: ١١١.

٣ـ الأمالي، للصدوق، ص٢٥٤، وشرح الأخبار، ج١، ص١٩٥.

والله سبحانه هو ذلك الوجود وسائر الموجودات مظاهر له ولا وجود لها بالاستقلال أوله وجود زائد على ذاته واجب لها مقتضية هي إيّاه وأمثال هذه المباحث وأنّ ما أبهم علمه فالأدب فيه السكوت بعد الإيمان بالقرآن والحديث فإنّ المرء لا يسأل إلّا عن علم لزمه في إقامة الطاعة لمولاه بل لا يجوز أن يناظر أحد في ذات الله بل في صفاته المتعالية عن القياس.

وفي الحديث: «**إنّ هلاك هذه الأمّة إذا نطقوا في ربّهم وإنّ ذلك من أشراط الساعة**». فإنّه ﷺ يخرّ ساجداً متى ما سمع ما يتعالى عنه ربّ العزّة ولا يجيب السائل عن ذلك إلّا بمثل ما جاء به القرآن في آخر سورة الحشر من ذكر أفعاله وصفاته ولا يدقّق الكلام فيه تدقيقا فإنّ ذلك من الشيطان وضرر ذلك وفساده أكثر من نفعه حتّى قيل: إنّه ما في فرق الإسلاميّة أسوء حالاً من المتكلّمين لأنهم ادّعوا معرفة الله بالعقل على حسب ما أعطاهم نظرهم القاصر والحقّ منزّه عن أن يدرك أو يعلم بأوصاف خلقه عقلاً كان أو علما فإنّ الله ما جعل الحواسّ الظاهرة والباطنة طريقا إلّا إلى معرفة المحسوسات والعقل بلا شكّ منها فلا يدرك الحقّ بها لأنّه تعالى ليس بمحسوس ولا بمعلوم معقول وطريق المعرفة من طريق ما بيّنه القرآن والرسل.

والفاضل محمّد الشهرستانيّ صاحب كتاب «الملل والنحل» كان من كبار المتكلّمين وفحولهم وله مباحث كثيرة في علم الكلام حتّى قيل في حقّه: لم يسبق إليه سواه ثمّ انتهى إلى العجز وتحيّر في الذات حتّى رجع إلى مذهب العجائز فقال: عليكم بدين العجائز فإنّه أسنى الجوائز وأنشد:

لقد طفت في تلك المعاهد كلّها   وسيّرت طرفي بين تلك المعالم[1]

١ـ انظر: أوئل المقالات، ص٢٣٧، وتفسير الألوسي، ج٣، ص٢١٤.

فلم أر إلّا واضعا كـفـّ حـائر على ذقن أو قارعا سـنّ نـادم

أتيت بيوتاً لم تنل مـن ظهورهـا وأبوابها عن فرع مثلك سدّت

والوجه الأصح أن يعتقد العبد الدين الّذي جاء به محمّدﷺ ودعا إليه ولا يدخل إليه شيئاً من نظر عقله لا في تنزيه ولا في تشبيه بل يؤمن بكلّ آية جاءت في القرآن في ذاته وصفاته تعالى ويكل علمه إلى اللّه وهذا هو الطريق الصحيح وعلى ذلك كانت الصحابة والسالفون الصالحون ومن طلب غير ذلك كان على خطر في المآل لأنّ فهم مثل هذه الأمور عسر لأنّا نرى أنّ العقلاء اختلفوا في اللّه وفي الأدلّة ووقع بينهم اختلاف كثير في مثل هذا الأمر فالمعتزليّ يخالف الأشعريّ بل يكفّره وبالعكس وهم يخالفون الحكماء وبالعكس وكلّ طائفة تجهّل الاخرى وتكفّرها فعلم أنّ سبب ذلك هو اختلاف نظرهم ورأينا الأنبياء لم يختلف منهم اثنان في اللّه قطّ وكلّ دعوا إليه تعالى على باب واحد وكان اختلافهم في الفروع وذلك بحكم اللّه في فصولها كما قال اللّه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1] فقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ دليل على اجتماعهم على أمر واحد في الأصول واختلاف الفروع لا يضرّ. هذا آخر كلام الشيخ صدر الدين في رسالته المعمولة وصيّة للطالبين وعظة للراغبين.

وفي «عين المعاني» قالﷺ: **«سألت جبرئيل عن اسم الله الأعظم فقال: عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته فأعدت عليه فأعاد عليّ»**[2].

وعن أبي امامة يقول: قال رسول اللّه: **«من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار**

١ـ سورة الشورى: ١٣.

٢ـ انظر: تفسير نور الثقلين، ، ج٥، ص٢٩٣، وتفسير القرطبي، ج١٨، ص٤٩.

فقبض ذلك اليوم أو الليلة فقد استوجب الجنة».[1] وفي رواية: «**من قرء سورة الحشر فإن مات في يومه أو ليلته مات شهيداً**»[2]. أي يثاب ثواب الشهادة على مرتبته وللشهادة مراتب.

تمت السورة بعون اللّه.

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص ٤٤٠، وتفسيرنورالثقلين، ، ج٥، ص٢٩٣.

٢ـ ثواب الأعمال، ص١١٧، ووسائل الشيعة، ج٤، ص٨٩٣.

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

مدنية، وسمّيت سورة المودّة.

أبو حمزة الثماليّ عن عليّ بن الحسين قال: «**من قرأ هذه السورة في فرائضه ونوافله امتحن الله قلبه للإيمان ونوّر بصره ولا يصيبه فقر ولا جنون**»[1]. افتتح سبحانه هذه السورة بذكر تحريم موالاتهم وإيجاب معاداتهم».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ
كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن
كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ
بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن
يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ
تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣) قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ
إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا
وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

١ـ تفسير أبي حمزه ثمالي، ص٣٣١، وانظر: تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص٤٤٣.

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

سمّيت السورة ممتحنة لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فأضيفت السورة إليها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة العبسيّ- بالحاء المهملة- وكان حاطب يبيع الطعام وكان من المهاجرين وأصل القصّه أنه لمّا تجهّز النبيﷺ لغزوة الفتح في السنة الثامنة من الهجرة كتب حاطب إلى أهل مكّة إنّ رسول اللهﷺ يريدكم فخذوا حذركم فإنّه توجّه إليكم في جيش كالليل وأرسل الكتاب مع امرأة يقال لها «سارة» وأعطاها عشرة دنانير وبردة وتوجّهت إلى مكّة ومعها كتاب حاطب. فنزل جبرئيل وأخبرهﷺ فبعث النبيﷺ عليّاً وعمّاراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال: «**انطلقوا حتّى تأتوا خاخ موضع بين الحرمين فإنّ بها ظعينة- والظعينة المرأة مادامت في الهودج وإذا لم تكن في الهودج فهي المرأة- معها كتاب حاطب فخذوه منها وخلّوها فإن أبت فاضربوا عنقها**». فأدركوها ثمّة فجحدت فسلّ عليّ؈ سيفه فأخرجته من عقاصها[١].

وروى أنّ رسول اللهﷺ أمن جميع الناس يوم فتح مكّة إلّا أربعة هي أحدهم فأمر بقتلها[٢].

فاستحضر حاطباً فقال: «**ما حملك على هذا؟**» فقال: يا رسول اللّه ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك مذ نصحتك ولكنّي كنت امرأ حليفاً مع قريش ولم أكن منهم، ومن معك من المهاجرين كان لهم فيهم قرابات

١ـ انظر: مجمع البيان، ج٩، ص٤٤٦، وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣٠٠.

٢ـ تفسير القرطبي، ج١٨، ص٥٢، والكشاف، ج٤، ش ص٨٨.

يحمون أهاليهم وأموالهم وليس لي من يحميني فأردت أن آخذ عندهم يداً ولم أفعله كفراً وارتداداً عن ديني وقد علمت أنّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه رسول الله وقبل عذره وقال ﷺ: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1] وإنّ حاطب ادّعى لعمله الفاسد تأويلاً فقبل منه والعذر عند كرام الناس مقبول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خاطب سبحانه المؤمنين ونهاهم أن يتّخذوا الكافرين أولياء يوالونهم ويستنصرون بهم وينصرونهم ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الودّ تمنّي كون الشيء ومحبّته ويستعمل في كلّ من المعنيين أي توصلون محبّتكم بالمكاتبة والهدية ونحوها من الأسباب المقتضية للمودّة والباء زائدة مثل ﴿بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل ﴿تُلْقُونَ﴾ والحق القرآن أو دين الإسلام أو النبيّ. ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ حال من فاعل كفروا أي مخرجين الرسول وإياكم من مكّة والمضارع لاستحضار الصورة ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل للإخراج أي لعلّة إيمانكم بالله خالقكم ومدبّركم ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ أي: لا تتولّوا أعدائي إن كنتم أوليائي وتبتغون مرضاتي وتجاهدون في سبيلي لأنّكم إن كنتم خرجتم عن أوطانكم لأجل هذين الأمرين فلا ينبغي معهم التصادق. والمرضاة مصدر كالرضى. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ استيناف وارد على جهة التوبيخ كأنهم سألوا ماذا صدر عنّا؟ فقيل: تلقون إليهم بالمودّة سرّاً ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ حال من فاعل ﴿تُسِرُّونَ﴾ ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ من مودّة الأعداء. ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ ويتّخذ المنهيّ عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وأخطأ طريق الحقّ والصواب و«من» من إضافة الصفة إلى الموصوف.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ والثقف الحذق في إدراك الشيء أي: إن يتمكّنوا منكم

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٤٤٦، ونورالثقلين، ج٥، ص٣٠١.

ويظفروا بكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ يرتبوا عليكم ما يقتضي عداوتهم إيّاكم ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ﴾ ويطيلوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ وبما يضرّكم من القتل والأسر والشتم. ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ كلمة لو مصدريّة بمعنى أن وتمنّوا ارتدادكم وكونكم مثلهم كقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ الرحم في الأصل وعاء الولد في بطن أمّة فاستعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الّذين يوالون المشركين لأجلهم ويتقرّبون إليهم محاماة عليهم. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم يفر المرء من أخيه بجلب نفع أو دفع ضرّ والظرف متعلّق لقوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ فيوقف عليه ثمّ يبتدأ بما بعده ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ ويفرق بين الوالد والولد بما يعتريكم من أهوال القيامة ويدخل أهل طاعته الجنّة وأهل معصيته النار. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأسوة كالقدوة هي الحالة الّتي يكون الإنسان عليها في اتّباع غيره حسناً كان أو قبيحاً وأسوة اسم كانت ولكم خبرها ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: من أصحابه من المؤمنين ولي بك أسوة أي اقتداء في سنّتك وأقوالك وأفعالك وقيل: المراد من الّذين مع إبراهيم الأنبياء الّذين كانوا قريباً من عصره لأنّه لم يرد أنّ إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحة نمرود حتّى قيل: إنّهعليه السلام قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجرا بلاد نمرود: ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك. ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ الكفار: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ جمع بريء أي: برءاء منكم كظريف وظرفاء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام أظهروا البراءة أولاً

١ـ سورة البقرة: ١٢٠.

منهم مبالغة وثانيا من عملهم الشرك وحاصل الآية هلّا فعلتم كما فعل إبراهيم حيث تبرأ من عمّه وقومه لكفرهم ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينكم على إضمار المضاف ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا﴾ أي ظهر ظهور بيننا والبادية كلّ مكان يبدو ما يعوق ويعرض فيه وبيننا ظرف لبدا ﴿وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم لا نتركه وقد حصل بيننا وبينكم العداوة ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لبدا ﴿تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة حينئذ الولاية والمقت مقة والوحشة الفة. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: اقتدوا وتأسّوا بإبراهيم في كلّ أموره إلّا في هذا القول فلا تقتدوا به فيه فإنّه إنّما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إيّاه بالإيمان فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ للّه تبرأ منه قال الحسن: وإنّما تبيّن له ذلك عند موت أبيه ولو لم يستثن ذلك لظنّ أنّه يجوز الاستغفار للكفّار مطلقاً من غير موعدة بالإيمان منهم فنهوا لمن يقتدوا به في هذا خاصّة وقيل: كان آزر ينافق إبراهيم ويريه أنّه مسلم فيستغفر له وحاصل معنى الكلام والاستثناء أنّ استغفار إبراهيم لأبيه لا يحملنّكم على أن تتأسّوا به وتستغفرون للكفّار فذلك ممنوع لكم وأمّا استغفاره فكان لهذه الجهة ظنّاً منه أنّه مسلم أو سيسلم.

﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ بقيّة قول إبراهيم أي: أستغفر لك وليس في قدرتي دفع العذاب عنك إن لم تؤمن ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ ورجعنا ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ والرجوع في الآخرة وتقديم الجارّ والمجرور لقصر الإنابة والتوكّل عليه. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من بقيّة كلام إبراهيم ومن معه أي لا تسلّطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نطيقه فالفتنة بمعنى المفتون أو المعنى لا تقتر علينا الرزق وتبسط عليهم فيظنّوا أنّا على الباطل ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منّا من التقصير ﴿رَبَّنَا﴾ تكرير النداء للمبالغة في

التضرّع فيكون لاحقاً بما قبله كما عليه السجاونديّ حيث وضع علامة الوقف الجائز على ربّنا وتلك العلامة الجيم وقيل: ربّنا استيناف لما بعده توسّلاً إلى إثبات العزّة والحكمة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الغالب في أمره الحكيم في أفعاله.

لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

تكرير للمبالغة في الحثّ على الائتساء بإبراهيم ومن معه من الأنبياء أو أمر الائتساء في الآية السابقة بالقول وفي هذه الآية في الفعل وقيل: في الاولى التأسّي به في العداوة مع الكفّار وفي الثانية في الخوف والخشية من اللّه لتنالوا ثواب ما نالوا ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ بالإيمان به تعالى والتصديق بالقيامة ووقوعها والرجاء والخوف وتوقّع محبوب وخوف مكروه عن أمارات مظنونة والرجاء أيضاً يستعمل في الخوف مجازاً.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: ومن يعرض عند الاقتداء بهم في التبري عن الكفّار والأهم فإنّ اللّه مستغن عن خلقه ومستحقّ للحمد في ذاته وفي الحديث القدسيّ من صحاح الأحاديث «يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وانسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً وإذا كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وانسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ إنسان

مسألته ما نقص ذلك من عندي إلّا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثمّ أوفيكم إيّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه».

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: من أقاربكم المشركين وعسى ولعلّ في القرآن وعد من اللّه وتذكرة ليكون الإنسان منه على رجاء لا بمعنى أنّه تعالى راج. قوله: ﴿مَّوَدَّةً﴾ بأن يوافقوكم في الدين وقد أنجز وعده حين أتاح لهم الفتح فأسلم منهم جمع وكانوا أعداء أشدّ العداوة ووقع بينهم التحابب والتصافي ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لمن أسلم من المشركين أو غفور لما فرط منكم في موالاة أعداء اللّه بشرط إيمانكم وفي الحديث: **«من نظر إلى أخيه المؤمن مودّة لم يكن في قلبه إحنة لم يطرف حتّى يغفر الله له ما تقدّم من ذنبه».**

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا ينهاكم اللّه عن مودّة الّذين لم يقاتلوكم وعاهدوكم على ترك القتال ولم يقاتلوكم على الدين ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل الاشتمال عن الموصول وبرّهم أن تعاملوهم بالعدل ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: تعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد.

وقيل: إن المسلمين استأذنوا النبيّ في أن يبرّوا إلى أقربائهم من المشركين ويحسنوا إليهم وذلك قبل أن يؤمروا بقتال جميع المشركين فنزلت هذه الآية وهي منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1] وقيل: إنّه عنى بالّذين لم يقاتلوكم من آمن من أهل مكّة ولم يهاجر وقيل: هي عامّة في كلّ من كان بهذه الصفة. والّذي عليه الإجماع أنّ برّ الرجل من يشاء قرابة كان أو غير قرابة ليس بمحرّم وإنّما الخلاف في إعطائهم الزكاة والفطرة

١ـ سورة التوبة: ٥.

والكفّارات وحاصل الكلام أنكم غير منهيّين عن أن تبرّوا الّذين لم يقاتلوكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين وقيل: المعنى: إنّ اللّه يحبّ الّذين يجعلون لقراباتهم قسطاً ممّا في بيوتهم من المطعومات وقيل: إنّ قوله: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ الآية نزلت في قوم من خزاعة كانوا معاهدين مع رسول اللّه ولم يقصدوا بالمسلمين بسوء وما نصروا أعداء النبيّ فنزلت الآية فيهم والقسط إذا كان بمعنى الجور فالإقساط بمعنى إزالة الظلم والهمزة للسلب مثل أشكيته، ومن أزال الظلم اتّصف بالعدل.

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وإطفاء نوره ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ وهم عتاة مكّة وجبابرتهم ﴿وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وعاونوا الجبابرة في إخراجكم ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من الموصول أي: إنّما ينهاكم عن أن تتولّوهم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ ويتوادّهم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في موضع العداوة بتعريض أنفسهم للعذاب وأورد كلمة الحصر تغليظاً ولكنّ المبرّة غير الموالاة والموالاة للكافر غير جائز إجماعاً والمبرّة أيضاً لغير المقاتل وللمقاتل غير جائزة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

سبب النزول: قال ابن عبّاس: صالح رسول اللّه ﷺ بالحديبية مشركي

قريش على أنّ من أتاه من أهل مكّة ردّه عليهم ومن أتى من أصحاب رسول الله فهو لهم ولم يردّوه وكتبوا بذلك كتابا وختموا عليه كما سبق شرحه فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلميّة مسلمة بعد الفراغ من الكتاب والنبيّ بعد بالحديبية فأقبل زوجها رجل من بني محزوم وكان كافرا فقال: يا محمّد اردد إليّ امرأتي فإنّك قد شرطت لنا أن تردّ علينا من أتاك منّا وهذه طينة الكتاب لم تجفّ بعد وفنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾

قال ابن عبّاس: امتحانهنّ أن يستحلفن أنّها ما خرجت من بغض زوج ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا التماس دنيا وما خرجت إلّا حبّا لله ولرسوله فاستحلفها رسول الله فحلفت بالله الّذي لا إله إلّا هو على ذلك فأعطى رسول اللهﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها عليه فكان رسول الله يردّ من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحنّ ويعطي أزواجهنّ مهورهنّ.

المعنى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ ولعلّ التسمية بالمؤمنات لكونهنّ كذلك في علم الله وذلك لا ينافي الامتحان لغير، ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ حال من المؤمنات ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ واختبروهنّ أنّ قلوبهنّ موافقة للسانهنّ في الإيمان ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ منكم والجملة اعتراض. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ العلم الّذي يمكنكم تحصيله وهو الظنّ الغالب بالحلف وظهور الأمارات وإنّما سمّاها علما إشعاراً بأنّه جار مجرى العلم في وجوب العمل به ففي علمتوهنّ استعارة تبعيّة ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ولا تردّوهنّ إلى أزواجهنّ الكفرة. ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ تعليل للنهي عن ردّهنّ إليهم لأنّه لا تحلّ مؤمنة لكافر لشرف الإيمان ولا يجوز أن ينكح كافر

مسلمة. ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ وأعطوا أزواجهنّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور والشرط في الحديبية إنّما كان للرجال دون النساء لضعف النساء عن الدفع عن أنفسهنّ وعجزهنّ لكنّ المقيمة منهنّ على شركها مردودة عليهم وفي الآية إيذان بأنّ الوليّ كائنا من كان لا يجوز له تزويج مؤمنة له ولاية عليها بمبتدع في الدين بحيث تفضي بدعته إلى الكفر فضلا عن الكافر.

أقول: ولعلّ أن يكون بعض المتصوّفة من أهل زماننا داخلاً في هذا الحكم لأنّ بعضهم يدّعون القطبيّة العظمى وبسبب هذا العنوان يغيّرون بعض الفروعات من العبادات إلى ما لا ينبغي فعله أو تركه وليست البدعة إلّا أمثال هذه الأمور ولا شكّ أنّ القطبيّة لا يحصل إلّا لمن جعله اللّه قطباً لمدار أمر العالم وذلك مختصّ بالنبيّ والوليّ المنصوص عليه من قبل النبيّ خاصّة فادّعاؤهم هذا الأمر ليس إلّا كذباً محضاً وخارجاً عن الحكمة الإلهيّة ويؤول إلى تحريف الدّين وتأسيس امور محرّفة عن وضعها وهذه هي البدعة بل من أشراط الساعة لأنّ القيامة من أشراطها أن يتغيّر أحوال كلّ طائفة عاماً فعاماً شهراً فشهراً اسبوعاً فاسبوعاً يوماً فيوما لا يزال هذا التغيّر إلى انقراض الأخيار ولا يقوم الساعة إلّا على الأشرار.

وفي الحديث: «ما من نبيّ بعثه الله في امّة قبلي إلّا كان له من امّته حواريّون يأخذون بسنّته ويقتدون بأمره. ثمّ إنّها تخلف من بعدهم خلوفاً يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل»[1].

وقال ﷺ: «يذهب الصالحون الأوّل فالأوّل ويبقى حثالة كحثالة الشعير والتمر

١ـ الديباج علي مسلم، ج١، ص٦٥(جلال الدين السيوطي)، وكنزالعمال، ج٣، ص٦٩، وصحيح مسلم، ج١، ص٥١.

لا يبالي بهم الله»[1] وأوّل التغيّر في الأمراء ثمّ في العلماء ثمّ في الفقراء ففي كلّ طائفة أهل هدى وأهل هوى فكن من أهل الهدى ولا تكن من أهل الهوى أو المشبّهين لهم فإنّ من تشبّه بقوم فهو منهم ومن كثّر سواد قوم فهو منهم وفي الحديث: «من أحبّ قوماً على فعلهم حشر في زمرتهم وحوسب بحسابهم وإن لم يعمل بعملهم». ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا هو الحكم الثالث يقال: جنحت السفينة أي مالت إلى أحد جانبيها والإثم المائل بالإنسان عن الحقّ سمّي جناحا استعارة ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: تنكحوا المهاجرات وتتزوّجوهنّ وإن كانت لهنّ أزواج كفّار من أهل الحرب فإنّ إسلامهنّ حال بينهنّ وبين أزواجهنّ الكفّار ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ إذا ظرفيّة أو شرطيّة جوابها محذوف دلّ عليه ما تقدّمها شرط إيتاء المهر في نكاحهنّ إيذانا بأنّ ما اعطي أزواجهنّ لا تقوم مقام المهر لأنّ ظاهر النظم يقتضي إيتاءهنّ إيتاء إلى الأزواج وإيتاء إليهنّ على سبيل المهر. ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ هذا هو الحكم الرابع أي: لا تمسكوا بنكاح الكافرات وأصل العصمة المنع وسمّي النكاح عصمة لأنّ المنكوحة تكون في حبال الزوج وعصمته وفي هذا دلالة على أنّه لا يجوز العقد على الكافرة سواء كانت حربيّة أو ذمّيّة لأنّه عامّ في الكوافر جمع كافرة وليس لأحد أن يخصّ الآية بعابدة الوثن لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والكوافر طائفتان من النساء طائفة قعدت عن الهجرة وثبتت على الكفر في دار الحرب ارتدّت عن الهجرة ولحقت بأزواجها الكفّار وحاصل المعنى لا يكن بينكم وبين المشركات والكافرات علقة زوجيّة.

قال بعض أهل التفسير من العامّة: المراد بالعصمة هنا النكاح بمعنى من كانت له زوجة كافرة بمكّة أو ارتدّت ورجعت إلى مكّة لا يعدّها من نسائه

١ـ كنز العمال، ج ١١، ص١٩٣، ومجمع الزوائد، ج٧، ص٣٢١.

فيكون بيان حكم اللاتي بقين في دار الكفر وما أسلمن ولا هاجرن بعد الإسلام أزواجهن وهجرتهم.

قال الحقّي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر فيكون قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ بمقابلة قوله: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ أي: حكم اللاتي أسلمن وهاجرن هذا وحكم المسلمات اللاتي ارتددن وخرجن من دار الإسلام إلى دار الكفر هذا.

﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ﴾ هذا هو الحكم الخامس أي: واسألوا الكفّار أيّها المؤمنون من مهور نسائكم اللاحقات بالكفّار أي إذا ارتدّت امرأة أحدكم ولحقت بدار الحرب فاسألوا ما أنفقتم لها ممّن تزوّجها ﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾ أي: الكفّار منكم ما أنفقوا من مهور نسائهم المهاجرات إليكم أي يسأل كلّ كافر أسلمت امرأته وهاجرت إلينا ممّن تزوّجها منّا مهرها. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الّذي ذكر في هذه الآية من الأحكام ﴿حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ مستانف للتأكيد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قيل: كان في صدر الإسلام تكون المسلمة تحت الكافر والكافرة تحت المسلم فنسخته هذه الآية.

ولمّا نزلت هذه الآية آمن المؤمنون بحكم اللّه وأدّوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم اللّه فيما أمرهم به من أداء نفقات المسلمين فنزل: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أي: وإن سبقكم وأتلف منكم شيء من أزواجكم والمراد من الأزواج الزوجات وفاتكم شيء قلّ أو كثر من مهور أزواجكم ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ من العقبة وهي المناوبة والمعنى فجاءت نوبتكم وعقبتكم من أداء المهر مثل أن هاجرت امرأة الكافر مسلمة إلى المسلمين ولزمهم أداء مهرها إلى زوجها الكافر بعد أن فاءت امرأة المسلم إلى الكفّار ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾

أي: من المهاجرة الّتي تزوّجتموها ولا تؤتوا زوجها الكافر أي: إن فاءت امرأة مسلم إلى الكفّار ولم يعط الكفّار مهرها فإذا هاجرت امرأة كافر إلى المسلمين وجب على المسلمين أن يعطوا المسلم الّذي فاءت امرأته إلى الكفّار مثل مهر زوجته الفائتة من مهر هذه المهاجرة ليكون كالعوض لمهر زوجته الفائتة ولا يجوز لهم أن يعطوا مهر هذه المهاجرة زوجها الكافر الأولي. وإنّما عبّر سبحانه بالمعاقبة لأنّه شبّه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء اخرى بأمر يتعاقبون فيه مثل النوبة كما يتعاقب في الركوب. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ لا بغيره فإن الإيمان به يقتضي التقوى منه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداء تشريف وتعظيم ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ مبايعات وقاصدات للبيعة. نزلت يوم الفتح فإنّه صلى الله عليه وآله لمّا فرغ من بيعة الرجال شرع في بيعة النساء سمّيت البيعة لأنّ المبايع يبيع نفسه بالجنّة ومن عادة الناس حين المبايعة بعد أن يضع أحد المتبايعين يده على يد الآخر ليكون معاملتهم محكمة فمبايعة الامّة رسولهم التزام طاعته والمعاونة له ومبايعة الرسول إيّاهم الوعد بالثواب والقيام بمصالحهم إن كانوا ثابتين على المعاهدة.

﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء ومن الإشراك ولا يتّخذون إلها غير الله ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ والسرقة أخذ ما ليس له أخذه في الخفاء أي: لا

يأخذن مال أحد بغير حقّ ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ الزنا وطي المرأة من غير طريق مشروع ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أريد به وأد البنات ودفنهنّ أحياء خوف الفقر والعار وفي تفسير أبي الليث: ولا يشربن دواء فيسقطن حملهنّ. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ البهتان الكذب الّذي يبهت المكذوب عليه ويدهشه فيكون أقبح أنواع الكذب ثمّ وصفه بكونه مفترى مبالغة في الكذب والافتراء الاختلاق فري فلان كذبا إذا خلقه بين أيديهن وأرجلهنّ ظرف متعلّق بفعل تقديره يوجد بين أيديهنّ.

وحاصل المعنى لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم. قال الفرّاء: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك فذلك البهتان المفترى بين أيديهنّ وأرجلهنّ وذلك أنّ الولد إذا وضعته الأمّ سقط بين يديها ورجليها وليس المراد نهيهنّ من أن يأتين بولد من الزنا فينسبنه إلى الأزواج لأنّ الشرط بنهي الزنا قد تقدّم. وقيل: معنى الآية في البهتان الّذي نهين عنه قذف المحصنات والكذب على الناس وإضافة الأولاد على الأزواج باطلاً.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ ولا يخالفنك فيما تأمرهن به وتنهاهن عنه وكلّ ما وافق في طاعة الله ورسوله فعلاً أو تركاً فهو معروف والمعروف خلاف المنكر مثل أن لا يتركن الواجبات مثل الصلاة والصوم ولا يرتكبن المنكرات مثل المحرّمات حتّى النياحة وتمزيق الثوب وحلق الشعر في المصيبة ونتفه ونشره وخمش الوجه، وأن تحدث المرأة الرجال إلّا ذا رحم محرّم وأن تخلو برجل غير محرّم وأمثاله والآية شاملة للكلّ وتخصيص الأمور المذكورة المعدودة بالذكر في حقّهنّ لكثرة وقوعها فيما بينهنّ ولتقدّم الأقبح على ما هو أدنى قبحاً منه.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ جواب لإذا وهو العامل فيه أي: فبايعهنّ إذا قبلن هذه

الشروط وما لم يذكر من الشروط في المبايعة كالصلاة والزكاة وغيرها فذلك أمر منطبق مفهوم من قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لهنّ إذا وفين بما بايعن عليه قال بعض أهل التحقيق: إنّه تعالى غافر لأنه يزيل معصيتك عن ديوانك وغفور لأنّه ينسئ الملائكة أفعالك السوء وغفّار لأنّه ينسيك أيضاً ذنبك كيلا تستحي. روي أنّهﷺ لمّا فرغ من بيعة الرجال جلس على الصفا وشرع في بيعة النساء ودعا بقدح من ماء فغمس فيه يده الشريفة ثمّ غمس أيديهنّ فجاءت هندة بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكّرة خوفاً من رسول اللهﷺ أن يعرفها لما صنعته بحمزة يوم احد من المثلة.

فلمّا قالﷺ: «أبا يعكنّ على أن لا تشركن بالله شيئاً». رفعت هند رأسها فقالت: والله لقد عبدنا الأصنام وإنّك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال تبايع الرجال على الإسلام والجهاد: فلمّا قالﷺ ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت: إنّ أبا سفيان رجل شحيح وإنّي أصبت من ما له هنات أي: شيئاً يسيراً فما أدري أ يحلّ لي؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال فضحكﷺ وقال: «أنت هند؟» فقالت: نعم فاعف عمّا سلف يا نبيّ الله عفا الله عنك.

فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ فقالت: وهل تزني الحرّة؟.

فقالﷺ: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ فقالت: ربّينا هم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر حتّى استلقى وتبسّم رسول اللهﷺ.

فقال: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ فقالت: إنّ البهتان لأمر قبيح.

فقال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا

وفي أنفسنا أن نعصيك[١].

وروي أنّه ﷺ بايعهنّ وبين يديه وأيديهنّ ثوب قطريّ ضرب من البرد ويأخذ بطرف منه ويأخذن بالطرف الآخر توقّياً عن مساس أيدي الأجنبيّات[٢].

وروي أنّه جلس على الصفا ومعه عمر أسفل منه وهو ﷺ يشترط عليهنّ البيعة وعمر يصافحهنّ[٣] وفي رواية: إنّ عمر كان يبايع النساء بأمره ويبلّغهنّ عنه وقيل: إنّه ﷺ كلّف امرأة وقفت على الصفا بايعتهنّ وهي أميمة أخت خديجه خالة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها والأظهر الأشهر القدح والغمس وكيف يجوز مصافحة عمر مع الأجنبيّات وهو أعلى حالاً من كلّ وجه وأولى؟ ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تتولّوا اليهود وقيل: المراد نوع الكفّار لأنّ كلّهم مغضوب عليهم لا رحمة لهم من الرحمة الأخرويّة وكان بعض فقراء المؤمنين يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فعلى هذا يكون المراد في الآية اليهود كما صرّح تعالى: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[٤] والقوم الرجال ويدخل فيه النساء تبعا لأنّ قوم كلّ نبيّ رجال ونساء ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قطعوا الطمع من ثواب الآخرة وينبغي أن يقطعوا طمعهم عن ثواب الآخرة لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة أي إنّهم أهل الكتاب يؤمنون بالقيامة لكنّهم لمّا أصرّوا على كفرهم عناداً وحسداً لا بدّ وأن ييأسوا من ثوابها.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس من السعادة وأيقن

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٤٥٧، والكشاف، ج٤، ص٩٦.

٢ـ انظر: تفسيرنورالثقلين، ج٥، ص٣٠٩.

٣ـ تفسيرالقرطبي، ج١٨، ص٧١، وتفسيرأبي السعود، ج٨، ص٢٤١.

٤ـ سورة المائدة: ٦٠.

الّذين ماتوا منهم لأنّهم لمّا ماتوا وقفوا على حقيقة الحال وشاهدوا حرمانهم من الثواب وابتلاءهم بالعذاب وقيل: معنى الآية كما يئس كفّار العرب من أن يحيي أهل القبور أبداً لأنّهم ما كانوا يعتقدون بالبعث وقيل: يعني: يريد أنّهم يئسوا مثل يأسهم بعد دفن موتاهم منهم وقيل: «مِن» في الآية تبيينيّة فحينئذ يكون يأسهم مثل يأس الكفّار المقبورين وذلك لأنّ الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك شديد الانتهار ثمّ يسأله: من ربّك وما دينك ومن نبيّك؟ فيقول: ما أدري فيقول الملك: أبعدك اللّٰه انظر إلى منزلتك من النار فيدعو الكافر بالويل والثبور ثمّ يفتح له باب الجنّة فيقول: هذا لمن آمن باللّٰه فلو كنت آمنت بربّك نزلت الجنّة فيكون حسرة عليه وتنقطع رجاؤه وييأس من خير الجنّة فذلك يأسه.

تمّت السورة بعون اللّٰه.

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية، وتسمّى سورة الحواريّين وسورة عيسى.

أبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله: **«من قرأ سورة عيسى كان عيسى مستغفراً له مادام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه»**[1].

وعن أبي بصير عن الباقر عليه السلام قال: **«من أدمن قراءة سورة الصفّ في فرائضه ونوافله صفّه الله مع ملائكته وأنبيائه»**[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ
صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ
تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

نزّهه ما في السماوات من العلويّات الفاعلة وما في الأرض من السفليّات

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٤٥٩، وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣٠٩، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٥٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٣، ص ٥٥١، وتفسير الصافي، ج ٥، ص ١٧١.

القابلة آفاقاً وأنفساً وسجّه جميع الأشياء من غير فرق بين موجود وموجود كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وكلّ شيء هو يسبّحه طوعاً أو كرهاً حتّى الكافر لأنّ وجوده دالّ على موجده ولا حكيم على الإطلاق غيره ولذا يجب تسبيحه ومن أراد أن يصفو له تسبيحه فليصف عن آثار نفسه قلبه ومن أراد أن يصفو له في الجنّة عيشه فليصف عن أوضار الهوى دينه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيماناً رسمياً ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ روي أنّ المسلمين قالوا: لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فلمّا نزل الجهاد كرهوه فنزلت الآية تعييرا لهم بترك الوفاء ولم مركّبة من اللام الجارّة وما الاستفهاميّة قد حذفت ألفها لكثرة استعمالهما معا كما في (عمّ) و(فيم) أي: لأيّ شيء تقولون نفعل ما لا تفعلون من الخير والمعروف؟ ومدار التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم وإنّما وجهه إلى قولهم تنبيها على أنّ المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد به أيضاً منكر ولو قيل: لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه أنّ المنكر هو ترك الموعود مثل أن تذمّون الدّنيا بلسان الظاهر وتمدحونها بلسان الباطن لشهادة ارتكابكم أنواع الشهوات الحيوانيّة وأصناف اللذّات الجسمانيّة.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿كَبُرَ﴾ مثل نعم وبئس فيه ضمير مبهم يفسّر بالنكرة بعده قوله: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ هو المخصوص بالذمّ والمقت البغض الشديد وحاصل المعنى أنّه عظم بغضا في حكمته وعند علمه تعالى هذا القول المجرّد عن الفعل فهو أشدّ ممقوتيّة ومبغوضيّة ونعم ما قيل:

١ـ سورة الإسراء: ٤٤.

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم[١]

أوحى الله إلى عيسى يا بن مريم عظ نفسك فإن اتّعظت فعظ الناس وإلّا فاستحي منّي[٢]. قيل لبعض السلف: حدّثنا فسكت ثمّ قيل: له حدّثنا فقال: لهم أتأمرونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله؟ وقال: ثلاث آيات منعتني أن أقصّ على الناس ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٣] الثانية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[٤] والثالثة هذه الآية.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ وفي طريق مرضاته وإعلاء دينه يرضى عنهم ويثني عليهم ﴿صَفًّا﴾ متصافّين قبالة أعداء الله وصفًا مصدر وقع موقع الفاعل أي صافّين أو موقع المفعول أي مصفوفين ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ والبنيان الحائط والبناء ضدّ الهدم وبناه بناء وبنيانا مصدر بمعنى المبنيّ والرصّ اتّصال بعض البناء بالبعض واستحكامه بوضع الحجر على الحجر ثمّ يرصّ بأحجار صغار ثمّ يوضع عليه اللبن أو غيره يسميه أهل مكة مرصوصا شبّه سبحانه وقوفهم في تراصّهم من غير فرجة وخلل بميل هذا البناء وهذا تعليم من الله للمؤمنين كيف يكونون في قتال عدوّهم ولذلك لا يجوز الخروج من الصفّ إلّا لحاجة تعرض للإنسان أو في رسالة يرسله الإمام أو منفعة يظهر للمقام المنتقل إليه. وفي الخروج عن الصفّ للمبارزة وإرهاباً للعدوّ وتحريضاً على القتال قيل: لا بأس وقيل: لا يجوز وإنّما يكون المبارزة إذا طلبها الكافر كما كانت في حروب

١ـ عوالي اللئالي، ج١، ص٢٨٧، وتفسير مجمع البيان، ج١، ص١٨٨.

٢ـ الدر المنثور، ج٢، ص٢٨، وكنز العمال، ج١٥، ص٧٩٥.

٣ـ سورة البقرة: ٤٤.

٤ـ سورة هود: ٨٨.

النبيّ يوم بدر وخيبر وذلك صحيح وحسن بالاتّفاق وحكم الجهاد فرض كفاية على المستطيع وإذا فعله البعض سقط عن الباقين وعند النفير العامّ وهو هجوم العدوّ فهو فرض عين وهذا الجهاد أحيانا دون أحيان وهو يقع مع الأعداء الظاهرة كالكفّار والمنافقين وأمّا الجهاد مع الأعداء الباطنة كالنفس والشيطان فثابت مستقرّ حكمه إلى زهوق الروح كما قال ﷺ: **«المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر هاجر الخطايا والذنوب، وأعظم المجاهدات جهاد النفس»**[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ كلام مستأنف مقرّر لمّا قبله من شناعة ترك القتال أي: اذكر لهؤلاء المتقاعدين عن القتال وقت قول موسى لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾[2] فلم يمتثلوا بأمره وعصوه حيث قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ - إلى قوله:- ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[3].

﴿يَٰقَوْمِ﴾ أصله يا قومي ولو لا تقدير الياء لقيل: يا قوم بالضمّ لأنّه حينئذ يكون مفردا معرفة فبني على الضمّ لكن ليس كذلك وإنّما قوم بالكسر وهو نداء بالشفقة والرفق كما هو شأن الأنبياء ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به قال في القاموس: آذى فعل الأذى فلفظ الإيذاء من الأغلاط في أفواه الناس ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملة حاليّة مؤكّدة لإنكار الأذيّة أي والحال أنّكم تعلمون علماً قطعيّاً بمشاهدة ما ظهر بيدي من

١ـ الدرالمنثور، ج٤، ص٣٧١، ووسائل الشيعة، ج١١، ص١٢٤.

٢ـ سورة المائدة: ٢١.

٣ـ سورة المائدة: ٢٢، ٢٤.

المعجزات أنّي مرسل من الله إليكم ومن لازم علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا إلى طاعتي.

وفي الحديث: «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».[1] وذلك أنهﷺ لمّا قسّم غنائم الطائف قال بعض المنافقين: هذه القسمة ما عدل فيها فتغيّر وجهه الشريف وقال ذلك.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ الزيغ الميل عن الاستقامة أي: أصرّوا على الزيغ والميل عن الحقّ الّذي جاء به موسى واستمرّوا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أي: خلّا هم وسوء اختيارهم ومنعهم الألطاف الّتي يهوي بها قلوب المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يهديهم إلى الثواب والكرامة والجنّة الّتي وعدها المؤمنين ولا يفعل بهم الألطاف الّتي يفعلها بالمؤمنين بل يخلّيهم واختيارهم.

وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾

﴿وَإِذۡ قَالَ﴾ معطوف على إذ الاولى وابن في هذه الآية وفي ﴿عُزَيۡرٌ﴾ يثبت ألفه خطًا ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ناداهم بهذه النسبة استمالة لقلوبهم إلى تصديقه في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ فإنّ

١ـ صحيح البخاري، ج٥، ١٠٦، والدرالمنثور، ج٥، ص٢٢٤.

تصديقهعليه السلام التوراة من أقوى الدواعي إلى تصديقهم إيّاه أي: أرسلت إليكم لتبليغ أحكامه الّتي لا بدّ منها وأنّها من الله ويمكن أنّهعليه السلام ما خاطبهم بيا قوم كما قال موسى: لأنّه لا نسب له فيهم إذ النسب عندهم بالآباء.

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ أي: حال كوني مصدّقاً لأحكام التوراة ومبشّراً برسول ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أي: إنّ ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه ممّن تقدّم وتأخّر قال النبيّصلى الله عليه وآله وسلم: **«أنا دعوة إبراهيم وبُشرى عيسى»**.[1] وقيل: إنّ بين رَفع المسيح ومولد النبيّصلى الله عليه وآله وسلم خمسمائة وخمس وأربعون سنة وعاش المسيحعليه السلام إلى أن رفع ثلاثاً وثلاثين سنة وبين رفعه والهجرة الشريفة خمسمائة وثمان وتسعون سنة ونزل جبرئيلعليه السلام على عيسىعليه السلام عشر مرات وكذلك أثبته النصارى على اختلافهم.

وخصّ لفظ أحمد فيما بشّر به عيسى تنبيها على أنّهصلى الله عليه وآله وسلم أحمد منه ومن الّذين من قبله من الأنبياء وهو محمود في أخلاقه وأقواله. قال السهيليّ في كتاب التعريف والأعلام: أحمد اسم علم منقول من صفة وتلك أفعل الّتي يراد بها التفضيل فمعناه أحمد الحامدين لربّه وأمّا محمّد فمنقول أيضاً من صفة وهو في معنى محمود ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار فمحمّد هو الّذي حمد مرّة بعد مرّة كما أنّ المكرّم من أكرم مرّة بعد مرّة فهوصلى الله عليه وآله وسلم محمود في الدنيا بما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة وأيضاً محمود في الآخرة بالشفاعة فقد تكرّر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ[2].

ثمّ إنّهصلى الله عليه وآله وسلم لم يكن محمّداً حتّى كان حمد ربّه فنبّأه وشرّفه ولذلك يقدّم اسم أحمد على الاسم الّذي هو محمّد فذكره عيسىعليه السلام فقال: اسمه

١ـ تفسير الرازي، ج٤، ص٧٣، والمسترشد، الطبري[الشيعي]، ص٦٤٩.

٢ـ تفسير القرطبي، ج١٨، ص٨٤.

أحمد وذكره موسى حين قال له ربّه: «تلك أمّة أحمد». فقال: «اللّهمّ اجعلني من امّة أحمد».[1] فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمّد فلمّا وجد وبعث كان محمّدا وهذا بيان تقدّم ذلك الاسم على هذا الاسم وما خصّ به من الحمد والمحامد مشاكلاً لمعناه مصادقاً لصفته ﷺ لأنّ اللّه تعالى شرع له سنّة وقرآناً وأنزلت عليه سورة الحمد وخصّ بلواء الحمد وبالمقام المحمود في الآخرة وشرّع في اختتام الأمور ذكر الحمد كما قال سبحانه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] وقال: أيضاً ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] فهذا الاسم والمسمّى تطابقاً لكونه خاتم الأنبياء ومؤذناً بانقضاء الرسالة والوحي وختم به وتخصيص اللّه إيّاه بهذا الاسم وبهذه الكرامات قبل وجوده تكرمة له وإشعاراً بخاتميّته.

قال في «فتح الرحمن»: لم يسمّ بهذا الاسم أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل ميلاده من الكهّان والأحبار أنّ نبيّنا اسمه محمّد يبعث فسمّى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو وهم: محمّد بن احيحة بن الجلاح الأوسيّ ومحمّد بن مسلمة الأنصاريّ ومحمّد بن البراء البكريّ ومحمّد بن سفيان بن مجاشع ومحمّد بن حمدان الجعفيّ ومحمّد بن خزاعة السلميّ فهم ستّة لا سابع لهم وحمى اللّه كلّ من سمّى به أن يدّعي النبوّة أو يدّعيها له أحد أو يظهر عليه سبب يشكّك أحداً في أمره من الموسومين الستّة حتّى ظهر ﷺ.

ومن أسمائه ﷺ المقفّي: بتشديد الفاء وكسرها لأنّه أتى بعد جميع

١ـ جامع البيان، ج٩، ص٨٨.

٢ـ سورة الزمر: ٧٥.

٣ـ سورة يونس: ١٠.

الأنبياء وفي قفاهم أو قفا آثارهم وأتبعهم في الآثار من الأصول. ومنها نبيّ التوبة: لأنّه كثير الاستغفار أو لأنّ التوبة في امّته صارت أسهل وغيرهم يؤاخذ في الدنيا وفي الآخرة وامّته لا يؤاخذ لا في الدنيا بعد التوبة ولا في الآخرة.

ومنها نبيّ الرحمة: لأنّه كان سبب الرحمة وهو سبب الوجود لقوله تعالى: لولاك لما خلقت الأفلاك. ولأنّه هو الأمان الأعظم ما عاش ومادامت سنّته باقية على وجه الزمان قال اللّه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

ومنها نبيّ الملحمة: أي: الحرب لأنّه بعث بالقتال. فإن قلت: المبعوث بالقتال كيف يكون رحمة؟ فالجواب أنّ أمم الأنبياء كانوا يهلكون في الدنيا إذا لم يؤمنوا بهم بعد المعجزات ويستأصلون ولكنّهﷺ بعث بالسيف لير تدعوا به عن الكفر ولا يستأصلوا ومنها الماحي وقد محا اللّه به الكفر. ومنها الحاشر: وهو الّذي يحشر الناس في دعوته وعهده من غير أن تنسخ. ومنها العاقب: وهو الّذي ليس بعده نبيّ فانقطعت النبوّة. ومنها الفاتح: لأنّ به فتح الإسلام. ومنها الكاف: قيل: معناه الّذي أرسل إلى الناس كافّة وليس هذا بصحيح لأنّ كافّة لا يتصرّف منه فيكون منه اسم فاعل وإنّما معناه الّذي كفّ الناس عن المعاصي والشرك. ومنها الرءوف والرحيم والشاهد والمبشّر والسراج المنير وطه ويس والمزمّل والمدثّر وعبد اللّه وقثم أي الجامع للخير. و«ن» إشارة إلى اسم النور والناصر والمتوكّل والمختار والمحمود والمصطفى والخاتم بفتح التاء أي: أحسن الأنبياء خلقاً وخلقاً كأنّه الخاتم الّذي يتجمّل به ولأجل كماله كان الخاتم الّذي يختم به الكتاب عند الفراغ منه وأمّا الخاتم بالكسر فمعناه آخر الأنبياء اسم فاعل من ختم. ومنها راكب الجمل سمّاه به

١ــ سورة الأنفال: ٣٣.

شعيا النبيّ كناية من أنّهﷺ عربيّ. ومنها صاحب الهراوة أي: العصا سمّاه به سطيح الكاهن قبل أن يلدﷺ. ومنها روح الحقّ سمّاه به عيسىعليه السلام في الإنجيل في بيانه وسمّاه أيضاً المنحنا بمعنى محمّد بالسريانيّة.

ومنها حمياطي بالعبرانيّة وبرقليطس بالروميّة بمعنى محمّد وماذ ماذ بمعنى طيّب طيّب وفارقليطا مقصوراً بمعنى أحمد وروي فارقلبط بالباء ومعناه الّذي يفرق بين الحقّ والباطل.

وقالﷺ: **«اسمي في التوراة أحيد لأنّي أحيد أمّتي عن النار واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الأوثان واسمي في الإنجيل أحمد وفي القرآن محمّد لأنّي محمود في أهل السماء والأرض»**[1].

أقول: وتخصيص الوارد بالخمسة أو الأربعة لا ينافي ما سواه وإذا اشتققت أسماءه من صفاته كثرت جداً.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: الرسول المبشّر به الّذي اسمه أحمد أي: بني إسرائيل والنصارى والمشركين ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ والمعجزات والقرآن ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ مبشّرين إليه أو إلى ما جاء به لأنّه قرئ ساحر مكان ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ الفرق بين الكذب والافتراء أنّ الافتراء افتعال الكذب من قول نفسه والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه ﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أنّ ذلك المفتري ﴿يُدۡعَىٰٓ﴾ من لسان الرسول ﴿إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ الّذي فيه نجاته أو يدعى إلى الاستسلام لأمر الرسول والانقياد لطاعته، أي: ومن أشدّ ظلماً ممّن اختلق الكذب على الله ونسب القرآن إلى السحر والرسول إلى الساحر مع أنّه يدعوه للإسلام الّذي به نجاته فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله بقوله للقرآن الّذي هو دعاء عباده إلى الحقّ:

١ـ تفسير القرطبي، ج١٨، ص٨٤، وانظر: بحار الأنوار، ج١٦، ص٩٣.

هذا سحر واللام في الكذب للعهد ومن الافتراء على اللّه الكذب في الإخبار عن النبيّ أو الإمام والكذب في الرؤيا والداعي في الحقيقة هو اللّه كما قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1] والرسول يدعو بأمره تعالى كما قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولا يرشدهم إلى طريق الجنّة بسبب إعراضهم عن الحقّ وعن متابعة الداعي.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ الإطفاء الإخماد يريدون إخماد حجّته النيّرة وكتابه ودينه واللام زائدة تأكيد المعنى الإرادة أو معنى الآية يريدون الافتراء ليطفئوا نور اللّه ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ وأقوالهم السخيفة وبمفترياتهم في كلامهم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ واللّه يتمّ حجّته وكتابه وينشره ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إتمامه إرغاماً لهم و«لو» في الآية بمعنى إن أي وإن كرهوا ذلك فإنّه تعالى يفعله لا محالة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمّداً صلى الله عليه وآله ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآن والمراد من الهدى ما به الاهتداء إلى الصراط المستقيم ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ والملّة الحنيفة الّتي اختارها لرسوله وللناس وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل عذاب الحريق ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليجعله بالحجّة ظاهراً عالياً على جميع الأديان.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ففي الآية السابقة أسند الإكراه إلى الكفّار لأنّه لمّا كان إتمام نوره من أجل النعم والكافر أيّ كافر كان من أصناف الكفر كفروا بهذه النعمة العظيمة فأسند الكراهة إليهم وفي هذه الآية الّتي أسند الكراهة إلى المشركين فإنّه قد ورد في مقابلة دين الحق الّذي معظم أركانه التوحيد وإبطال الشرك وكفّار مكّة كارهون له من أجل إنكارهم للتوحيد وإصرارهم على الشرك فالمناسب في الآية التعرّض لشكر هم فقال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

١ـ سورة يونس: ٢٥.

٢ـ سورة النحل: ١٢٥.

ولو قيل: إنّ دينه ما ظهر على جميع الأديان؟ فقد روى العيّاشيّ بالإسناد عن عمران بن ميثم عن عباية إنّه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**يظهر بعد ذلك هو الّذي نفسي بيده حتّى لا تبقى قرية إلّا وينادي فيها بشهادة أن لا إله إلّا الله بكرة وعشيّاً**»[1].

قال السهيليّ في كتاب «الأمالي» في بيان فائدة كون أبواب النار سبعة: وجدنا الأديان سبعة واحد للرحمن وستّة للشيطان فالّتي للشيطان اليهوديّة والنصرانيّة والصابئيّة وعبادة الأوثان والمجوسيّة وامم لا شرع لهم ولا يقولون بنبوّة وهم الدهريّة والصنف السابع هو من أهل التوحيد لكنّهم المصرّون على المعاصي والكبائر من غير استغفار وتوبة فإنّ فيهم من ينفذ فيه الوعيد والنار ومنهم من يعفو الله عنه فهؤلاء كلّهم صنف واحد غير أنّه لا يحتم عليهم بالخلود فهؤلاء سبعة أصناف ستّة منها مخلّدون إجماعاً والصنف السابع غير مخلّد ويخرجون بالشفاعة ووافق عدد الأبواب عدد الأصناف وتبيّنت الحكمة في ذكرها في القرآن لما فيها من التخويف والإرهاب.

وأمّا معنى الإشراك هو إثبات الشريك للّه تعالى في الألوهيّة سواء كانت بمعنى وجوب الوجود أو استحقاق العبادة لقوله في وصف المشركين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2] والكفر لا يخلو عن الشرك ويدلّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ﴾ وقد ثبت ضرورة أنّه تعالى لا يغفر كفر غير المشركين من اليهود والنصارى فيكون المراد في الآية: لا يغفر أن يكفر به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٤٦٤، وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣١٧، هما عن العياشي ولم أجده في العياشي.

٢ـ سورة العنكبوت: ٦١.

وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾
يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ
عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ
لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾ في صراط الإيمان هل اعلّمكم وأرشدكم وهل ترغبون في تجارة منجية من العذاب الأليم وهو الإيمان بالله وحده والجهاد في سبيل دينه بالمال والنفس؟ وصورة الكلام العرض والمراد الأمر على سبيل التلطّف في الاستدعاء فيكون العمل به سبباً لإنجاء الله إيّاكم من العذاب وعكسه عكسه لأنّ من التجارة ما تكون لصاحبها سبب العذاب كجمع المال ومنع حقوق الله منه فهي تجارة خاسرة موجبة للنكال وأضعف أفراد الجهاد في الدين مع الباطل بالألسنة، وكان حسّان مدّاح النبيّ يجلس على المنبر ويهجو المشركين بإذن رسول الله[1]. والتاجر الّذي يبيع ويشتري وليس في كلام العرب تاء بعدها جيم غير هذه اللفظة وأمّا كلمة «تجاه» فأصلها وجاه و«تجوب» تاؤه تاء المضارعة وهي قبيلة من حمير.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنّه خير لكم وتعقلون هذا الأمر فعل العاقل تبديل الفاني بالباقي وبعد نزول هذه الآية جاء رجل بناقة مخطومة وقال: هذه في سبيل الله فقال النبيّ: **«لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلّها مخطومة».**

١ـ صحيح ابن خزيمة، ج٢، ص٢٧٥.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ في الدنيا ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٖ﴾ لكلّ واحد منكم جنّة ولا بعد من لطفه أن يكون لكلّ واحد جنّات ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ من تحت أشجارها وتحت قصورها وغرفها الأنهار الأربعة من اللبن والعسل والخمر والماء. ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ ومنازل نزهة كائنة ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ أي: إقامة وخلود بحيث لا يخرج منها من دخلها والمسكن يستعمل في الاستيطان وسئل رسول اللهﷺ عن هذه المساكن الطيّبة فقال: **«قصر من لؤلؤ في الجنّة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كلّ دار سبعون بيعاً من زمرّدة خضراء في كلّ بيت سبعون وصيفاً ووصيفة»**[1]. والمرويّ عن ابن عبّاس أنّ الجنّات سبع جنّة الفردوس وجنّة عدن وجنّة النعيم ودار الخلد وهي جنّة الخلد وجنّة المأوى ودار السلام وعلّيون وكلّ واحدة منها لها مراتب. وروي أيضاً أنّها ثمان: دار الجلال ودار القرار ودار السلام وجنّة عدن وجنّة المأوى وجنّة الخلد وجنّة الفردوس وجنّة النعيم.

وقيل: الجنّات أربع كما قال الله: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[2] ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[3] فذلك جنان أربع إحداهن جنّة الخلد والثانية جنّة الفردوس والثالثة جنّة المأوى والرابعة جنّة عدن وأبوابها ثمانية وخازن الجنّة يقال له «رضوان» وقد ألبسه الله الرأفة والرحمة كما أنّ خازن النار يقال له «مالك» قد ألبسه الله الغضب والهيبة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنّة هو الفوز الّذي لا فوز وراءه والفوز يكون بمعنى النجاة من المكروه وبمعنى الظفر

١ـ بحار الأنوار، ج٨، ص١٤٩، وتفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣١٨، وتفسير مجمع البيان، ج٩، ص٤٦٦.

٢ـ سورة الرحمن: ٤٦.

٣ـ سورة الرحمن: ٦٢.

بالبغية والأوّل يحصل بالمغفرة والثاني بإدخال الجنّة.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: ولكم إلى هذه النعمة العظيمة نعمة اخرى مبتدء حذف خبره عطف على يغفر لكم على المعنى تحبّونها وترغبون فيها تعريض بأنّهم يؤثرون العاجل على الآجل. ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ بدل أو بيان للأخرى أي: نصر على عدوّكم الكفّار أو قريش ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: فتح مكّة أو فتح غيرها ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يا أكمل الرسل بأنواع النعمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ و«من» يحتمل أن يكون استفهاماً حقيقة ليعلم وجود الأنصار ويحتمل العرض والحثّ على النصرة والمعنى: من جندي إلى نصرة دين الله؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ فحاصل الآية مخاطباً للمؤمنين: كونوا أنصار الله كما كان الحواريّون أنصاره حين قال لهم عيسى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أو قل لهم: كونوا كما قال عيسى للحواريّين والحواريّون أصفياء عيسى من الحور وهو البياض الخالص وهم أوّل من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً قال الله لعيسى: إذا دخلت القرية فأت النهر الّذي عليه القصّارون فاسألهم النصرة فأتاهم عيسى وقال: من أنصاري إلى الله؟ فقالوا: نحن ننصرك فصدّقوه ونصروه وقيل: كانوا صيّادين أو كانوا يطهّرون نفوس الناس بإفادتهم العلم والدين وإنّما قيل لهم إنّهم قصّارون على التمثيل والتشبيه أو قيل لهم: إنّهم صيّادون لاصطيادهم نفوس الناس إلى الحقّ. ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ آمنوا بعيسى وأطاعوه ﴿وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ الطائفة جماعة أقلّ من الفرقة ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قوّينا مؤمني قومه بالحجّة أو بالسيف وذلك بعد رفع عيسى ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: على الّذين كفروا وفي لفظ العدوّ إيذان بأنّ الكافر لا زال كان عدوّاً للمؤمن. ولمّا رفع عيسى تفرّق القوم

ثلاث فرق فرقة قالوا: كان ابن اللّه فرفعه اللّه إليه وفرقة قالوا: كان عبد اللّه ورسوله فرفعه اللّه وهم المؤمنون واتّبع كلّ فرقة منهم طائفة من الناس فاقتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتّى بعث اللّه محمّدا فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾.

﴿فَأَصْبَحُوا﴾ صاروا ﴿ظَاهِرِينَ﴾ غالبين عالين يقال: ظهرت على الحائط علوته. وسبقوهم أيضاً بالحجّة لأنّهم قالوا لهم: ألستم تعلمون أنّ عيسى عليه السلام كان ينام واللّه تعالى لا ينام وإنّه يأكل ويشرب واللّه منزّه عن ذلك وقيل: المراد من قوله: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بمحمّد وكفرت طائفة به صلى الله عليه وآله وصدّقوا وكذّبوا فأصبحت المؤمنة عالية على الكافرة بالحجّة. قال أمير المؤمنين: **«أيها الناس دينكم فإنّ السيّئة فيه أحسن من الحسنة في غيره لأنّ السيّئة فيه يغفر والحسنة في غيره لا يقبل»**[1].

تمّت السورة بعون اللّه.

١ـ الكافي، ج٢، ص٤٦٤، والأمالي، للشيخ الصدوق، ٤٣٢، وبحار الأنوار، ج٦٥، ص٣١١.

سُورَةُ الجُمُعَة

مدنية. عن أبيّ ابن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الجمعة أعطي عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعدد من لم يأت في أمصار المسلمين»[1].

وعن منصور بن فخام عن الصادق عليه السلام قال: «من الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرء في ليلة الجمعة بالجمعة وسبّح اسم ربّك الأعلى وفي صلاة الظهر بالجمعة والمنافقين فإذا فعل فكأنّما يعمل عمل رسول الله ﷺ وكان ثوابه الجنّة»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ
الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا
يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾

١ـ مستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٥٣، ومجمع البيان، ج١٠، ص٥.

٢ـ مجمع البيان، ج١٠، ص٥، ونورالثقلين، ج٥، ص٣٢٠.

﴿يُسَبِّحُ﴾ جميعاً من حيّ وجامد تسبيحات مستمرّة فما في السماوات هي البدائع العلويّة وما في الأرض هي الكوائن السفليّة فللكلّ نسبة إلى اللّه بالحياة والوجود ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ المنزّه من كلّ نقص ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب على ما أمر، أو ﴿الْحَكِيمِ﴾ في أفعاله.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ والأمّيّ من لا يكتب ولا يقرء كأنّه بقي على ما تعلّمه من أمّة، منسوب إلى قبائل كثيرة. وسمّي هو بالأُمّيّ لأنّه لم يكتب ولم يقرء لاستغنائه بضمان اللّه له في الفضل والحفظ عن العلم بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ أو لنسبته إلى امّ القرى مكّة وليس المراد أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يعرف القراءة والكتابة ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يقرء ويكتب باثنين وسبعين لساناً كما في الحديث عن محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام قال الراوي: سألته يا بن رسول اللّه لم سمّي النبيّ أُمّيّاً؟ فقال: «ما يقول الناس؟» قلت: يزعمون أنّه لم يحسن أن يكتب ويقرأ. فقال: «كذبوا، عليهم لعنة الله أنّى ذلك والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ إلى أن قال: «﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فكيف يعلّمهم وهو لا يعرف أن يقرأ؟ وقد يعرف ويكتب باثنين وسبعين لغة. الحديث»[١].

أقول: ولو صحّ أنّه صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يقرء ولا يكتب فهذه فضيلة له لأنّه لا يحتاج إلى القراءة وتحصيل الكتابة من كان القلم الأعلى في نظره واللوح المحفوظ مصحفه ومنظره.

قيل: بدئت الكتابة في العرب بالطائف وتعلّمها ثقيف وأهل الطائف أخذوها من الحيرة وأهل الحيرة أخذوا من أهل الأنبار وهي مدينة قديمة على الفرات بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ولم يكن في أصحاب الرسول كاتب غير حنظلة غسيل الملائكة وعليّ عليه السلام ثمّ ظهر الخطّ في الصحابة بعد

١ـ علل الشرايع، ج١، ص١٢٤، وتفسير الصافي، ج٥، ص١٧٢.

في معاوية وزيد بن ثابت وكانا يكتبان للنبي ﷺ.

﴿رَسُولًا﴾ كائنا ﴿مِّنْهُمْ﴾ من جملتهم ونسبهم عربياً أمّياً مثلهم وفي كتاب شعيا النبي عليه السلام مذكور: «إنّي أبعث أمّياً في الأمّيين وأختم به النبيين».

واعلم أنّ البعث في الأمّيين لا ينافي عموم دعوته على الناس كافّة لأنّ التخصيص بالذكر لا مفهوم له وله سلّم فلا يعارض المنطوق مثل قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ على أنه في الكلام فرق بين البعث في الأمّيين والبعث إلى الأمّيين فبطل احتجاج أهل الكتاب بهذه الآيه. ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: القرآن مع كونه امّيّا مثلهم لم يعهد منه قراءة وتعلّم والفرق بين التلاوة والقراءة أنّ التلاوة وقراءة القرآن متتابعة كالأوراد الموظّفة والقراءة أعمّ لأنّها جمع الحروف باللفظ لا اتّباعها. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ صفة اخرى لرسولا أي: يحملهم على ما يصيرون أزكياء من خبائث الأعمال والعقائد والمزكّي في الحقيقة هو الله كما قال[1]: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ إلّا أنّ الإنسان الكامل مظهر الصفات الإلهيّة. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ صفة أخرى لرسولاً يعلّمهم القرآن والسنّة وهي ما شرع الله لعباده والمراد من الحكمة الفقه والعظة والأحكام الشريعة الحكميّة والحكميّة. ونعم ما قال صاحب القصيدة البرديّة:

كفاك بالعلم في الأمّيّ معجزة   في الجاهليّة والتأديب في اليتم[2]

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وإن مخفّفة عن المثقّلة وليست شرطيّة ولا نافية واللّام هي الفارقة بينها وبينهما أي وإنّ الشأن كان الأمّيّون من قبل بعثته لفي ضلال ظاهر وهو الشرك وخبث عادات الجاهليّة ونسبة الضلال إلى الجميع من باب التغليب وإلّا فقد كان فيهم مهتدون مثل ورقة بن نوفل وزيد بن نفيل

١ـ سورة النساء: ٤٨.

٢ـ تفسيرالآلوسي، ج٢٨، ص٩٣.

وقسّ بن ساعدة وغيرهم أو أنّ نسبة الضلالة إلى الجميع صحيحة لأنّ هؤلاء المذكورين وأمثالهم أيضاً كانوا في الضلالة من الأحكام، النهاية أنهم ما كانوا مشركين فكونهم مهتدين من وجه لا ينافي كونهم ضالّين من وجه آخر.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: ويعلّم قوماً آخرين من الأمّيّين والمؤمنين يأتون بعد ذلك ولمّا يأتوا بعد وهم كلّ من بعد الصحابة إلى يوم القيامة لأنّ شريعته تلزمهم وإن لم يلحقوا بزمانه وقيل: هم الأعاجم لأنّهﷺ مبعوث إلى من شاهده وإلى كلّ من لم يشاهده من العرب والعجم، روي ذلك عن الباقر، وروي أنّ النبيّﷺ قرأ هذه الآية فقيل له: من هؤلاء فوضع يده على كتف سلمان وقال: «لو كان الإيمان في الثريّا لنالته رجال من هؤلاء».(١) فعلى هذا فإنّما قال: «منهم» لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم فإنّ المسلمين يد واحدة وأمّة واحدة على من سواهم وإن اختلف أجناسهم ومن لم يؤمن بالنبيّ فانّهم ليسوا بمن عناهم الله بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ وإن كانﷺ مبعوثاً إليهم وآخرين جمع آخر بمعنى غير وهو عطف إمّا على الأمّيّين الّذين على عهده أو على المنصوب في يعلّمهم ويعلّم آخرين منهم أي من الّذين يأتون بعد هؤلاء الّذين تعلّموا منه فهم يتعلّمون مثل هؤلاء فيكونون من جنسهم ومنفيّ كلمة ﴿لَمَّا﴾ مستمرّ النفي إلى الحال ومتوقّع الثبوت بخلاف منفيّ «لم». ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب والمبالغ في العزّة ولذلك مكّن سبحانه رجلاً أمّيّاً وذلك الأمر العظيم من الرياسة على الملك والجنّ والبشر ﴿الْحَكِيمُ﴾ في رعاية المصلحة ولذلك اصطفاه من بين كافّة البشر.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى هذا الأمر العظيم فضله وإحسانه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ تفضيلاً ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الّذي يستحقر دونه نعم الدنيا بل

١ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص٧، وتفسير الصافي، ج ٥، ص١٧٣، ونور الثقلين، ج ٥، ص٣٢٣.

نعيم الآخرة على الخلق بإرسال محمّد إليهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي: علموها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ولم يعملوا بما في تضاعيفها من آياتها الّتي من جملتها الآيات الناطقة بنبوّة محمّدﷺ واقتنعوا بمجرّد قراءتها والمراد اليهود ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ والكاف زائدة والحمار معروف (وفي حياة الحيوان إن اتّخذ خاتم من حافر الحمار الأهليّ ولبسه المصروع لم يصرع) يعبّر به عن الجاهل. ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي: كتبا من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها والأسفار جمع سفر بكسر السين وهو الكتاب مثل شبر وأشبار وإنّما سمّي الكتاب بسفر لأنّه يسفر ويكشف عن الحقائق وعلى هذا فمن تلا القرآن ولم يعمل به وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه كان هذا المثل لاحقاً به وإن حفظه وهو طالب لمعناه والعمل به فليس من أهل المثل. ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بئس مثلاً مثل القوم المكذّبين والتمييز محذوف والفاعل المفسّر له مستتر والمخصوص بالذمّ اليهود ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الواضعين التكذيب موضع التصديق والظالمين أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد باختيار الضلالة على الهداية.

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ من هاد يهود إذا اختار اليهوديّة فإنّ المهاداة الممايلة فإنّهم مالوا عن الحقّ وقال بعضهم: يهود من قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بيّنا وكان بالأوّل اسم مدح كما أنّ النصارى اسم مدح لقولهم: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ والزعم هو القول بلا دليل وأكثر ما يستعمل فيما يشكّ فيه وقيل: الزعم حكاية قول يكون مظنّة للكذب ويقال للمتكفّل والرئيس: زعيم ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ جمع وليّ بمعنى الحبيب ﴿مِن دُونِ النَّاسِ﴾ صفة أولياء أي: من دون الأمّيّين وغيرهم ممّن ليس من بني إسرائيل من العرب والعجم يريد بذلك قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ويدّعون أنّ الدار الآخرة لهم عند الله خالصة وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ فأمر الله رسوله بأن يقول لهم إظهارا لكذبهم: إن زعمتم ذلك ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ أي: تمنّوا من الله أن يميتكم من دار البليّة إلى دار الراحة والكرامة والفرق بين التمنّي والاشتهاء أنّ التمنّي أعمّ من الاشتهاء لأنّه يكون في الممتنعات دون الاشتهاء. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن كنتم صادقين وواثقين فتمنّوا الموت والمحبّ يكون مشتاقاً إلى لقاء محبوبه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ ابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه»[1].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ إخبار بما سيكون منهم وأبدا ظرف بمعنى الزمان المتطاول والمراد به ماداموا في الدنيا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: يأبون التمنّي بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي الموجبة للنار ولمّا كانت اليد بين جوارح الإنسان مناط عامّة أفعاله عبّر بها تارة عن النفس واخرى عن القدرة والأيدي هنا بمعنى الذوات استعملت فيها لزيادة احتياجها إليها فكأنّها هي.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم في كلّ أمورهم أي عليم بهم وبظلمهم وفنون ظلمهم ووقع الأمر كما ذكر فلم يتمنّ منهم أحد موته وفي الحديث لا يتمنّنّ أحدكم الموت إمّا محسناً فإن يعش يزدد خيراً فهو خير له وإمّا مسيئاً فلعلّه أن يستعتب أي يسترضى

١ـ نهج البلاغة، ج ١، ص ٤١، وعوالي اللئالي، ج ١، ص ٣٨٦، وبحار الأنوار، ج ٢٨، ص ٢٣٤.

ربّه بالتوبة والطاعة روي أنه ﷺ قال في حقّ اليهود: «**لو تمنّوا الموت لغصّ كلّ إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودي**»[١].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون أن تمنّوه مخافة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ البتّة من غير صارف يلويه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بعد الموت الاضطراريّ ترجعون ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الّذي لا تخفى عليه أفعالكم وأحوالكم الظاهرة والباطنة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي ويجازيكم بها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

النداء رفع الصوت ونداء الصلاة مخصوص في الشرع بالألفاظ المعروفة والمراد بالصلاة صلاة الجمعة ودلّ عليه يوم الجمعة.

أي: إذا أذن لصلاة الجمعة وذلك إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة وذلك لأنّه لم يكن على عهد رسول الله نداء غيره وكان لرسول الله مؤذّن واحد هو بلال فإذا كانﷺ على المنبر أذن على باب المسجد فإذا نزل أقام الصلاة[٢].

﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بضمّ الميم وهو الأصل والسكون تخفيفاً منه وإنّما سمّي جمعة. لاجتماع الناس فيه للصلاة وأوّل من سمّى هذا اليوم جمعة

١ـ جوامع الجامع، ج ١، ص ١٣٠، والكشاف، ج ١، ص٢٩٩، وبحار الأنوار، ج٦، ص١٢٥.

٢ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص١٣، فقه القرآن، للقطب الراوندي، ج ١، ص١٣٢.

كعب بن لؤيّ لصغير لأي سمّاه بها لاجتماع قريش فيه إليه وكانت العرب قبل ذلك تسمّيه العروبة.

وقيل: إنّ الأنصار قبل الهجرة قالوا لليهود: يوم تجمعون فيه في كلّ سبعة وللنصارى كذلك فهلمّوا نجعل لنا يوماً نجمع فيه فنذكر اللّه ونصلّي فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلّى بهم ركعتين فسمّوه الجمعة ثمّ ذبح لهم شاة فأكلوا فدارت عادة الإطعام بعد الصلاة إلى يومنا هذا فأنزل آية الجمعة فهي أوّل جمعة في الإسلام.

وأمّا أوّل جمعة جمعها رسول اللّه فهي أنّه لمّا قدم المدينة مهاجراً نزل قبائل بني عوف يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل حين امتدّ الضحى ومن تلك السنة يعدّ التاريخ الإسلاميّ فأقام بها يوم الاثنين والثلثاء والأربعاء والخميس وأسّ مسجدهم ثمّ خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف قد اتّخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً فخطب ﷺ وصلّى الجمعة وهي أوّل خطبة خطبها بالمدينة وأوّلها: «الحمد لله وأستعينه». إلخ[1].

﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ السعي المشي السريع دون العدو أي: اقصدوا إلى الخطبة والصلاة لاشتمال كلّ منهما على ذكر اللّه وفي الحديث إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضّة وأقلام من ذهب يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم فإذا خرج النبيّ أو الإمام طويت الصحائف واجتمعوا للخطبة والمهاجر إلى الصلاة كالمهدي بدنة ثمّ الّذي يليه كالمهدي بقرة ثمّ الّذي يليه كالمهدي شاة حتّى ذكر الدجاجة

١ـ صلاة الجمعة، [محمدمقيم اليزدي، م١٠٨٤ هـ]ص٧٤، ومستدرك الوسائل، ج٦، ص٣٤.

والبيضة[1] وهذه المثوبات والأحكام هل هو خاصّ من زمان الإمام وحضوره أو هذا الحكم جار في زمن الغيبة فيه بيان ليس هنا موضع بسطه. ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أي: اتركوا المعاملة قيل: إنّ البيع هنا مجاز عن المعاملة مطلقاً والنهي عن البيع على أيّ صورة في المعنى يتضمّن النهي عن الشراء لأنّهما متضايفان لا يعقلان إلّا معافا كتفي بذكر أحدهما عن الآخر. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ما أمرتكم من حضور الجمعة واستماع الذكر وأداء الفريضة وترك البيع أنفع لكم عاقبة ﴿إِن كُنتُمْ﴾ عالمين بمنافع أموركم ومصالح أنفسكم وفي الآية دلالة على وجوب الجمعة وتحريم امور مانعة عن الحضور، وفيها دلالة على أنّ الخطاب للاحتراز لأنّ العبد لا يملك البيع وعلى اختصاص الجمعة بمكان ولذلك أوجب السعي إليه وفرض الجمعة لازم جميع المكلّفين إلّا أصحاب الأعذار من السفر أو المرض أو العمى أو العرج أو أن يكون امرأة أو شيخاً همّا لا حراك به أو عبداً أو يكون على رأس أكثر من فرسخين من الجامع وعند حصول هذه الشرائط لا يجب إلّا عند حضور السلطان العادل أو من نصبه السلطان للصلاة والعدد عند أهل البيت صلوات الله عليهم يتكامل بسبعة وقيل: ينعقد بثلاثة سوى الإمام عن أبي حنيفة وقيل: ينعقد بأربعين رجلاً أحراراً بالغين مقيمين عند الشافعيّ وقيل: ينعقد باثنين سوى الإمام وبالجملة الاختلاف بين الفقهاء في مسائل الجمعة كثير من أراد فموضعه كتب الفقه.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإذا قضيت الصلاة الّتي نوديتم لها واديّت وفرغ منها فانتشروا في الأرض لإقامة مصالحكم وتفرّقوا فيها لحوائجكم المشروعة والأمر أمر الرخصة لا أمر العزيمة. ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ واطلبوا لأنفسكم وأهليكم الرزق الحلال. قيل: إنّ هذا الأمر

١ـ مسند أحمد، ج٢، ص٢٥٩، وانظر: كنزالعمال، ج٧، ص٧٣٨، وسنن الدارمي، ج١، ص٣٦٢.

للإطلاق بعد الحظر وهو الإباحة كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[١] وقال سعيد بن جبير: إنّه للندب وقال: إذا انصرفت من الجمعة فساوم بشيء وإن لم تشتره وقال ابن عبّاس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا إنّما هو عيادة المرضى وزيارة أخ في الله وحضور الجنائز وطلب العلم وأمثالها. ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالجنان واللسان ﴿كَثِيرًا﴾ ذكراً كثيراً وزماناً كثيراً ولا تخصّوا ذكره تعالى بالصلاة وقيل: المراد من الذكر هنا الفكر كما قال: «فكر ساعة خير من عبادة سنة».[٢] وقيل: معناه اذكروا الله في تجاراتكم وأسواقكم كما روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «من ذكر الله في السوق مخلصا عند غفلة الناس وشغلهم بما فيه كتب له ألف حسنة ويغفر الله له يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر»[٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لتفلحوا وتفوزوا بثواب النعيم وصحّ الحديث عن أبي ذرّ عن رسول الله قال: «من اغتسل يوم الجمعة فأحسن غسله ولبس صالح ثيابه ومسّ من طيب بيته أو دهنه ثمّ لم يفرّق بين اثنين غفر الله له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيّام بعدها». أورده البخاريّ في الصحيح[٤]. وروى سلمان التيميّ عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ لله تعالى في كلّ جمعة ستّمائة ألف عتيق من النار كلّهم قد استوجب النار».[٥].

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ فأخبر سبحانه عن أحوال أهل الدنيا أنّهم قابلوا أكرم الكرم بألأم اللؤم فقال: وإذا رأوا بتجارة المراد تجارة دحية الكلبيّ قبل أن يسلم روي أنّ دحية بن خليفة الكلبيّ قدم المدينة بتجارة من الشام وكان

١ـ سورة المائدة: ٢.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ١٨٣، وبحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٧، وتفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ١٤.

٣ـ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١١٩٠، وعدة الداعي، ص ٢٤٢، وتفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ١٥.

٤ـ صحيح البخاري، ج ١، ص ٢١٨، وانظر: كنز العمال، ج ٧، ص ٧٦١.

٥ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ١٥، ونور الثقلين، ج ٥، ص ٣٢٩.

بالمدينة مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما يحتاج إليه من برّ ودقيق وزيت وغيرها والنبيّ يخطب يوم الجمعة فلمّا علم أهل المسجد ذلك قاموا إليه خشية أن يسبقوا في الشراء فما بقي إلّا ثمانية أو أحد عشر أو أربعون فقال ﷺ: **«والّذي نفس محمّد بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»**[1].

﴿أَوْ لَهْوًا﴾ والمراد الطبل وما يشبهه وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبول والدفوف والصفيق وهو المراد من اللهو في الآية ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ وتفرّقوا وانتشروا إلى التجارة واللهو. ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ حال كونك قائماً على المنبر عن جابر بن عبد اللّه قال: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس[2] ومن ثمّة كانت السنّة في الخطبة ذلك والخطبة مشتملة على التوحيد والحمد والتصلية على النبيّ والنصيحة للمسلمين والدعاء لهم.

﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ﴾ واستماعه ﴿وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ ونفعها ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنّه موجد الأرزاق وفي قوله: خير من اللهو والتجارة وقوله: خير الرازقين من قبيل الغرض والتقدير إذا لا خيرة في اللهو ولا رازق إلّا اللّه فيكون إن وجد في اللهو خيرة وإن وجد رازقون غير اللّه واللّه خيرهم.

قال في «الأحياء»: يستحبّ أن تقول بعد صلاة الجمعة: اللهمّ يا غنيٌّ يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود، أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمّن سواك «فيقال: من دوام على هذا الدعاء أغناه الله عن خلقه ورزقه

١ـ إعانةالطالبين، ج٢، ص٧٥، وتخريج الاحاديث والاثار، ج٤، ص٢٦.

٢ـ مسندزيدبن علي، ص١٤٤، والسنن الكبرى، ج٣، ص١٩٦.

من حيث لا يحتسب وفي الحديث: من قال يوم الجمعة اللهمّ أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمّن سواك سبعين مرّة لم تمرّ به جمعتان حتّى يغنيه الله، عن أنس بن مالك»[1].

تمّت السورة بعون اللّه.

١ـ إعانة الطالبين، ج ٢، ص١٠٦.

سُورَةُ المنافقون

مدنية. عن النبي ﷺ: «من قرأها بريء من النفاق»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن
يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ
فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ
عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

النفاق إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب وبعبارة اخرى الدخول في الشرع من باب والخروج منه من باب مأخوذ من النافقاء إحدى جحر اليربوع والضبّ يكتمها ويظهر غيرها فإذا أتي من قبل القاصعاء وهو

١ـ مجمع البيان، ج١٠، ص١٦.

الّذي يدخل منه ضرب النافقاء برأسه فانتفق، والنفق هو السرب في الأرض النافذ.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ وحضروا مجلسك ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ﴾ مؤكّدين كلامهم بأنّك ﴿لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ وجواب إذا محذوف تقديره فاحذرهم والشهادة قول صادر عن علم حصل بشهادة بصر أو بصيرة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي: واللّه يشهد إنّك لرسوله وكفى به شهيدا وكلّما جاء لفظة إنّ بعد العلم فهي مفتوحة إلّا إذا دخلت لام الابتداء على خبرها فحينئذ تكون مكسورة وذلك لأنّ اللام لتأكيد معنى الجملة ولا جملة إلّا في صورة المكسورة. ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: إنّهم كاذبون والظاهر في موضع الضمير إشعارا لذمّهم.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي: المنافقون ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الفاجرة ﴿جُنَّةً﴾ أي: ترساً ووقاية عمّا يتوجّه إليهم من المؤاخذة بالقتل وغير ذلك والمعنى من اتّخاذ الأيمان جنّة إعدادهم وتهيّئهم لها إلى وقت الحاجة ليخلصوا بها من المؤاخذة. ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فمنعوا وصرفوا عن سبيل الإسلام من أراد الدخول فيه بقولهم: إنّهﷺ ليس برسول ومنعوا من أراد الإنفاق في سبيله ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: ساء الشيء الّذي كانوا يعلمونه من الصدّ والنفاق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ أي: كونهم أسوأ الناس عملا بسبب أنّهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ ونطقوا بكلمة الشهادة ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ وظهر كفرهم من قولهم: إن كان ما يقوله محمّد حقّاً فنحن حمير ويجوز أن يراد بهذه الآية أهل الردّة منهم كما قال الزمخشريّ في «الكشّاف».

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ معاقبة على سوء أفعالهم وليس لهم أن يقولوا: إنّ اللّه ختم على قلوبنا فكيف نؤمن؟ لأنّه تعالى خلّاهم واختيارهم فصار ذلك

طبعا على قلوبهم وهو إلفهم إلى ما اعتادوه من الكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يعلمون الحقّ من حيث إنّهم لا يتفكّرون حتّى يميّزوا بين الحقّ والباطل.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ والمراد الرؤية البصريّة ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ ويروقك منظرهم لصباحة وجوههم والعجيب هو الّذي يعظم في النفس أمره لغرابته ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: ألسنتهم ذلقة لفصاحتهم وحلاوة كلامهم وكان عبد اللّه بن ابيّ صبيحاً جسمياً يحضر مجلس رسول اللّه في نفر من أمثاله وهم رؤساء المدينة والّذين مع رسول اللّه من أصحابه يعجبون بهياكلهم ويسمعون كلامهم فإنّ الفصاحة وحسن المنظر داعية إلى الميل غالباً. قال بعضهم:

يــدلّ علــى معروفــة حســن وجهــه

ومــا زال حســن الوجــه إحــدى الشــواهد[1]

روي عن بعض الحكماء إنّه رأى غلاماً حسناً وجهه واستنطقه لظنّه ذكاء فطنته فما وجد عنده معنى فقال: ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ خبر مبتدء محذوف أي: هم كالخشب بضمّتين جمع خشبة مثل أكم وأكمة والخشب ما غلظ من العيدان كأنّها أسندت إلى موضع شبّههم سبحانه في جلوسهم مجلس رسول اللّه ومستندين فيه بأخشاب منصوبة مسنّدة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن الخير والانتفاع فكما أنّ مثل هذا الخشب لا نفع فيه فكذا هم لا نفع فيهم وكذا قوله ﷺ: «إنّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة على أنّ الكمال والنقصان بالأصغرين: اللسان والقلب لا بالأكبرين: الرأس والجلد»[2].

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ يظنّون كلّ صوت ارتفع واقعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا

١ـ فيض القدير، ج ١، ص ٦٩٠، وكشف الخفاء، ج ١، ص ١٣٧.

٢ـ صحيح البخاري، ج ٥، ص ٢٣٦، وتفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٩٢.

نادى مناد في المدينة أو في العسكر لمصلحة أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالّة بين الناس ظنّوه إيقاعاً بهم لجبنهم واستقرار الرعب في قلوبهم والخائن خائف وفي الآية تخفيف لقدرهم. قال الشاعر:

«إذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً»

وكانوا على وجل من أن ينزّل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم. ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ أي: هم العدوّ لك يا محمّد وللمؤمنين في الحقيقة فاحذرهم من أن تأمنهم على سرك ولا تثق بهم فإنّهم يفشون سرك والعدوّ لكونه بزنة المصادر يقع على الواحد والجمع. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم ولعنهم سبحانه أو تعليم للمؤمنين بالبراءة منهم وهي كلمة ذمّ وتوبيخ بين الناس ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيب من حالهم أي: كيف يصرفون عن الحقّ من الأفك بفتح الهمزة بمعنى الصرف عن الشيء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ قيل: إنّه بعد نزول هذه الآيات قال بعض أصحاب ابن ابيّ: إنّ هذه الآيات نزلت فيك اذهب إلى رسول اللهﷺ حتّى يرضى عنك ويستغفر ربّه لك فقال اللعين: قال لي محمّد أن آمن فآمنت وقال: أدّ زكاة مالك فأدّيت ما بقي لي إلّا أن أسجده فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ أصله تعاليوا فاعلٌ بالقلب والحذف وإنّ واحد الماضي «تعالى» بإثبات الألف المقلوبة عن التاء المقلوبة عن الواو الواقعة رابعة وواحد الأمر تعال بحذفها وقفاً وفتح اللام وأصل معنى التعالي الارتفاع فإذا أمرت منه قلت: تعال وتعالوا ومعناه ارتفعوا ثمّ استعمل في كلّ داع يطلب المجيء، لما فيه حسن الأدب في الطلب أي: هلمّوا وائتوا ومن الأدب أن لا يقال: تعالى فلان لأنّه ممّا اشتهر به الله فتعالى الله الملك الحقّ.

﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ جواب الأمر أي: يدع الله لكم ويطلب منه

أن يغفر ذنوبكم ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: أمالوا وعطفوا رؤوسهم ووجوههم استكباراً ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ ويعرضون عن القائل والاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن هذا الأمر لغلبة الشيطنة وفي الحديث إذا رأيت الرجل لجوجاً معجباً برأيه فقد تمّت خسارته.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وكلمة سواء اسم بمعنى مستو خبر مقدّم وعليهم متعلّق به وما بعده من المعطوف عليه والمعطوف مبتدء بتأويل المصدر والأصل أ استغفرت فحذفت همزة الوصل الّتي هي ألف الاستفعال للتخفيف ومعنى الآية: يتساوى الاستغفار وعدمه لهم ولا يفيدهم. ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنّهم مبطنين الكفر وإن أظهروا الإسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الدّين إلى طريق الجنّة أخبر سبحانه نبيّه أنّهم يموتون على الكفر وقد كان النبيّ ﷺ يستغفر لهم رجاء أن يسلموا وفي الحقيقة استغفاره لهم طلب الهداية لهم لأنّه نبيّ الرحمة قيل: لمّا قال الله[1]: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قال: لأزيدنّ على السبعين فأنزل الله ﴿سَوَآءٌ﴾ إلخ، فعلم ﷺ أنّهم يموتون على الكفر فترك الاستغفار.

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

١ــ سورة التوبه: ٨٠.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾

المنافقون ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار، تعليل لعدم مغفرتهم ﴿لَا تُنفِقُواْ﴾ لا تعطوا النفقة الّتي يتعيّش بها ﴿عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعنون فقراء المهاجرين، وقولهم: رسول الله إمّا للهزؤ والتهكّم أو لكونه كاللقب له أو اشتهاره به فلو كانوا مقرّين برسالته لما صدر عنهم ما صدر أو تعبير اللّه له إجلالاً له ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ ويتفرّقوا عن حولهﷺ والانفضاض التفرّق والتشتّت وذلك لجهلهم عمّا في خزائن اللّه. ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وبيده تعالى خزائن الأرزاق ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم قيل: لمّا بلّغ موسىعليه السلام جعله كلّا على بني إسرائيل امتحاناً له فغلق موسى من تغيير الحال عليه وقال: يا ربّ أغنني عن بني إسرائيل فأوحي اللّه إليه أما ترضى أن افرغك لعبادتي وأجعل مؤونتك على غيرك فسكت ثمّ سأل ثانياً فأوحى اللّه إليه لا يليق بنبيّ أن يرى في الوجود شيئاً لغير سيّده فكلّ من رزق ربّك ولا منّة لأحد عليك فسكت، فاللّه تعالى يوصل الرزق إلى عبده بيد من يشاء من عباده مؤمنا كان أو كافرا فالأغنياء إن خصّوا بوجود الأرزاق فالفقراء خصّوا بشهود الرزّاق وخزائن اللّه في السماوات الغيوب وفي الأرض القلوب فما انفصل من الغيوب وقع على القلوب ويمكن أنّ الأرزاق السماويّة المعارف والعلوم المخزونة لخواصّ العباد القابلين لها وخزائن الأرزاق الأرضيّة هي المأكولات والمشروبات وأمثالها.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ روي أنّ النبيّﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسع من نواحي المدينة وقاتل

معهم وهزمهم وسبى منهم وازدحم على الماء جهجاه الغفاريّ وهو أجير لعمر بن الخطّاب وسنان الجهني المنافق حليف ابن أُبيّ المنافق واقتتلا فصرخ جهجاه بالمهاجرين وسنان الأنصار فلطم رجل يقال له «جعال» من فقراء المهاجرين سنانا فاشتكى سنان إلى ابن ابيّ فقال ابن أبيّ: ما صحبنا محمّدا إلّا لنلطم واللّه ما مثلنا ومثلهم إلّا كما قيل: سمّن كلبك يأكلك أما واللّه لئن رجعنا من هذا السفر إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ- وعنى بالأعزّ نفسه وبالأذلّ جانب المؤمنين- استناد القول إلى المنافقين مع أنّه هو القائل لرضاهم به ثمّ قال اللعين: ماذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم فلا تنفقوا عليهم حتّى ينفضّوا من حول محمّد. فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال له: أنت واللّه الذليل ومحمّد في عزّ الرحمن ثمّ أخبر زيد بذلك رسول اللّه فتغيّر وجه رسول اللّه ﷺ فقال ﷺ لابن أبيّ: **«أنت صاحب الكلام الّذي بلغني»**. قال: واللّه الّذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً وإنّ زيداً لكاذب[1] فقال الحاضرون: شيخنا وكبيرنا تصدّق عليه كلام غلام؟ وعسى أن يكون وهم فروي أنّ رسول اللّه قال لزيد: **«لعلّك غضبت عليه»**.

قال زيد: لا، قال: **«فعلّه أخطأك سمعك»**. قال لا: قال: **«فلعلّه شبّه عليك»**.

قال: لا، فلمّا نزلت الآية لحق رسول اللّه زيداً من خلفه ففرك أذنه وقال: **«وفت أذنك يا غلام إنّ الله صدقك وكذّب المنافقين»**[2].

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وللّه الغلبة والقوّة ولمن أعزّه من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم ومن كان في الدنيا عبداً محضاً كان في

١ـ الدرجات الرفيعة، ص٤٤٨.

٢ـ الكشاف، ج٤، ش ص٤٤٨، وتفسيرجوامع الجامع، ج٣، ص٥٦٩.

الآخرة ملكاً محضاً ومن كان في الدنيا يدّعي الملك لشيء ولو من جوارحه نقص من ملكه في الآخرة بقدر ما ادّعاه في الدنيا فلا أعزّ في الآخرة ممّن بلغ في الدنيا غاية الذلّ في جانب اللّه ولا أذلّ في الآخرة ممّن بلغ في الدنيا غاية العزّة في نفسه وعزّة اللّه العظمة والقدرة وعزّة الرسول النبوّة والشفاعة وعزّة المؤمنين الإيمان والعبوديّة والعزّة للّه بالأصالة والدوام وعزّة غيره منه تعالى فللّه العزّة جميعاً ولهذا قيل: من عظم الربّ في قلبه صغر الخلق في عينه وهذا معنى قوله: من تواضع لغنيّاً لأجل غناه ذهب ثلثا دينه[1] لأنّ التواضع يكون بثلاثة أشياء بلسانه وبدنه وقلبه فإذا تواضع له بلسانه وبدنه ولم يعتقد له العظمة بقلبه ذهب ثلثا دينه فإنّ اعتقدها بقلبه أيضاً ذهب كلّ دينه.

قال بعضهم: رأيت رجلاً في الطواف وبين يديه خدم يطردون النّاس ثمّ رأيته بعد ذلك على جسر بغداد يتكفّف ويسأل فحدقت النظر إليه لأتعرّفه هل هو ذلك الرجل أولاً فقال لي: مالك تطيل النظر إليّ؟ أنا ذاك إنّي تكبّرت في موضع يتواضع الناس فيه فوضعني في موضع يترفّع فيه الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم، ختم الآية الاولى بلا يفقهون والثانية بلا يعلمون للتفنّن المعتبر في البلاغة وتأكيد بيان جهلهم. روي أنّ عبد اللّه ابن أبيّ لمّا أراد أن يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبيّ وكان مخلصاً وسلّ سيفه ومنع أباه من الدخول وقال: لئن لم تقرّ للّه ولرسوله بالعزّ لأضربنّ عنقك فقال: ويحك أ فاعل أنت؟ قال نعم: فلمّا رأى منه الجدّ قال: أشهد أنّ العزّة للّه ولرسوله وللمؤمنين فقال ﷺ لابنه: «جزاك اللّه عن رسوله وعن المؤمنين خيراً»[2].

١ـ نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٠، وانظر: تحف العقول، ص ٢١٧.

٢ـ الكشاف، ج ٤، ص ١١٠.

ولمّا كان ﷺ يقرب المدينة هاجت ريح شديدة كادت يدفع الراكب. فقال ﷺ: **«مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة ولأجل ذلك عصفت الريح»**. فكان كما قال، مات في ذلك اليوم زيد بن رفاعة وكان كهفاً للمنافقين وكان من عظماء بني قينقاع[1] وكان ممّن أسلم ظاهراً وإلى ذلك أشار السبكيّ في تائيّته بقوله:

وقد عصفت ريح فأخبر أنهـا　　　لموت عظيم في اليهود بطيبـة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيماناً صادقاً ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها وبمصالحها عن الاشتغال بذكره تعالى من الصلاة وسائر العبادات المذكورة للمعبود قيل[2]: الذكر باللسان الصلاة وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل والتمجيد وتعلّم علم الدّين وتعليمها والذكر بالقلب الخوف. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ وتلهّى بالدنيا عن الدّين وعن الذكر ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران وفي الحديث: **«ما طلعت الشمس إلّا وبجنبيها ملكان يناديان ويسمعان الخلائق غير الثقلين يا أيها الناس هلمّوا إلى ربّكم، ما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثر وألهى، يقول الله سبحانه لهم: لا تشغلكم أموالكم وأولادكم من إطاعتي وعن أداء الفرائض في أوقاته»**[3].

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي: بعض ما أعطيناكم ادّخاراً للآخرة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بأن يشاهد دلائله ويعاين أماراته ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقّنه بحلوله: ﴿رَبِّ﴾ يا إلهي ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ هلّا أمهلتني للتحضيض وقيل: لا زائدة للتأكيد ولو للتمنّي بمعنى لو أخّرتني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: أمد قصير

١ـ انظر: مجمع البيان، ج١٠، ص٢٣، وبحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٨٤.

٢ـ تاريخ المدينة، ج١، ص٣٥٣.

٣ـ كنزالعمال، ج٦، ص٣٧٥، وجامع البيان، ج١١، ص١٣٦.

وساعة اخرى قليلة ويقول ردّني إلى الدنيا وأبقني زماناً قليلاً ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وهو بقطع الهمزة لأنها للمتكلّم وهمزته مقطوعة بتشديد الصاد لأنّ أصله أتصدّق وأُدغمت التاء في الصاد وينصب المضارع بأن مضمرة بعد الفاء في جواب التمنّي ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ بالجزم عطفاً على محلّ فأصّدّق لأنّ المعنى إن أخّرتني أصّدّق وأكن.

والفرق بين الصدقة والهديّة أنّ الصدقة للمحتاج بطريق الرحم والهديّة للتحبّب والمودّة ولذا كانﷺ يقبل الهديّة لا الصدقة فرضاً كانت أو نفلاً.

قال ابن عبّاس: الآية تشمل المؤمن والكافر ومن كان له مال تجب عليه الزكاة فلم يزكّه أو مال يبلغه إلى بيت اللّه الحرام فلم يحجّ يسأل الرجعة عند الموت، فسئل: وما توجب الزكاة؟ فقال: مائتا درهم فصاعدا قيل: ما توجب الحجّ؟ قال: الزاد والراحلة.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ ولن يمهلها مطيعة كانت أو عاصية صغيرة أو كبيرة إذا انتهى أمدها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ فسارعوا في الخيرات وبادروا لما هو آت قيل: حقيقة الإيمان غلبة حبّ اللّه على محبّة كلّ شيء وفي الحديث: **«لأن يتصدّق المرء في حياته بدرهم خير من أن يتصدّق بمائة عند موته»**.

قال رجل: يا رسول اللّه أيّ الصدقة أعظم أجراً؟ قالﷺ: **«أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى»**.[1] جعلنا اللّه من المنفقين مالاً ونفساً في مرضاته.

تمّت السورة بعون اللّه.

١ـ الرسالة السعدية، العلامةالحلّي، ص١٥٦، وعوالي اللئالي، ج ١، ص٣٦٨.

سورة التغابن

يختلف في كونها مكّيّة أو مدنيّة؛ قال ابن عبّاس: هي مكّيّة غير ثلاث آيات من آخرها نزلن بالمدينة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ إلى آخر السورة. عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة»[1] ابن أبي العلا عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة التغابن في فريضته كانت شفيعته يوم القيامة وشاهد عدل عند من يجيز شهادتها ثمّ لا تفارقه حتّى يدخل الجنّة»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

١ـ مستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٥٢، ومجمع البيان، ج١٠، ص٢٧.

٢ـ ثواب الأعمال، ص١١٨، وتفسير الصافي، ج٥، ص١٨٥.

المعنى: ينزّه الله ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الروحانيّات ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجسمانيّات عمّا لا يليق بجناب كبريائه تنزيها مستمراً والمراد إمّا تسبيح الإشارة الدالّة من وجود المسبّح على كمال تنزّهه تعالى عن جميع النقائص أو المراد من التسبيح هو أن يقول: سبحان الله وعلى المعنى الأوّل فظاهر لأنّه في الحقيقة لم يتحرك موجود إلّا بأمره وخلقه وتلك الحركة والموجوديّة إجابة داعي القدم لذاته تعالى وذلك محض التقديس.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الدائم الّذي لا يزول ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي: حمد الحامدين وهو الثناء بذكر الأوصاف الجميلة والأفعال الجزيلة وتقديم الجارّ والمجرور لتأكيد الاختصاص فان اللّام مشعر لمعنى الاختصاص وأمّا حمد غيره وملك غيره لا من حيث الحقيقة بل عارية ومجاز تسليط من حيث الصورة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنّ نسبة ذاته المفيضة للقدرة إلى الكلّ سواء فهو القادر على الإيجاد والإعدام والإسقام والإبراء والإعزاز والإذلال والتبييض والتسويد من الأمور الغير المتناهية وقدرة الله تصلح للخلق وقدرة العبد مع أنّها عارية تصلح للكسب فالعبد لا يوصف بالقدرة على الخلق والله لا يوصف بالقدرة على الكسب.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ خلقا بديعاً قابلا لجميع مبادئ الكمالات العلميّة والعمليّة ومع ذلك ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ فبعضكم مختار للكفر كاسب له حسبما يقتضيه سوء اختياره وميل نفسه مع أنّه كان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الإيجاد والخلق وما يتفرّع عليها من سائر النعم فما فعلتم ذلك مع تمام تمكّنكم منه بل تشعّبتم شعباً شعباً، والكفر والإيمان اكتساب العبد لقول النبيّ ﷺ: «**كلّ مولود يولد على الفطرة إلّا أنّ أبويه**

يهوّدانه أو ينصّرانه»[1]، وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2] فلكلّ واحد من الفريقين كسب واختيار، وهذا هو المذهب الحقّ خلاف ما يقول أهل السنّة ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ ومختار للإيمان ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مطلقاً ﴿بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة المتضمّنة للمصالح الدينيّة والدنيوية فإن قيل: ما وجه عدم ذكر العرش والكرسيّ في أمثال هذه المواضع مع عظم خلقهما؟ فالجواب إنّهما وإن كانا من السماء لأنّ السماء هو الفلك والفلك جسم شفّاف محيط بالعالم وهما أوسع الأفلاك إحاطة وعظمة إلّا أن آثار هما غير ظاهرة للخلق بخلاف السماوات والأرض وما بينهما فإنّها معلوم حالها عند المخاطبين في الجملة ومكشوفة آثارها كما قالوا: إنّ الشمس تنضج الفواكه والقمر يلوّنها والكواكب تعطيها الطعوم والتغيّرات فيها أظهر فهي على عظم القدرة أدلّ وهذه الشؤون والتغيّرات فيها بأمر الله وديعته إيّاها وهي في عالم الكون والفساد الّذي هو عبارة عن السماوات والأرض إذ هما من العنصريّات النهاية أنّ عنصر الأرض غير عنصر السماء لكنّها من العناصر بخلاف العرش والكرسيّ فإنّهما ليستا من العناصر ولهذا لا يفنيان.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ الفاء للتفسير أي: صوّركم أحسن تصوير وتقويم وخصّكم بخصائص مبدعاته ولذا لا يتمنّى الإنسان أن يكون صورته خلاف ما هو عليه ولا يقدح في كونه أحسن الصور كون بعض الصور قبيحاً بالنسبة إلى بعض لأنّ الحسن هو الجمال في الوضع وذلك القبيح الصورة إذا قايست وضعه وخلقته مع كلّ ذي روح من نوع الحيوان بل الأجسام السفليّة مطلقاً

١ـ الخلاف، للشيخ طوسي، ج٣، ص٥٩١، والدروس، ج٣، ص٧٩، والكافي، ج٦، ص١٣.

٢ـ سورة الروم: ٣٠.

فذلك القبيح الصورة أحسن وضعاً وأتمّ خلقة.

والمعتدّ به هو الحسن المعنويّ ويكون مقارنا بالإيمان الّذي هو أحسن السير وفي الحديث: «خلق الله آدم على صورته. أي على الصورة الإلهيّة الّتي هي عبارة عن صفاته العليا وأسمائه الحسنى وإلّا فالحسن الصوريّ يوجد في الكافر أيضاً نعم قد يوجد في الكافر سيرة حسنة وخلق حميد كعدل أنوشيروان لكنّ المعتدّ به أيضاً الإيمان ولو أنّ تلك السيرة الحسنة تنفعه لكن نفعاً مختصراً والجميل لا يضيّع ولو في الجملة».

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والرجوع إليه في النشأة الآخرة فأحسنوا سرائركم باستعمال قواكم في طاعته حتّى يوافق السيرة الجميلة والصورة الحسنة في الرجوع فكم من صورة حسناء تكون في العقبى شوهاء بقبح السريرة وكم من صورة قبيحة تكون حسناء بحسن السيرة وقد ثبت أنّ ضرس الكافر يوم القيامة مثل جبل أُحد وأنّ غلظ جسده مسافة ثلاثة أيّام وأنّه يسوء خلقه فيغلظ شفته العليا حتّى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتّى تضرب سرّته وإنّ أهل الجنّة ضوء وجوههم كضوء القمر ليلة البدر مكحلون أبناء ثلاث وثلاثون، فيا عجباً من إنسان خفي عليه ما أودع في أرض وجوده من كنز إلهيّ غيبيّ من نال إليه لو يفتقر أبداً وكيف أقام في الحضيض مع سهولة العروج.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ من الأمور الكلّيّة والجزئيّة والجليّة والخفيّة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ محيط بجميع المضمرات في الصدور وفي الآية بيان ترقّ من الأظهر إلى الأخفى من الحقّ والباطل والرياء والإخلاص.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أيها الكفرة؟ والهمزة للاستفهام ولم للجحد

ومعناه التحقيق والمراد من نبأهم أي خبر قوم نوح ومن بعدهم من الأمم ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بكفروا أي قبلكم ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ والذوق وإن كان في العرف للقليل لكنّه مستصلح للكثير إذ ما ذاقوا بالنسبة إلى عذاب جهنّم كالذوق والوبال الثقل والشدّة ومنه الوابل للمطر الثقيل والمراد من الأمر الكفر عبّر عنه بالأمر للإيذان بأنّه أمر هائل وجناية عظيمة. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة بعد ذلك الذوق ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كثير الألم وفيه إخبار بأنّ ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفّارة لذنوبهم وإلّا لم يعذّبوا في الآخرة بخلاف المؤمنين فإنّ ما أصابهم في الدنيا من الآلام والمصائب كفّارة لذنوبهم على ما ورد في الأخبار الصحيحة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟
وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ
ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ
وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

المعنى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من العذاب الّذي ذاقوه وسيذوقوه في الآخرة ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أنّ الشان ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الظاهرة والباء إمّا للملابسة أو للتعدية ﴿فَقَالُوا﴾ عطف على كانت ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ وأنكروا أن يكون الرسول من جنسهم متعجّبين من ذلك أبشر وآدميّ مثلناً يهدينا إلى الله كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ أنكروا أن يكون الرسول بشراً ولم ينكروا أن يكون المعبود حجرا ومثل أن عبدوا

العجل وأقرّوا له بالمعبوديّة وأنكروا نبوّة موسى. ﴿وَتَوَلَّوا﴾ وأدبروا فيما أتوا به عن التصديق لهم فاستغنى الله أي أظهر استغناءه عن إيمانهم حيث أهلكهم وقطع دابرهم حيث علم سبحانه أنّه ليس فيهم من يؤمن ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن العالمين ﴿حَمِيدٌ﴾ في أفعاله يحمده كلّ مخلوق بلسان الحال وإن كان لم يعرفه ويقرّ بالوهيّته وفي الأربعين الإدريسيّة: يا حميد الفعال ذا المنّ على جميع خلقه بلطفه، من داومه يحصل له من الأموال غاية.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ عبّر سبحانه بالزعم إشعاراً بأنّه لا سند في الحكم سوى ادّعائه إيّاه والمراد من الموصول كفّار مكّة وأن مخفّفة ادّعوا أنّ الشأن لن يبعثوا بعد موتهم ولن يقاموا، قيل: لكلّ شيء كناية وكناية الكذب زعم. ﴿قُلْ﴾ ردّاً لهم وإبطالاً لزعمهم ﴿بَلَىٰ﴾ أن تبعثوا فإنّ بلى لإيجاب النفي الّذي قبله ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتحاسبنّ وتجزون بأعمالكم وبيان لتأكيد إثبات البعث ولتبعثنّ أصله لتبعثون حذفت واوه لاجتماع الساكنين وهو جواب قسم قبله ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعث والجزاء ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لوجود القدرة التامّة وقبول المادّة. وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمّد ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن حقّ نازل من عند الله مظهرا للحقّ والباطل كما أنّ النّور كذلك والالتفات إلى نور العظمة لإظهار العناية ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الامتثال بالأمر وعدمه ﴿خَبِيرٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرف لتنبؤنّ وما بينهما اعتراض أو مفعول لا ذكر ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ ليوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون من الجنّ والإنس وأهل السماء والأرض لأجل الحساب والجزاء وهو يوم القيامة واللام للعهد عن النبي ﷺ: «**إذا جمع الأوّلين والآخرين جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلّهم سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم ثمّ يرجع ينادي: ليقم الّذين كانت تتجافى**

جنوبهم عن المضاجع، فيقومون وهم قليل فيسرحون إلى الجنّة ثمّ يحاسب سائر الناس»[1] وقيل: المراد جمع اللّه وعمله.

وقيل بين الظالم والمظلوم أو بين كلّ نبيّ وامّته. ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ تفاعل من الغبن وهو أن تخسر صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء والتغابن أن يغبن بعضهم بعضا ويوم القيامة يوم غبن بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء وبالعكس فالكافر أخذ الشرّ وترك الخير والمؤمن ترك حظّه من الدنيا وأخذ حظّه من الآخرة ترك ما هو شرّ له وأخذ ما هو خير له فكان غانبا والكافر كان مغبوناً فيظهر في ذلك اليوم التغابن لظهور الغبن في المباهاة المشار إليها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2].

وقيل: يظهر الغبن من الكافر بترك الإيمان ومن المؤمن بتقصيره في الإحسان وفي الحديث: «لا يلقى الله أحدٌ إلّا نادما إن كان مسيئاً أن لم يحسن وإن كان محسناً أن لم يزدد». ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ بالإخلاص ويعمل صالحاً بمقتضى إيمانه، حكي أنّ إبراهيم ابن أدهم أراد أن يدخل الحمّام فطلب الحمّامي الاجرة فتأوّه ثمّ قال: إذا لم يدخل أحد بيت الشيطان بلا أُجرة فأنّى يدخل بيت الرحمن بلا عمل؟ ﴿يُكَفِّرْ﴾ أي: يغفر اللّه ﴿عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ يوم القيامة ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بفضله له بالإيجاب ﴿جَنَّاتٍ﴾ على حسب درجات أعماله ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الأربعة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ومؤبّدين ﴿أَبَدًا﴾ نصب على الظرف تأكيد للخلود ﴿ذَٰلِكَ﴾ من تكفير السيّئات وإدخال الجنات ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الّذي لا فوز وراءه لانطوائه على النجاة والخلاص

١ـ تفسير القرطبي، ج١٤، ص١٠٢، وتفسير الثعلبي، ج٧، ص٣٣٢.

٢ـ سورة التوبة: ١١٢.

من أعظم الهلكات والظفر بأجلّ الطيّبات.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وحججنا ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازمون النار لخلودهم فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذه النار.

مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

المعنى: ﴿مَا أَصَابَ﴾ ما نافية، أصاب الخلق ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ من المصائب الدنيويّة والمصيبة المضرّة الّتي تلحق صاحبها كالرمية الّتي تصيبه وإنّما عمّ ذلك سبحانه وإن كان في المصائب ما هو ظلم وهو لا يأذن بالظلم لأنّه ليس من أفراد الظلم إلّا ما أذن اللّه في وقوعه أو التمكّن منه وذلك إذن للملك الموكّل به والمعنى أنّه لا يمنع من وقوع المصيبة وقد يكون ذلك بتمكين من اللّه فكأنّه يأذن أن يكون فيرجع المعنى بتخلية اللّه بينكم وبين من يريد فعلها وقيل: إنّه خاصّ فيما يفعله اللّه أو يأمر به وقيل: معنى بإذن اللّه أي بعلم اللّه ولا يصيبكم مصيبة إلّا وهو عالم بها. ﴿وَمَن يُؤْمِن﴾ بتوحيد

الله ويصبر لأمر الله عند نزول المصيبة ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ فإن ابتلي صبر وإن اعطي شكر وإن ظلم غفر قال ابن عبّاس: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للاسترجاع حتّى يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فيثيب عند إصابتها ولا يضطرب بأن يقول قولا يدل على التضجّر من قضاء الله. قال بعض المحقّقين: ومن يؤمن بالله تحقيقا يهد قلبه على العمل بمقتضى إيمانه. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم إيمان المؤمن.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ إطاعة العبد لمولاه وإطاعة الامّة لنبيّها فيما يؤدّيه عن الله ولا يشغلنّكم المصائب عن الاشتغال بطاعته والعمل بكتابه وكرّر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفيّة. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن إطاعة الرسول ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ تعليل للجواب المحذوف تقديره فلا بأس عليه إذ ما عليه إلّا التبليغ وإضافة الرسول إلى نون العظمة وإظهار الرسول في مقام إضماره لتشريفه ﷺ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عليه تعالى خاصّة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فانّ الألوهيّة مقتضية للتبتّل اليه وقطع التعلّق عمّا سواه بالمرّة والتوكّل اظهار العجز والاعتماد على الغير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ الزوج يعمّ الحليل والحليلة ﴿وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ يعمّ الابن والبنت ﴿عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله وإن لم يكن لهم عداوة ظاهرة فإنّ العدوّ لا يكون عدواً بذاته وإنّما يكون عدوًا بفعله وقدّم الأزواج لأنّها مصادر الأولاد قيل: إنّ أناساً أرادوا الهجرة عن مكّة فثبّطهم أزواجهم وأولادهم فرقّوا لهم ووقفوا فلمّا هاجروا بعد ذلك ورأوا الّذين قد فقهوا في الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم ولهذا زيّن الله لهم العفو عن العقوبة.

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ الحذر احتراز عن مخيف والضمير راجع إلى العدوّ فإنّه يطلق على الجمع أي: احفظوا أنفسكم عن شدّة التعلّق بهم ولا تؤثروا حقوقهم على حقوق اللّه بترك طاعته بالانهماك في محبّتهم. وفي الحديث: **«إذا كان امراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»**. وفي الحديث: **«شاوروهن وخالفوهن»**. والسبب أنهنّ في الغالب ضعيفات العقول والحظوظ والإيمان وتطيع هوى نفسها لكنّ المرأة الفاضلة في الدين يجوز استشارتها وقد استشار النبيﷺ امّ سلمة في قصّة صلح الحديبية لفضلها ووفور عقلها وقصّة خسرو وشيرين والصيّاد والسمكة معروفة.

وحكي أنّ رجلاً من بني إسرائيل أتى سليمان‌عليه‌السلام وقال: يا نبيّ اللّه أريد أن تعلّمني لسان البهائم فقال سليمان: إن كنت تحبّ أن تعلم لسان البهائم أنا أُعلّمك ولكن إذا أخبرت أحداً تموت من ساعتك فقال: لا أخبر أحداً فقال سليمان: قد علّمتك وكان للرجل ثور وحمار يعمل عليهما في النهار فإذا أمسى أدخل عليهما علفاً فحطّ العلف بين يديهما فقال الحمار للثور أعطني الليلة عشاءك حتّى يحسب صاحبنا أنّك مريض فلا يعمل عليك فتستريح يوماً ثمّ أنا أُعطيك عشائي في الليلة القابلة فرفع الثور رأسه من علفه فضحك الرجل فقالت امرأته: لم تضحك قال: لا شيء فلمّا جاءت الليلة القابلة أعطى الرجل للحمار علفه وللثور علفه فقال الثور للحمار: اقضني السلف الّذي عندك فإنّي أمسيت مغلوباً من الجوع والتعب فقال له الحمار: إنّك لا تدري كيف كان الحال فقال الثور: وما ذلك قال: إنّ صاحبنا ذهب البارحة وقال للجزّار: ثوري مريض اذبحه قبل أن يعجف فاصبر الليلة وأسلفني عشاءك أيضاً حتّى إذا جاءك الجزّار صباحاً وجدك عجيفاً ولست قابلاً للذبح فلا يذبحك فتنجو من الموت ولو تعشّيت يمتلئ بطنك ويحسبك

سمينا فيذبحك إنّي أردّ لك ما أسلفتني الليلتين فرفع الثور رأسه أيضاً من علفه ولم يأكل فضحك الرجل فقالت المرأة لم تضحك؟ أخبرني وإلّا طلّقني فقال الرجل: إذا أخبرتك أموت في ساعتي فقالت: لا ابالي إلّا أن تخبرني فقال: ايتني بالدواة والقرطاس حتّى أكتب وصيّتي ثمّ أخبرك ثمّ أموت فناولته فبينما هو يكتب إذ طرحت المرأة كسرة من الخبز إلى الكلب فسبق الديك وأخذها بمنقاره قال الكلب: ظلمتني قال الديك: صاحبنا يريد الموت اصبر فتكون أنت شبعاناً من وليمة المأتم ولكن نحن نبقى في بيتنا إلى ثلاثة أيّام لا يفتح لنا الباب وإن يمت يرضي امرأته أبعده الله وأسخطه فإنّ لي تسع نسوة لا تقدر واحدة منهنّ أن تسأل عن سري لو كنت أنا مكانه لأضربنّها حتّى تموت أو تتوب وبعد ذلك لا تسأل عن سرّ زوجها فأخذ الرجل عصا ولم يزل يضربها حتّى تابت من ذلك الطلب، والنساء إذا وافقتموهنّ في المعروف يطمعن في المنكر.

﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلّقة بأمور الدنيا أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ وتسامحوا ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ بإخفائها وقبول عذرها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم.

وفي الحثّ على العفو والصفح إشارة إلى أن ليس المراد من الأمر بالحذر تركهم بالكلّيّة والإعراض من معاشرتهنّ كيف وبها نظام العالم. وما روي عنه ﷺ أنّه كان يقول: «اتّقوا الدنيا والنساء». إنّما هو للتحذير عمّا يضرّ معاشرتها في محبّتها الشاغلة عن طاعة الله لا الترك بالكليّة.

﴿إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاء ومحنة يوقعونكم في الإثم من حيث لا تحتسبون والمعنى محنة امتحنكم الله بها حتّى يميّز المطيع والعاصي في محبّتهم ومحبّة الله، ﴿وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر طاعته على محبّة

الأموال والأولاد وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة.

عن ابن مسعود لا يقولنّ أحدكم: اللّهم اعصمني من الفتنة ولكن ليقل: اللّهم إنّي أعوذ بك من مضلّات الفتن يقال: إنّما يتعلّق بالرجل يوم القيامة أهله وأولاده فيوفقونه بين يدي الله تعالى ويقولون: يا ربّنا خذ بحقّنا منه فإنّه ما علّمنا ما نجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم فيقتصّ لهم منه ويأكل عياله حسناته فلا يبقى له حسنة ولذا قال ﷺ: **«يؤتى الرجل يوم القيامة فيقال له: أكل عياله حسناته»**[1].

قال بعض العارفين: العيال سوس الطاعات.

وبالجملة فكلّ شيء يشغل عن الله فهو مشؤوم على صاحبه قيل: أنّه ﷺ يقول في دعائه: **«اللهمّ من أحبّني وأجاب دعوتي فأقلل ماله وولده، ومن أبغضني ولم يجب دعوتي فأكثر ماله وولده وهذا الغالب عليهم النفس»**. وأمّا قوله ﷺ: **«في حقّ أنس اللّهم أكثر ماله وولده»**[2] فهو لأمر هو أعرف بصلاحه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: ابذلوا في التقوى جهدكم وتحرّزوا عمّا يكون سبباً لمؤاخذة الله إيّاكم وهذه الآية نزلت بعد قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾

لمّا اشتدّ على النبي ﷺ بأن قام في الصلاة حتّى ورمت قدماه وتقرّحت جبهته الشريفة فنزلت: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ قال ابن عبّاس: كلتا الآيتين محكمة لا ناسخ فيها وحقّ التقوى ما يحسن أن يطلق عليه اسم التقوى وذلك لا يقتضي أن يكون حقّ التقوى فوق الاستطاعة فإنّه سبحانه لا يكلّف نفساً إلّا وسعها.

﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُوا﴾ ممّا رزقكم في الوجوه الّتي

١ـ تفسير القرطبي، ج١٨، ص١٤٣، والكشاف، ج٤، ش ص١١٧.

٢ـ انظر: الخرائج والجرائح، ج١، ص٥٠، وبحار الأنوار، ج١٨، ص١١.

أمركم اللّه بالإنفاق فيها خالصاً لوجهه والمراد مطلق الإنفاق أو الزكاة كما قال ابن عبّاس: ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ مفعول لفعل محذوف أي: افعلوا خيراً لأنفسكم أو يكون الإنفاق خيراً.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي: ومن يقه اللّه ويعصمه من بخل نفسه الّذي هي الرذيلة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مرام وفي المقاصد الحسنة كفى بالمرء من الشحّ أن يقول: آخذ منه حقّي لا أترك منه شيئاً أبداً.

وروي عن النبيّ أنّه كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلّق بأستار الكعبة وهو يقول: إلهي بحرمة هذا البيت إلّا غفرت لي. فقال ﷺ: **«ما ذنبك؟ صفه لي»**. قال: هو أعظم من أن أصفه لك. قال ﷺ: **«ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟»** قال: بل ذنبي قال: **«ويحك ذنبك أعظم أم السماوات؟»** قال: بل ذنبي قال: **«فذنبك أعظم أم العرش؟»** قال: بل ذنبي أعظم. قال: **«فذنبك أعظم أم اللّه؟»** قال: بل اللّه أعظم وأعلى. قال: **«ويحك صف لي ذنبك»**. قال: يا رسول اللّه إنّي ذو ثروة من المال وإنّ السائل ليأتيني ويسألني فكأنّها يستقبلني بشعلة من النار. فقال: **«إليك عنّي لا حرّقني اللّه بنارك فو الّذي بعثني بالهداية لو قمت بين الركن والمقام ثمّ بكيت ألفي عام حتّى يجري من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار ثمّ متّ وأنت لئيم لكبّك اللّه في النار أما علمت أنّ البخل كفر وأنّ الكفّار في النار»**. ثمّ تلا ﷺ هذه الآية [1] والإنفاق على الغير إنفاق على نفسك في الحقيقة.

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بصرف أموالكم إلى المصارف الّتي عيّنها وذكر القرض تلطّفاً في الطلب وأصل القرض القطع وقيل للقرض: قرض لأنّه قطع شيء من المال واستعمل في أن يعطي أحداً شيئاً ليرجع إليه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقروناً بالأخلاق وطيب النفس وقرضاً إن كان بمعنى الإقراض كان نصبه على

١ـ انظر: اسد الغابة، ج ٥، ص ٧٦.

المصدريّة وإن كان بمعنى مقرضاً كان مفعولاً ثانياً لتقرضوا لأنّ الإقراض يتعدّى إلى مفعولين.

﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ أي: يجعل لكم أجره مضاعفاً ويكتب بالواحد عشرة وسبعين وسبعمائة وأكثر على حسب النيّات والأوقات والمحالّ.

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ما فرط منكم من بعض الذنوب ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الكثير بمقابلة اليسير من الطاعة وسمّي جزاء الشكر شكراً أو المعنى واللّه كثير الثناء على عبده بذكر أفعاله الحسنة وينبغي أنّ العبد لا يقصّر في الشكر فشكر البدن أن لا يستعمل جوارحه في غير طاعته وشكر قلبه أن لا يشتغل بغير معرفته وذكره وشكر اللسان أن لا يستعمل غير ثنائه ومدحته وحمده وشكر المال وهو أن ينفقه في محبّته وسبيله ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يغافل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم من المنع والإمساك وهو يرى مخالفة العاصين ولا يعتريه غيظ ولا يحمله علمه على المسارعة إلى الانتقام.

قيل: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا رئي ملكوت السماوات والأرض رأى عاصياً في معصيته قال: اللّهمّ أهلكه فأهلكه اللّه ثمّ رأى آخر فدعا عليه فأهلكه اللّه ثمّ رأى آخر فدعا عليه فأهلكه اللّه ثمّ رأى رابعاً فدعا عليه فأوحى اللّه إليه أن قف إبراهيم، فلو أهلكنا كلّ عاص رأيناه لم يبق أحد من الخلق ولكنّا تحمّلنا لا نعذّبهم بل نمهلهم فإمّا أن يتوبوا وإمّا أن يصرّوا فلا يفوتنا بشيء.

قيل: الحلم حجاب الآفات وملح الأخلاق والفرق بين الصبور والحليم أنّ المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم يعني إنّ الصبور يشعر بأنّه يعاقب في الآخرة بخلاف الحليم والتخلّق باسم الحليم إنّما هو بأن يصفح عن جنايات الناس بل يجازيهم بالإحسان.

قال السهروردي: يا حليم ذا الأناة فلا يعادله شيء من خلقه، من ذكره

كان مقبول القول وافر الحرمة قويّ الجاش بحيث لا يقدر عليه سبع ولا غيره.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبر بعد خبر أي: لا يخفى عليه خافية ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ البالغ في القدرة والحكمة ويعلم من هو في نيّة صادقة وفي عمله خلوص ومن ليس كذلك ومن هو أهل للكرامة كما ردّ بلعم بن باعور وقبل كلب أصحاب الكهف قيل: إنّهم لمّا طردوا الكلب ولم ينصرف أنطقه الله فقال: لم تصرفونني إن كان لكم إرادة فلي إرادة أيضاً وإن كان خلقكم فقد خلقني أيضاً فازدادوا بكلامه يقيناً واتّفقوا على استصحابه معهم إلّا أنّهم قالوا: يستدلّ علينا بآثار قدمه فالحيلة أن نحمله فحمله الأولياء على أعناقهم وهم يمشون وذلك لخلوصه فأدركه من العناية الأزليّة كما أن الاستكبار أخرج إبليس من ذلك المقام المنيع وجعله في أسفل السافلين.

تمّت السورة بعون الله.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدينة. عن النبي ﷺ قال: «ومن قرء سورة الطلاق مات على سنة رسول الله»[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ
مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ
ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ
مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ
حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ
لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ
ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن
يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ
يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥

١ـ مجمع البيان، ج١٠، ص٣٦، والكشاف، ج٤، ش ص١٢٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أصل الطلاق التخلية من وثاق ويقال: أطلقت بعيراً من عقاله ومنه استعير طلاق المرأة إذا خلّيتها فهي طالق أي مخلّاة عن حبالة النكاح. والطلاق كالسلام والكلام بمعنى التسليم والتكليم والمستعمل في المرأة لفظ التطليق وفي غيرها لفظ الطلاق حتّى لو قيل: أطلقتك لم يقع الطلاق.

وتخصيص النداء بهﷺ مع عموم الخطاب لأمّته لتشريف الخطاب ولأنّ النبيّ إمام أمّته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت اعتباراً لترؤّسه وإنّه لسان قومه وهذه العبارة مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ قل للمؤمنين ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وقيل: إنّه في التقدير يا أيّها النبيّ والمؤمنون إذا طلّقتم فحذف المؤمنون لأنّ الحكم يدلّ على المحذوف أو من قبيل «إيّاك أعني» والمراد أمّته. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ العدّة مصدر عدّه يعدّ ومن هذا قول النبيﷺ: سئل عنه متى يكون القيامة؟ قال: **«إذا تكاملت العدّتان أي عدد أهل النار وعدد أهل الجنّة».**[1] وسمّي الزمان الّذي تتربّص فيه المرأة عقيب الطلاق أو الموت عدّة لأنّ المرأة تعدّ الأيّام المضروبة عليها وتنتظر أيّام الفرج أي طلّقوهنّ مستقبلات لعدّتهن فاللّام متعلّقة بمحذوف دلّ عليه معنى الكلام أي واقع وقت عدّتهنّ وذلك أن يطلّقها في طهر لم يجامعها فيه حتّى يحسب العدّة من ذلك اليوم ويصحّ الطلاق فإن لم يقع الطلاق في ذلك الطهر ووقع في طهر واقع الرجل فيه لم يقع الطلاق فهذا هو الطلاق للعدّة لأنّها تعتدّ بذلك الطهر من عدّتها وتحصل في العدّة عقيب الطلاق فيكون على هذا العدّة الطهر لا الحيض. ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ أي: اضبطوها بحفظ الوقت الّذي وقع فيه الطلاق وأكملوها ثلاثة أقراء لكنّ القرء بمعنى الطهر في

١ـ البحر الرائق، ج٤، ص٢١٤، والفائق في غريب الحديث، ج٢، ص٣٣٩[جارالله الزمخشري].

الآية عندنا وقيل: اللام في ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ للسبب فالمعنى فطلّقوهنّ ليعتددن ولا شبهة أنّ هذا الحكم أي الاعتداد للمدخول بها لأنّ المطلّقة قبل المسيس لا عدّة عليها وقد ورد به التنزيل في سورة الأحزاب وهو قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[١].

وبالجملة وإنّما أمر سبحانه الرجال بالإحصاء وإن كانت النساء مأمورة لأنّهم أضبط للحساب وللزوج في هذا الضبط حقّ وهي المراجعة ولها حقّ وهو النفقة والسكنى وأيضا قعود الزوجة عن اتّخاذ البعل حتّى تنقضي وقد يحصل الفراق بغير الطلاق كالارتداد واللعان وإن لم يسمّ طلاقاً ويحصل أيضاً بالفسخ للنكاح بأشياء أخر.

والطلاق منهيّ عنه من غير سبب ومبغوض. قال النبي ﷺ: **«تزوّجوا ولا تطلّقوا فإنّ الطلاق يهتزّ منه العرش».**[٢] وعن ثوبان رفعه إلى النبي ﷺ فقال: **«أيّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنّة».**[٣] وعن أبي موسى الأشعريّ عن النبي ﷺ قال: **«لا تطلّقوا النساء إلّا من ريبة فإنّ الله لا يحبّ الذوّاقين والذوّاقات»**[٤].

واعلم أنّ العدّة على ضروب فضرب بالإقراء لمن تحيض وضرب يكون بالأشهر للّتي لم تبلغ المحيض ومثلها تحيض وكذلك الآيسة من المحيض ومثلها تحيض فعدّتها بالشهور وحدّها أصحابنا بأن تكون سنّها أقلّ من خمسين سنة ومن ستّين سنة للقرشيّات فإن كان سنّها أكثر من ذلك فلا عدّة عليها عند أكثر أصحابنا والمتوفّى عنها زوجها عدّتها بالشهور أيضاً

١ـ سورة الأحزاب: ٤٩.

٢ـ الحدائق الناظرة، ج٢٥، ص١٤٧، ووسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٦٨، ومجمع البيان، ج١٠، ص٣٩.

٣ـ المبسوط، للشيخ الطوسي، ج٥، ص٣، ومسالك الإفهام ج٩، ش ص١١٩، ووسائل الشيعة، ج١٥، ص٤٩٠.

٤ـ مستدرك الوسائل، ج١٥، ص٢٨٠، وعوالي اللئالي، ج٢، ص١٤٠، وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٣٩.

وضرب تكون بوضع الحمل في الجميع إلّا المتوفّى عنها زوجها فإنّ عدّتها أبعد الأجلين ثمّ إنّ عدّة الطلاق للحرّة ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر وللأمة قرءان أو شهر ونصف ووضع الحمل.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ ولا تعصوه فيما أمركم به و﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ من بيوتهنّ ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ هنّ أيضاً في زمان العدّة ولا يجوز للزوج أن يخرج المطلّقة المعتدّة من مسكنه الّذي كان يسكنها فيه قبل الطلاق وعلى المرأة أيضاً أن لا تخرج في عدّتها إلّا لضرورة ظاهرة فإن خرجت أثمت. ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرة واختلف في الفاحشة فقيل: إنّها الزنا فتخرج لإقامة الحدّ عليها وقيل: هي البذاء على أهلها فيحلّ لهم إخراجها عن ابن عبّاس وهو المرويّ عن الباقرعليه السلام[1] وروى عليّ بن أسباط عن الرضاعليه السلام قال: «**الفاحشة أن تؤذي أهل زوجها وتسبّهم**».[2] وقيل: «**هي النشوز فإن طلّقها على نشوز فلها أن تتحوّل من بيت زوجها**» وفي رواية[3] اخرى «**إنّ كلّ معصية لله ظاهرة فهي فاحشة**».

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ ممّا ذكر من أحكام الطلاق ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن على غير ما أمر اللّه به ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وأثم فيما بينه وبين اللّه وخرج من الطاعة إلى المعصية وفعل ما يستحقّ به العقاب.

لا تدري ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي: يغيّر رأي الزوج في محبّة الطلاق ويوقع في قلبه المحبّة لترجعها في ما بين الطلقة الواحدة والثانية وفي ما بين الثانية والثالثة ولعلّ اللّه يحدث الرجعة في العدّة وطلاق السنّة في مقابلة طلاق البدعيّ الّذي هو غير مشروع عندنا والطلاق السنّيّ

١ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠، ووسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٤٤٠.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠، والحدائق الناظرة، ج ٢٥، ص ٥٢٦، وجواهر الكلام، ج ٣٢، ص ٣٣٤.

٣ـ التبيان، ج ١٠، ص ٣١، ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠، وفقه القرآن، الراوندي، ج ٢، ص ١٦٤، عن ابن عباس.

يطلق على الطلاق الّذي لم يطأ فيه بعد الرجعة ويكون طلاق عدّة إن وطأ بعد الرجعة وطلّق والحاصل إنّ أصحابنا الإماميّة قد اصطلحوا على أن يسمّوا الطلاق الّذي لا يزاد عليه بعد المراجعة طلاق السنّة والطلاق الّذي يزاد عليه بشرط المراجعة طلاق العدّة، فطلاق السنّة أيضاً طلاق العدّة وهو ما كان مستجمعا لشرائط الصحّة المذكورة في كتاب الطلاق.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: شارفن آخر زمان العدّة ولم تنقص وذلك لأنّه لا يمكن الرجعة بعد بلوغهنّ آخر العدّة وحمل البلوغ في الآية عند الفريقين على المشارفة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فأنتم بالخيار إن شئتم راجعوهنّ بالمعروف وحسن المعاشرة وإنفاق لائق وفي الحديث أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحقّ وإنفاء الضرار بأن يراجعها ثمّ يطلّقها تطويلاً للعدّة وخصومة لها. ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال المفسّرون: أمروا أن يشهدوا عند الطلاق وعند الرجوع شاهدي عدل حتّى لا يجحد المرأة المراجعة بعد انقضاء العدّة والرجل الطلاق وقال أصحابنا: الإشهاد على الطلاق وهو المرويّ عن أئمّتنا وهذا أليق بظاهر الآية وعليه العمل عندنا لأنّ العطف على قوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ في «الكافي» عن الكاظم عليه السلام قال لأبي يوسف: **«إن الله تبارك وتعالى أمر في كتابه في الطلاق بشاهدين ولم يرض لهما إلّا عدلين وأمر في كتابه بالتزويج فأهمله بلا شهود وأنتم أثبتّم شاهدين وأوجبتم فيما أهمل وأبطلتم الشاهدين فيما أكّد»**[1]. ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ وهذا خطاب للشهود أي: أقيموها لوجه الله لا لطلب رضاء المشهود له والشهادة أمانة ولا بدّ من تأدية الأمانة فلو كتمها أو حرّفها فقد خان والخيانة من الكبائر دلّ عليه: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٣٨٧.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الحثّ على جميع الامور المذكورة من الشهادة وأحكام الطلاق والعدّة ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إذ هو المنتفع به والمؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك العمل بما وعظ به رغبة في الثواب ورهبة من العقاب. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ عن مخالفته في هذه المذكورة وغيرها ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ مصدر ميميّ أي: خروجاً وخلاصاً يجعل سبحانه له من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة ومن الحرام إلى الحلال ومن النار إلى الجنّة وعن النبيّ ﷺ قال: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كلّ همّ فرجاً ومن كلّ ضيق مخرجاً»[1].

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ قال الصادق: «يبارك له فلما أتاه»[2] وعن أبي ذرّ الغفاريّ عن النبيّ ﷺ قال: «إنّي لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم وهي قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية»[3]. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: ومن يفوّض أمره إلى الله ووثق بتقديره وتدبيره فهو كافيه ويعطيه ثواب الجنّة ويجعله مكفّى في أموره وفي الحديث من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكّل عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: يبلغ ما أراد على ما أراد ولا يقدر أحد على منعه عمّا يريده أو المعنى أنّه تعالى منفذ أمره فيمن يتوكّل عليه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ وبيّن لكلّ شي مقداراً بحسب المصلحة في الإباحة والوجوب والترغيب والترهيب والشدّة والرخاء.

ثمّ بيّن تعالى اختلاف أحكام العدّة باختلاف أحوال النساء فقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ فلا يحضن ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ اللّائي من

١ـ مستدرك الوسائل، ج٥، ص٢٧٧، وبحار الأنوار، ج٧٤، ص١٧٢.
٢ـ تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣٥٧، ومجمع البيان، ج١٠، ص٤٣.
٣ـ المصدر السابق نفسه.

الموصولات جمع الّتي أي النساء اللّاتي دخلتم بهنّ ويئسن من الحيض لكبرهنّ يقال: آيس إذا كان يأسها من الحيض ولا يقال لها: آيسة لأنّ الياء إنّما تزاد في المؤنّث إذا استعملت الكلمة للمذكّر أيضاً فرقا بينهما فإذا لم تستعمل له فأيّ حاجة إلى الزيادة مثل طالق وحائض. والمحيض والحيض مصدر حائض وهو خروج الدم من قبلها ويكون للأرنب والضبع والخفّاش ومنه الحوض لأنّ الماء يسيل إليه.

﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ وشككتم وأشكل عليكم لجهلكم بحكم عدّتهن أي شككتم في أمرهنّ فلا تدرون لكبر ارتفع حيضهنّ أم لعارض، عن أئمّتنا عليهم السلام: **«هنّ اللواتي أمثالهنّ يحضن لأنهنّ لو كنّ في سنّ من تحيض لم يكن للارتياب معنى»**.[1] روي في «المجمع كذلك»[2].

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ واللائي يئسن مبتدء خبره: فعدّتهنّ والشهر العدد المعروف من الأيّام وسمّي شهراً لأنّه يشهر ويعرف بالقمر وبإهلال الهلال.

﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي: ما رأين الدم لصغرهنّ والشابّة الّتي كانت تحيض فارتفع حيضها بعذر من الأعذار قبل بلوغها من الآيسات فتعتدّ بثلاثة أشهر أيضاً. ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ﴾ وواحدة الأولات ذات بمعنى صاحبه والمراد من الحمل الحبل وهو المحمول في البطن أي الحبالى منهنّ ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ أي: منتهى عدّتهن ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال ابن عبّاس: هذا الحكم خاصّ بالمطلّقات وهو المرويّ عن أئمّتنا[3] فأمّا المتوفّى عنها زوجها إذا كانت حاملا فعدّتها أبعد الأجلين فإذا مضت بها أربعة أشهر وعشراً ولم تضع انتظرت الوضع

١ـ تفسير الصافي، ج٥، ص ١٩٠، والتحفة السنية، ص ٢٩٠.

٢ـ مجمع البيان، ج١٠، ص٤٤.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

وإذا وضعت قبل المدة انتظرت المدة ولكن عند غيرنا أنه عام في المطلّقات والمتوفّى عنها زوجها وإن كانت المرأة حاملا باثنين ووضعت واحداً لم تحلّ للأزواج حتّى تضع جميع الحمل. قال أصحابنا: إذا وضعت واحداً انقطعت عصمتها من الزوج ولا يجوز لها أن تعقد على نفسها لغيره حتّى تضع الآخر.

والّذين قالوا: إنّ الآية عامّة في المطلّقة والمتوفّى عنها زوجها قالوا: إنّ هذه الآية نسخت قوله ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[1]، لتراخي نزوله لكن عندنا لا يصحّ لأنّ النسخ لم يثبت وفي الكافي عن الصادق عليه السلام سئل عنه عن الحبلى يموت زوجها فتضع وتزوّج قبل أن يمضي لها أربعة أشهر وعشر فقال عليه السلام: «**إن كان دخل بها فرّق بينهما واعتدّت بما بقي عليها من الأوّل واستقبلت عدّة اخرى من الأخير ثلاثة قروء**»[2]، الحديث. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فيما أمره بالطاعة والاجتناب عن المعصية ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ ويسهّل عليه امور الدنيا والآخرة إمّا بفرج عاجل أو عوض آجل وقيل: يسهّل عليه فراق أهله ويزول الغموم عن قلبه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الأحكام ﴿أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ من الصلاة إلى الصلاة ومن الجمعة إلى الجمعة قال الربيع: إنّ اللّه قد قضى على نفسه أنّ من توكّل عليه كفاه ومن آمن به هداه ومن أقرضه جازاه ومن وثق به أنجاه ومن دعاه لبّاه وتصديق ذلك في كتاب اللّه حيث قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وقال عزّ وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[1] وقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾[2] وقال:

١ـ سورة البقرة: ٢٣٤.
٢ـ الكافي، ج٥، ص٤٢٧.
١ـ سورة التغابن: ١١.
٢ـ سورة التغابن: ١٧.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2]. ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ وهو ثواب الجنّة لأنّه الأجر العظيم.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ استيناف وقع جواباً عن سؤال نشأ ممّا قبله من الحثّ على التقوى كأنّه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدّات؟ فقيل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: بعض مكان سكناكم والخطاب للمؤمنين المطلّقين ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ ووسعكم ممّا تطيقونه والوجد القدرة والغنى يقال: فلان افتقر بعد وجده وهو عطف بيان لقوله: ﴿حَيْثُ سَكَنتُم﴾ والبدل أحسن قال أبو حيّان: إنّه لم يعهد في عطف البيان إعادة العامل إنّما عهد ذلك في البدل. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ ولا تقصدوا عليهنّ الضرر ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ وتلجئوهنّ إلى الخروج من مساكنكم. ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي: المطلّقات

١ـ سورة آل عمران: ١٠١.

٢ـ سورة البقرة: ١٨٦.

ذوات حمل، وأولات بالكسر على قانون جمع المؤنّث وتنوين حمل للتنكير أي أيّ حمل كان قريب الوضع أو بعيده ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدّة وتحلّ لهنّ تزوّج غيركم أيّا شئن فأمر سبحانه بالإنفاق على المطلّقة الحامل سواء كانت رجعيّة أو مبتوتة. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: فإن أرضعن الولد لأجلكم بعد البينونة فأعطوهنّ أجرة الرضاع سواء كان الولد منهنّ أو من غيرهنّ فانّ حكمهن في ذلك حكم الأضآر ﴿وَأْتَمِرُوا﴾ أيها الآباء والأمّهات ﴿بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ والائتمار قبول الأمر أمرهم اللّٰه سبحانه بالتلقّي لأمره بما يوجب المعروف فلا يكون من الأب مماسكة ومن الأمّ معاسرة وعليهما الإشفاق للولد ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ وتضايقتم في الرضاع والاجرة واختلفتم في هذا الأمر ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ أي: فليسترضع الوالد امرأة أجنبيّة وتوجد مرضعة اخرى ولا يجوز إجبارها على الإرضاع.

﴿لِيُنفِقْ﴾ لام الأمر ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ وثروة وغنى ﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ وماله أمر سبحانه أهل التوسعة أن يوسّعوا على نسائهم المرضعات أولادهنّ على قدر سعتهم ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ﴾ وضيّق عليه رزقه ﴿فَلْيُنفِقْ﴾ على قدر ذلك وعلى حسب إمكانه وطاقته ﴿مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ من المال جلّ أو قلّ ولا يقع منه تعالى تكليف ما لا يطاق. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أكّد الوعد باليسر بعد العسر عاجلا أو آجلا وليس في السين دلالة على تعيّن وقت، نعم السين تعيّن قرب الوعد وكلّ ما هو آت قريب ولو في الآخرة فلينتظر المعسر اليسر فإنّ الانتظار للفرج عبادة قال الزمخشري: هذا وعد لفقراء ذلك الوقت والصحابة خصوصاً فإنّ الغالب على أكثر هم في ذلك الوقت الفقر ثمّ فتح عليهم البلاد فيما بعد.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ بمعنى: كم الخبريّة للتكثير والقرية اسم لموضع

يجتمع ويسكن فيه الناس أي وكثير من أهل قرية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ استكبرت وطغت عن قبول أمر ربّها وأمر رسل ربّها وفي الآية تحذير للناس عن المخالفة وكأيّن مبتدء ومن قرية بيان له وعتت خبره. ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: ناقشناها في الحساب وشددنا عليها وأخذنا بدقائق ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة من غير عفو بنحو من القحط والجوع والأمراض والسيف وتسليط الأعداء عليها معّجلاً على استيصالها العذاب الأكبر وذلك لترجع إلى اللّه فلم تفعل فابتلاها اللّه بما فوق ذلك ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ منكراً عظيماً لشدّته وإيلامه والنكر الأمر الصعب الّذي لا يعرف.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ وضرر كفرها وأحسّته إحساس الذائق الطعام ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ لا خسر وراءه لتضييع رأس ما لهم وهو العمر في المخالفة.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ واللام للتخصيص فهم أهل الحساب والعذاب في الدنيا والآخرة فإنّ ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفّارة لذنوبهم لعدم رجوعهم عن الكفر فعذّبوا بعذاب الآخرة أيضاً وقيل: في الآية تقديم وتأخير فيكون المعنى إنّا عذّبناها عذاباً شديداً في الدنيا ونحاسبها حساباً شديدا في الآخرة ولفظ الماضي للتحقيق كأكثر ألفاظ القيامة. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ واعتبروا بحال الأمم الماضين من المنكرين واتّقوا من مخالفة أمره تعالى إن خلصت عقولكم من شوائب كدورات النفس واعلموا أنّ الدنيا دار تجارة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثمّ وصف سبحانه اولي الألباب وخصّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك دون الكفّار. ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ﴾ والخطاب للالتفات ﴿ذِكْرًا * رَّسُولًا﴾ وهو النبيّ وأبدل منه ﴿رَّسُولًا﴾ وعبّر عنه بالذكر لمواظبته على تلاوة القرآن وتبليغه أو لأنّه سبب عن إنزال الوحي إليه يعني: إنّ رسول اللّه شبّه بالذكر الّذي هو القرآن لشدّة ملابسته به فأطلق

عليه اسم المشبّه به استعارة تصريحيّة وقرن به ما يلائم المستعار منه وهو الإنزال ترشيحاً لها أو مجازاً مرسلاً من قبيل إطلاق السبب على المسبّب فإنّ إنزال الوحي إليه سبب لإرساله. وقيل: معنى الآية قد أنزل إليكم ذكرا يعني القرآن وأرسل إليكم رسولاً يعني: محمّدا لكنّ الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول وقد دلّ عليه القرينة وهو قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ نظير قوله: «علّفتها تبناً وماء بارداً» أي: وسقيتها ماء بارداً.

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟﴾ ويقرء عليكم أيها الناس ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿مُبَيِّنَـٰتٍ﴾ حال كون الآيات مظهرات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام أو مبيّنات بالفتح أي: واضحات لا خفاء فيها لأهلها أو لا مرية في إعجازها وإنّما يتلوها. ﴿لِّيُخْرِجَ﴾ الرسول أو الله بناء على أنّ اللام متعلّقة بأنزل لا بقوله: ﴿يَتْلُوا۟﴾ ... ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الموصول عبارة عن المؤمنين بعد إنزال القرآن وإلّا فإخراج الموصوفين بالإيمان من الكفر لا يمكن إذ لا كفر فيهم حتّى يخرجوا منه ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى ومن الجهل إلى العلم ومن الغفلة إلى اليقظة على طبقاتهم في السعي والاجتهاد. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾ خالصاً من الرياء وإذا كان مكارم الأخلاق تنفع للإنسان في الجملة ولو كان كافرا فكيف إذا كان مؤمنا؟ كما قيل: إنّه ﷺ لمّا عرج به أطلع على النار فرأى حظيرة فيها رجل لا تمسّه

النار فقال ﷺ: «ما بال هذا الرجل في هذه الحظيرة لا تمسّه النار؟ فقال جبرئيل: هذا حاتم طيّئ صرف الله عنه جهنّم بسخائه وجوده». كما في أنيس الوحدة وكما رئي أبو لهب في المنام وهو يمصّ ماء من إبهامه ليلة الاثنين لعتقه بعض جواريه حين بشّرته بولادة رسول الله. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت قصورها أو أشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ ومقيمين في تلك الجنّات دائمين ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للخلود لئلّا يتوهّم أنّ المراد المكث الطويل المنقطع آخرا ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ حال ثان من مفعول يدخله وفي الكلام معنى التعجّب والتعظيم لما رزق الله المؤمنين من الثواب كأنّه قيل: ما أحسن رزقهم وما أعظمه!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: الله الملك القادر الّذي خلق سبع سماوات على وفق حكمته الشاملة وقدرته الكاملة ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وخلق من الأرض ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ في العدد والطباق.

واختلف في كيفيّة طبقات الأرض فقال قوم: إنّها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض كالسماوات لأنّها لو كانت مصمّتة لكانت أرضاً واحدة وفي كلّ أرض خلق خلقهم الله كما شاء وروى أبو صالح عن ابن عبّاس إنّها سبع أرضين ليس بعضها فوق بعض بينهنّ البحار ويظلّ جميعهنّ السماء والله سبحانه أعلم بصحّة ما استأثر بعلمه وأبهم على خلقه.

وبالجملة ليس في القرآن آية تدلّ على أنّ الأرضين سبع مثل السماوات إلّا هذه الآية وبعض الأخبار الّتي ينقلونها أنّ في كلّ أرض آدم كآدمكم ونوح مثل نوحكم ضعيفة غير معلومة ولا نعلم بصحّتها فالأولى السكوت عنها والله أعلم بصحّتها. ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أمر الله واللام عوض عن المضاف إليه ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ أي: بين السماوات السبع والأرضين السبع

والمراد نفوذ أمره تعالى في العلويّات والسفليّات كلّها والأمر عند الأكثرين القضاء أي يجري حكمه وينفذ بينها ولا يقتضي من قوله: ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ أن لا يجرى في العرش والكرسيّ لأنّ المقام اقتضى ذكر ما ذكره والتخصيص بالذكر لا يقتضي التخصيص بالحكم. ﴿لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ متعلّق بخلق أو يتنزّل أي: فعل ذلك لتعلموا أنّ من قدر على ما ذكر قادر على كلّ شيء ومنه البعث للجزاء فتطيعوا أمره وتستعدّوا لكسب السعادة واللام لام الغرض والمصلحة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ كما أحاط به قدرة وقوله: ﴿عِلْمًۢا﴾ نصب على التمييز.

تمّت السورة.

سورة التحريم

مدينة. قال أبيّ عن رسول الله ﷺ: «من قرأها أعطاه الله توبة نصوحاً»(1).

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ
أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ
بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ
هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى
رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ
عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ أصل لم لما والاستفهام لإنكار التحريم.

سبب النزول: فيه اختلاف قيل: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا صلّى الغداة يدخل على أزواجه امرأة امرأة وكان قد أهديت لحفصة عكّة عسل فكانت إذا دخل عليها رسول الله حبسته وسقته منها وإنّ عائشة أنكرت احتباسه

1ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص٥٢، ونورالثقلين، ج ٥، ص٣٦٧.

عندها فقالت لجويرية عندها: إذا دخل رسول اللّه على حفصة فادخلي عليها وانظري ماذا تصنع فأخبرتها الخبر وشأن العسل فغارت عائشة وأرسلت إلى صواحبها فأخبرتهنّ وقالت: إذا دخل عليكنّ رسول اللّه فقلن: إنّا نجد ريح المغافير وهو صمغ العرفط كريه الرائحة وكان رسول اللّه يكره ويشقّ عليه أن يوجد منه ريح غير طيّبة لأنّه يأتيه الملك. فدخل رسول اللّه ﷺ على سودة فقالت: ما أردت أن أقول ذلك لرسول اللّه ثمّ إنّي خفت من عائشة فقلت: يا رسول اللّه ما هذه الريح الّتي أجدها منك أكلت المغافير؟ فقال: **«لا ولكن حفصة سقتني عسلا»**. ثمّ دخل على امرأة امرأة وهنّ يقلن له ذلك فدخل على عائشة فأخذت بأنفها فقال لها: **«ما شأنك؟»** قالت: أجد ريح المغافير أكلتها يا رسول اللّه؟ قال: **«لا بل سقتني حفصة عسلاً»** فقالت: جرست إذا نحلها العرفط. فقال ﷺ **«واللّه لا أطعمه أبداً»**. فحرّمه على نفسه فنزلت الآية[1] وقيل: إنّ الّتي كانت تسقي العسل رسول اللّه امّ سلمة وقيل: كانت زينب بنت جحش[2].

وقيل في سبب النزول: إنّ رسول اللّه قسّم الأيّام بين نساءه فلمّا كان يوم حفصة قالت يا رسول اللّه: إنّ لي إلى أبي حاجة فأذن لي أن أزوره فأذن لها فلمّا خرجت أرسل رسول اللّه إلى جاريته مارية القبطيّة وكان قد أهداها له المقوقس ملك مصر فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها فأتت حفصة فوجدت الباب مغلقاً وجلست عند الباب فخرج رسول اللّه ووجهه يقطر عرقا فقالت حفصة: إنّما أذنت لي من أجل هذا أدخلت أمتك بيتي ثمّ وقعت عليها في يومي وعلى فراشي أما رأيت لي حرمة وحقّاً؟ فقال ﷺ: **«أليس هي جاريتي قد أحلّ اللّه ذلك لي اسكتي فهو حرام عليّ واللّه ألتمس بذلك رضاك فلا**

١ـ بحار الأنوار، ج٢٢، ص٢٢٩، ومجمع البيان، ج١٠، ص٥٥.

٢ـ بحار الأنوار، ج٢٢، ص٢٢٩، ومجمع البيان، ج١٠، ص٥٥.

تخبري بهذا امرأة منهنّ». فلمّا خرج رسول اللّه قرعت حفصة الجدار الّذي بينها وبين عائشة فقالت: إلّا أُبشّرك! إنّ رسول اللّه قد حرّم أمّته مارية عليه وأخبرت عائشة بما رأت فلم تكتم فطلّقها رسول اللّه بطريق الجزاء على إفشاء سرّه واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين يوماً في غرفة مارية حتّى نزلت آية التخيير في سورة الأحزاب[1] وهي: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾[2] الآية.

وبالجملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ناداه بهذا النداء تشريفاً له وتعليماً لعبادة كيف يخاطبونه في أثناء محاوراتهم ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ من الملاذ ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ وتطلب رضاء نسائك وهنّ أحقّ يطلب مرضاتك منك وليس في هذا ما يدلّ على وقوع ذنب منهﷺ لأنّ تحريم الرجل بعض نسائه أو بعض الملاذّ لسبب أو لغير سبب ليس بقبيح وقد يكون خرج هذا القول مخرج المتوجّع لهﷺ إذ بالغ في إرضاء أزواجه وتحمّل في ذلك المشقّة ولو أنّ إنساناً أرضى بعض نسائه بتطليق بعضهنّ لصحّ أن يقال له: لم فعلت ذلك وتحمّلت هذه المشقّة وإن كان لم يفعل قبيحاً ولو قلنا: إنّه عوتب على ذلك لأنّ ترك التحريم كان أفضل من فعله لم يمنع لأنّه يحسن أن يقال لتارك النفل: لم لم تفعله ولم عدلت عنه وإنّ تطييب قلوب النساء ممّا لا ينكره العقول.

حكي أنّ عبد اللّه بن رواحة كان من النقباء كانت له جارية فاتّهمته زوجته ليلة بالنسبة إلى الجارية. فقال قولاً يشبه الإنكار. فقالت له زوجته: إن كنت لم تقربها فاقرء القرآن فأنشد:

١ـ مجمع البيان، ج١٠، ص٥٦.

٢ـ سورة الأحزاب: ٥١.

وفينا رسول اللّه نتلو كتابه — كما لاح معروف مع الصبح

أتى بالهدى بعد العمى فنفوسنا — به موقنات إنّ ما قال واقع

فقالت: زدني، فأنشد:

شهدت بأنّ وعد اللّه حقّ — وأنّ النار مثوى الكافرينا[٢]

وإنّ محمّدا يدعو بحقّ — وإنّ اللّه مولى المؤمنينا

فقالت: إذا قرأت القرآن صدّقتك فأخبر به رسول اللّه فتبسّمﷺ وقال: «خيركم خيركم لنسائه»[٣].

واختلف فقهاء العامّة فيمن قال لامرأته: أنت حرام عليّ فقال مالك: هو ثلاث تطليقات وقال أبو حنيفة: إن نوى به الظهار فهو ظهار وإن نوى الإيلاء فهو إيلاء وإن نوى الطلاق فهو طلاق بائن وإن نوى ثلاثاً كان ثلاثاً وإن لم يكن له نيّة فهو يمين. وقال الشافعيّ: إن نوى الطلاق كان طلاقاً، أو الظهار كان ظهاراً وإن لم يكن له نيّة فهو يمين. وقال أصحابنا: إنّه لا يلزم به شيء ووجوده كعدمه وإنّما أوجب اللّه فيه الكفّارة لأنّ النبيﷺ كان حلف أن لا يقرب جاريته أولاً بشرب الشراب المذكور فأوجب عليه أن يكفّر عن يمينه ويعود إلى استباحة ما كان حرّمه وهو قوله: «واللّه لا أقربها». قيل: إنّهﷺ أعتق جارية في تحريم مارية وعاودها. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم إذ ارجعوا إلى ما هو الأولى. ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: قد قدّر اللّه تعالى لكم ما تحلّلون به أيمانكم إذا فعلتموها وشرع لكم الحنث والكفّارة

١ـ تفسيرمجمع البيان، ج١٠، ص٥٧، وانظر: كنزالعمال، ج١٣، ص١٠٠، وتفسيرابن كثير، ج٣، ص٤٦٨.

٢ـ تفسيرمجمع البيان، ج١٠، ص٥٧.

٣ـ من لايحضره الفقيه، ج٣، ص٤٤٣، ووسائل الشيعة، ج١٤، ص١٢٢، وكنزالعمال، ج١٦، ص٣٧١، والحدائق الناظرة، ج٢٤، ص٦١٠.

فيها واليمين ينحلّ بالحنث فسمّي ذلك تحلّة وقد بيّن اللّه كفّارة أيمانكم في سورة المائدة وفي هذا دلالة على أنّه قد حلف ولم يقتصر على قوله: حرام عليّ لأنّ هذا القول ليس بيمين. ﴿وَٱللَّهُ﴾ هو ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ ووليّكم يحفظكم وهو أولى بكم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بمصالحكم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تدبير أموركم في أوامره ونواهيه.

﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ وهي حفصة ﴿حَدِيثٗا﴾ أي: كلاماً أمرها بإخفائه ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ أي: أخبرت غيرها فأفشت سرّه إلى صاحبتها وهي عائشة أو إلى صواحبها نساء النبيّ ﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي: اطّلع اللّه النبيّ على إفشاء حفصة ذلك الحديث على لسان جبرئيل، وظهر الشيء أصله أن يحصل شيء على ظهر الأرض فلا يخفى وبطن إذا حصل في بطنان الأرض فيخفى.

﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾ أي: عرّف النبيّ ﷺ حفصة بعض الحديث الّذي أفشته إلى صاحبتها بأن قال لها: «ألم أك أمرتك أن تكتمي سرّي». وهو إمّا حديث الإمامة او قصّة مارية وأخبرها ببعض ما أفشت وأعرض عن بعض آخر لمكارم أخلاقه لأنّ الكريم لا يستقصي قطّ وعلى قراءة عرف بالتخفيف فمعناه غضب عليها وجازاها بأن طلّقها تطليقة أو همّ بطلاقها.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ وأخبر ﷺ حفصة بما أظهره اللّه عليه قالت حفصة: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ﴾ رسول اللّه: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ بسرائر الصدور.

ثمّ خاطب سبحانه عائشة وحفصة ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من التعاون على النبيّ بالإيذاء والتظاهر عليه والشرط وقيل في معنى الأمر: أي وجب عليكما التوبة ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ ومالت قلوبكما إلى الإثم وعدلت عن الثواب وقيل: ﴿إِن﴾ على معناه أي: إن تتوبا إلى اللّه يقبل توبتكما. ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا

﴿عَلَيْهِ﴾ بإسقاط إحدى التاءين أي: وإن يتعاونا على النبيّ بالإيذاء قال ابن عبّاس: قلت: لعمر بن الخطّاب والمرأتان اللتان تظاهرتا على رسول اللّه قال: عائشة وحفصة. أورده البخاريّ في الصحيح. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ الّذي يتولّى نصرته ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ رئيس الكرّوبين قرينه ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: يعني الأنبياء وقال الزجاج: صالح هنا ينوب عن جميع المؤمنين ولكن وردت الرواية من طريق الخاصّ والعامّ أنّ المراد بصالح المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو قول مجاهد(١).

وفي كتاب «شواهد التنزيل» بالإسناد عن سدير الصيرفيّ قال: لقد عرف رسول اللّه عليّاً أصحابه مرّتين مرّة حيث قال: من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه وأمّا الثانية فحيث نزلت هذه الآية أخذ رسول اللّه بيد عليّ فقال: «أيّها الناس هذا صالح المؤمنين». وقالت أسماء بنت عميس: سمعت أنّ النبيّ يقول: «وصالح عليّ بن أبي طالب».(٢).

قيل: إنّ رجلاً قال لإبراهيم بن أدهم: إنّ الناس يقولون لي: صالح فبم أعرف أنّي صالح فقال: أعرض أعمالك على الصالحين فإن قبلوها ووافق مع القرآن فإن وافقت فاعلم أنّك صالح.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ مع تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نصرة اللّه ورئيس الكرّوبين وناموسه الأعظم وصالح المؤمنين وزيره الّذي بمنزلة هارون من موسى ﴿ظَهِيرٌ﴾ خبر والجملة معطوفة على جملة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ وذكر نصرة غير اللّه مع الإخبار بكونه تعالى مولاه لتذكير كمال رفعة النبيّ وبيان لشأنه

١ـ انظر: الأمالي، للصدوق، ص٨٣، ونهج الأيمان، ابن جبر، ص١٩٧، وفتح الباري، ابن حجرالعسقلاني، ج١٠، ص٣٥٣، وتفسيرالقرطبي، ج١٨، ص١٨٩، وتاريخ مدينه دمشق، ابن عساكر، ج٤٢، ص٣٦٢.

٢ـ شواهدالتنزيل، ج٢، ص٣٥١.

ولكون سوق الكلام في مقام التظاهر لكون عائشة وحفصة متظاهرتين.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾ يعني: النبي ﷺ وعسى للمقاربة ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ وجواب الشرط مقدم أي: ان طلّقكن عسى ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ ويبدلكن ﴿أَزْوَٰجًا﴾ له ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ وأصلح له منكنّ ثمّ نعّمت سبحانه تلك الأزواج ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ ومسلّمات لأمر اللّه ونهيه ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدّقات اللّه ورسوله أو المعنى مصدّقات في أقوالهنّ وأفعالهنّ ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مواظبات على الطاعة والذكر ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ من الذنوب ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متذلّلات لأمر الرسول ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات سمّي الصائم سائح لأنه يسيح في النهار بلا زاد أو المراد مهاجرات من مكّة إلى المدينة ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي: مدخولات وغير مدخولات وسّط بين هاتين الكلمتين بالعاطف دون غيرهما لتنافيهما وعدم اجتماعهما في ذات واحدة بخلاف سائر الصفات ويمكن أن يكون المراد بالأبكار تعريضاً لعائشة وبالثيّبات غيرها من بعض أزواج النبيّ.

قال بعض أهل التحقيق: إنّ في الآية إشارة إلى مريم البتول وهي البكر وإلى آسية بنت مزاحم امرأة فرعون وأنّ اللّه سيزوّجه ﷺ إيّاهما في الجنّة كما روي عن ابن عبّاس قال أبو الليث: يكون وليمة في الجنّة ويجتمع عليها أهل الجنّة فيزوّج اللّه هاتين المرأتين من محمّد وبدأ في الآية بالثيّب قبل البكر لأنّ زمن آسية قبل زمن مريم.

وروي أنّ النبيّ ﷺ دخل على خديجة وهي تجود بنفسها فقال: «**أتكرهين ما نزل بك يا خديجة وقد جعل الله في الكره خيراً كثيرا فإذا قدمت على ضرّاتك فاقرئيهنّ منيّ السلام**». فقالت: من هنّ يا رسول اللّه؟ قال: «**مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وحليمة اخت موسى**». فقالت: «**بالرفاه والبنين**»[1]، وكان

١ـ بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٠، وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٦٥.

هذا دعاء الأوائل للمعرّس ثمّ نهى النبيّ عن هذا القول وأمر بقوله: «بارك لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير».

وفي الحديث: «إنّ الرجل من أهل الجنّة ليتزوّج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف ثيب وثمانية آلاف بكر يعانق كلّ واحدة منهنّ مقدار عمره في الدنيا»[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا
مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ
سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي
ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ
رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ
كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا
مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ
مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا
فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾
وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا
وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج٨، ص١٩٨.

﴿قُوٓا۟﴾ أصله اوقيوا كاضربوا أي: احفظوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتعليم جمع أهلين حذفت النون بالإضافة والمراد من الأهل كلّ من في عيال الرجل ونفقته من المرأة والولد والأخ والاخت بل قد يطلن على أصحابه.

وفي الحديث: «كلكم راع وكلكم مسؤولون عن رعيته».[1] وهو من الرعاية وكلّكم مسؤول عمّا التزم حفظه يوم القيامة فالإمام راع على الناس والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وعبد الرجل راع على مال سيّده والكلّ مسؤول وقد خصّ الأهلين لأنّ شرائط الأمر والنهي قد لا توجد في حقّ الأجانب بخلاف الأهلين وإلّا حكم الأجانب كحكمهم في الأمر والنهي لكنّ الأقرب مقدّم كما قال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[2] فإذا طهّرتم أنفسكم عن دنس المعاصي واتّباع الهوى فانصحوا إخوانكم حتّى يأتمّون بهدايتكم.

﴿نَارًا وَقُودُهَا﴾ ما يوقد به النار يعني: حطبها والوقود بالفتح اسم لما توقد به النار من الحطب وبالضمّ مصدر بمعنى الاتّقاد ﴿ٱلنَّاسُ﴾ كفّار الإنس والجنّ وإنّما لم يذكر الجنّ لأنّ كفّار الجنّ تابعة لكفّار الإنس ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي: تتّقد بها أيضاً اتّقاد غيرها بالحطب فإنّ اتّقاد النار بالحجارة مكان الحطب يكون من زيادة حرّها ولذلك قال ﷺ: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم».[1] قال ابن عبّاس: هي حجارة الكبريت ولها سرعة الاتّقاد ونتن الرائحة وكثرة الدخان وشدّة الالتصاق بالأبدان وقيل: وقودها الناس إذا صاروا إليها

١ـ الرسالة السعدية، ص١٤٩، وعوالي اللئالي، ج١، ص١٢٩، وبحار الأنوار، ج٧٢، ص٣٨.

٢ـ سورة الشعراء: ٢١٤.

١ـ صحيح البخاري، ج٤، ص ٩٠، وعمدةالقاري، ج١٥، ص١٦٥.

والحجارة قبل أن يصيروا إليها. ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك النار ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ تلي أمرها وتعذيب أهلها وهم الزبانية التسعة عشر وأعوانهم والمراد بقوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ ليس الاستعلاء الحسّيّ بل الولاية والغلبة ﴿غِلَاظٌ﴾ القلوب خالية عن الرحمة ﴿شِدَادٌ﴾ أقوياء أو غلاظ الأقوال شداد الأفعال إذا استرحموا لأنّهم خلقوا من الغضب وجبّلوا على القهر لا لذّة لهم إلّا فيه، ما بين منكبيهم مسيرة سنة أو كما بين المشرق والمغرب يضرب أحدهم بمقمعته ضربة واحدة سبعين ألفاً فيهوون في النار. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ في عقوبة الكفّار ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ من غير تثاقل وتأخير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقال لهم عند إدخال الملائكة إيّاهم في النار حسبما أمروا به: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في هذا اليوم والعذر تجري الإنسان بما يمحو به ذنوبه ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي بعد ما نهيتم عنها أشدّ النهي فلا عذر لكم أبداً وقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فمواقف القيامة كثيرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أبلغ وجوه الاعتذار مثل أن تقول: فعلت وأسأت وفي الشرع ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك والنصح جري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه والنصوح فعول من أبنية المبالغة أي بالغة في النصح وصفت التوبة بذلك على الإسناد المجازيّ وهو وصف التائبين وهو أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة ويأتوا بها على طريقها.

وفي الحديث قال ﷺ: «أيها الناس توبوا إلى الله فإنّي أتوب إلى الله في اليوم مائة مرّة»[1]. وتوبة العوامّ عن الزلّات والخواصّ عن الغفلات والأخصّ عن رؤية الحسنات ومراتب التوبة كمراتب التقوى فكما أنّ أوّل مراتب التقوى

١ـ مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٦٠، ومجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤٣.

هو الاجتناب عن المنهيّات وآخرها الاتّقاء عن الأنانيّة، فكذلك التوبة أولها الرجوع عن المعاصي وآخرها الرجوع عن ذنب الوجود الآنيّة والإقبال حقيقة على طاعة اللّه بحيث لا يكون له غير الطاعة شغل يشغله وهذه التوبة ترفو جميع خروق وقعت في ثوب دينه وبالجملة النصوح في التوبة الصدق فيها وترك ما منه تاب سرّاً وعلناً قولاً وفكراً وهي واجبة على الفور لما في التأخير من الإصرار على المحرّم والإصرار يجعل الصغيرة كبيرة وقصّة النصوح معروفة وقد شرح حاله المولوي في المثنويّ فراجعه.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يسترها بل يمحوها ويبدلها حسنات ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قيل: ورود صيغة المقاربة والإطماع والترجية على سنن الكبرياء فإنّ الملوك يجيبون بلعلّ وعسى ويقع ذلك موقع القطع والإشعار بأنّه تفضّل وأنّ العبد ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء وإن بالغ في وظائف العبوديّة. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ظرف متعلّق ليدخلكم والخزي إمّا الفضاحة فيكون تعريضا للكفرة أو من الخزاية بمعنى الحياء والخجل وهو الأنسب هنا بالنظر إلى شأن الرسول وإن أريد المعنى الأوّل فباعتبار أنّ خزي الامّة لا يخلو عن إنشاء خزي كما قالﷺ في دعائه: «اللّهم لا تخزنا يوم القيامة».[1] ولم يقل: لا تخزني ليكون دعاؤه عامّا لأمّته وأدخل فيهم نفسه العالية من كمال مروّته وقيل: الخزي كناية عن العذاب للملازمة بينهما والأولى العموم لكلّ خزي يكون سبباً من الأسباب من الحساب والكتاب والعقاب وغيرها. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ عطف على النبيّ ومعه صلة أي لا يخزي معه الّذين آمنوا واتّبعوه في الإيمان ﴿نُورُهُمْ﴾ أي: نور إيمانهم وطاعتهم على الصراط ﴿يَسْعَىٰ﴾ السعي المشي

١ـ كنزالعمال، ج٢، ص٢٠١، والدرالمنثور، ج٢، ص١١١.

القويّ السريع إشارة إلى اللمعان ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: قدّامهم يراد بين أيديهم قدّام الشيء لكونه بين اليدين غالباً ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي: وعن أيمانهم وتخصيص الجهتين لأنّ أرباب السعادة يؤتون صحائف أعمالهم منها كما أنّ أصحاب الشقاوة يؤتون من شمائلهم ومن وراء ظهورهم فلكون ذلك علامة لذلك وقائداً على الصراط إلى دخول الجنّة وفي الحديث من المؤمنون من نوره أبعد ما بيننا وبين عدن ومنهم من نوره لا يجاوزه قدمه. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: المؤمنين يقولون ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ المراد بالإتمام الإدامة إلى أن يصلوا إلى دار السلام ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإتمام والمغفرة ويمكن أنّ نورهم لمّا كان بحسب أعمالهم متفاوتاً فيسألون إتمامه تفضّلاً فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ من باب بنو فلان قتلوا زيداً.

ثمّ إنّ الأنوار كثيرة نور الصفات ونور الأفعال ونور العبادات مثل الصلاة والوضوء كما قال ﷺ: «**والصلاة نور**»[1]. والسرّ فيه أنّ المصلّي يناجي ربّه ويتوجّه إليه وقد قال ﷺ: «**إنّ العبد إذا قام يصلّي فإنّ الله ينصب له وجهه للقائه**». والله نور النور فالذات المظلمة إذا واجهت الذات المنيرة وقابلتها بمحاذاة صحيحة فإنّها تكتسب إلّا ترى أنّ القمر الّذي هو في ذاته جسم أسود مظلم كمد كثيف كيف يكتسب النور بالمقابلة وكيف يتفاوت نوره بحسب التفاوت الحاصل في المحاذاة والمقابلة فإذا تمّت المقابلة كمل اكتساب نوره وفي الحديث: «**بشّر المشّائين في الظلم إلى المساجد بالنور التامّ يوم القيامة**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وجاهد المنافقين بالحجّة والموعظة والقول الرادع عن القبيح لا بالحرب لأنّه فيه أيضاً بذل المجهود فلذلك سمّي جهاداً وإنّ رسول الله لم يقاتل منافقاً قطّ إنّما كان

١ـ مستدرك الوسائل، ج٣، ص٩٢، والجامع الصغير، للسيوطي، ج٢، ص١٢٠.

يتألّفهم وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قرء: «جاهد الكفّار بالمنافقين»[1].

﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اشدد عليهم قيل: أي: على المنافقين من غير محاباة وقيل: اشدد عليهم في اقامة الحدّ عليهم قال الحسن: أكثر من كان يصيب الحدود في ذلك الزمان المنافقون فأمر الله تعالى أن يغلظ عليهم في الحدود.

﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ أي: الكفّار والمنافقين ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ والمستقرّ.

ثمّ مثل الله وضرب لأزواج النبي صلى الله عليه وآله مثلاً حثّا لهنّ على الطاعة وبيانا لهنّ أنّ مصاحبة النبيّ مع مخالفته لا ينفعهنّ فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضرب المثل عبارة عن إيراد حالة غريبة لنعرف بها حالة اخرى مشاكلة لها في الغرابة أي جعل الله مثالا لحال هؤلاء الكفّار حالاً ومالا ومثلا مفعول ثان لضرب ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي: حالهما وامرأة نوح اسمها واعلة أو والعة وامرأة لوط هي واهلة.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ والمراد بكونهما تحتهما وكونهما في حكمهما وتصرّفهما بعلاقة النكاح وصالحين صفة عبدين أي كانتا تحت نكاح نبيّين وفي عصمة رسولين وحيازة سعادتهما ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بيان لما صدر عنها من الخيانة العظيمة بالكفر والنفاق والنسبة إلى الجنون والدلالة على الأضياف ليتعرّضوا لهم بالفجور والمراد بالخيانة هذه الأمور لا البغاء فإنّه ما بغت امرأة نبيّ قطّ فالبغيّ للزوجة أشدّ في إيراث الأنفة لأهل العار والناموس من الكفر وإن كان الكفر أشدّ منه جرما يؤاخذ به العبد يوم القيامة. ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي: فلم يغن النبيّان ﴿عَنْهُمَا﴾ عن تينك المرأتين بسبب حقّ الزواج ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: من عذاب الله ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء أي: لم يدفعا العذاب عنهما فغرقت امرأة نوح وأمطرت بالحجارة امرأة لوط.

١ـ التبيان، ج٥، ص٢٦٠، ومجمع البيان، ج١٠، ص٦٣، وبحاالانوار، ج١٩، ص١٥٦.

﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتها أو يوم القيامة وصيغة الماضي للتحقيق قاله الملائكة الموكّلون بالعذاب: ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ من الكفرة المعذّبين وجمع المذكّر لأنّهنّ لا ينفردن بالدخول وإذا اجتمعا فالغلبة للذكور فتحقّق أنّ الاتّصالات الدينيّة والروحانيّة هي المؤثّرة فحسب وأمّا العلائق الصوريّة والدنيويّة لا يبقى لها أثر بعد الموت.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ سبحانه حالها مثلاً لحال المؤمنين بأنّ وصلة الكفر لا يضرّها حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء اللّه وهي في أعلى غرف الجنّة والمراد آسية بنت مزاحم وفي الآية حثّ للمؤمنين على الصبر في الشدّة والثبات في الدين حتّى لا يكونوا أضعف من امرأة فرعون. ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي﴾ بيد قدرتك ﴿عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: قريباً من رحمتك لأنّ اللّه منزّه عن الحلول في مكان أو المراد ابن لي من عند كرمك وفضلك لا باستحقاق منّي قيل: إنّها لمّا قالت: ذلك: رفعت الحجب حتّى رأت بيتها في الجنّة من درّة بيضاء وانتزع روحها ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ الجاهل وعمله الباطل وسوء جواره ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عن القبط التابعين له في الظلم.

روي أنّه لمّا غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون وقيل: هي عمّة موسى فلمّا تبيّن لفرعون إسلامها طلب منها أن ترجع عن إيمانها فأبت فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وربّطها في الشمس فأمر اللّه ملائكته أن يظلّوها بأجنحتهم وأراها اللّه بيتها في الجنّة بحيث نسيت ما هي فيه من العذاب فضحكت فعند ذلك قالوا هي مجنونة تضحك وهي في العذاب. وقال الضحّاك: أمر فرعون بأن يلقى عليها حجر رحى وهي في الأوتاد فقالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ فما وصل الحجر إليها حتّى رفع روحها

إلى الجنّة فألقي الحجر عليها بعد خروج روحها، ومسألة الخلاص والالتجاء إلى اللّه عند المحن والبلاء من سير الصالحين ويحسن إظهار التجلّد للمهدي ويقبح غير العجز عند الأحبّة.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطف على امرأة فرعون والمعنى وضرب اللّه مثلاً للّذين آمنوا حال مريم ابنة عمران ومريم بمعنى العابدة عندهم الإحصان العفاف أي حفظت فرجها عن مساس الرجال مطلقاًحراماً وحلالا. وقال السهيليّ: معنى إحصان الفرج طهارة الثوب يريد فرج القميص يعني: لم يعلّق بثوبها ريبة وسمّي الفرج بالسوءة استعارة من هذا المعنى وفروج القميص أربعة الكمّان والأعلى والأسفل فلا يذهبنّ وهمك إلى غير هذا لأنّ القرآن أنزه معنى وأوجز لفظا وأحسن عبارة من أن يريد معنى ذهب إليه الناس. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ الباء سببيّة أي: نفخنا والنفخ الريح في الشيء بسبب ذلك الإحسان في ما انفرج من جيبها وفرج درعها وهو إلى التذكير أقرب وإذا كان المراد من الفرج معنى المتبادر المعروف فحينئذ قوله: ﴿فِيهِ﴾ من باب الاستخدام وأراد بالضمير معنى الثاني الّذي فسّره السهيليّ بالدرع وفروجه وقد نفخ جبرئيل في قميصها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي: من روح خلقناه بلا توسّط أصل وأضاف الروح إلى ذاته تفخيماً لها وتشريفاً لعيسى أو المعنى من جهته روحنا جبرئيل. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ معطوف على أحصنت أي: آمنت بالصحف المنزلة على الأنبياء أو أيقنت بالبشارات وبما يكلّم اللّه به وأوحاه ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ المنزلة على رسله مثل التوراة والإنجيل متقدّمة أو متأخّرة ومن وحّد وقرء وكتابه فالمراد الإنجيل ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ ومن المطيعين المعتكفين في المسجد الأقصى والتذكير لتغليب المذكّر فإنّ مريم جعلت داخلة في ذلك اللفظ مع المذكّرين والإشعار بأنّ طاعتها لم تقصر عن طاعات

الرجال حتّى عدّت من جملتهم أو كانت من القانتين أي من نسلهم لأنّها من أعقاب موسى وهارون ولأنّ رهطها وعشيرتها كانوا من أهل بيت طاعة وصلاح وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الكمّل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا أربعة: آسيه امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله»[1].

تمّت السورة.

۱ـ تفسير الصافي، ج۵، ص۱۹۸.

سُورَةُ المُلْك

وتسمّى سورة المنجية لأنّها تنجي صاحبها من عذاب القبر وقد ورد به الخبر. وتسمّى الواقية لما روي أنّها الواقية من عذاب القبر، وهي مكّيّة.

فضلها: أبيّ بن كعب عن النبيﷺ: **«ومن قرء سورة تبارك فكأنّما أحيا ليلة القدر»**؛ وعن ابن عبّاس قال: قال رسول اللهﷺ: **«وددت أنّ تبارك في قلب كلّ مؤمن»**. وعن أبي هريرة قال النبيﷺ: إنّ سورة تبارك من كتاب الله ما هي إلّا ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة من النار فأدخلته الجنّة. وعن ابن مسعود قال: إذا وضع الميّت في قبره يؤتى من قبل رجليه فيقال: ليس لكم عليه سبيل لأنّه قد كان يقوم بسورة الملك ثمّ يؤتي من قبل رأسه فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل لأنّه يقرء بي سورة الملك ثمّ قال: هي المانعة من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك من قرأها فقد أكثر وأطنب ولم يكتب من الغافلين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا
مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ

﴿ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

البركة الثبوت والنماء والزيادة باعتبار تعاليه عمّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله وأمّا قوله: تخلّقوا بأخلاق الله فباعتبار اللوازم وبقدر الاستعداد من حصول فيوضاته سبحانه لا باعتبار الحقيقة فمثل إحياء عيسى الأموات من الله على يده بقدر استعداده منه تعالى له ﴿ٱلَّذِي﴾ بقبضته ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ والتصرّف الكلّيّ بأمر ونهي وإعطاء ومنع وإحياء وإماتة وغيره ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ الموصول بدل الموصول الأوّل والحياة ما يصحّ بوجوده الإحساس والموت عدم ذلك وقوله ﷺ: «**يذبح الموت بين الجنّة والنار على صورة كبش**». ولا شكّ أنّ الذبح إنّما يتعلّق بالأعيان لأنّ عالم الآخرة عالم الصفة يعني إنّ كلّ صفة باطنة في الدنيا تتصوّر بصورة ظاهرة في العقبى حسنة أو قبيحة فلا شيء من المعاني إلّا وهو مجسّم مصوّر.

ومعنى قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ إيجاد ذلك المصوّر وإعدامه وإيجاد أثر الحياة بنفخ الروح وإضاءة ظاهر البدن وباطنه وإيجاد أثر الموت بقطع ضوء الروح عن ظاهر الحيّ وباطنه ويجعله معدوم الحركة فعدم تلك الملكة ليس عدماً محضاً بل فيه شائبة الوجود وإلّا لم يعتبر فيه المحلّ القابل للأمر الوجوديّ فلذلك صحّ تعلّق الخلق بالموت كتعلّقه بالحياة وهذا التقرير دفع لما اعترضوا به من أنّ العدم حال يكون مخلوقاً هذا كلّه إذا كان الموت أمراً وجودياً في الجملة ولكن لو كان الموت عبارة عن عدم الحياة فمعنى ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: قدّر الموت فإنّ الخلق يجيء بمعنى التقدير فمن جعله نصب عينه أفلح وفي الحديث «**لو لا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر والمرض**

والموت».[1] ثمّ إنّ الألف واللّام في ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ عوض عن المضاف إليه أي: موتكم وحياتكم أيّها المكلّفون. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللّام لام العلّة والغرض خلافا للأشاعرة أي ليعاملكم معاملة المختبر حتّى يجازيكم بموجب عملكم والبلوى الاختبار وليس هنا على حقيقته لأنّ الاختبار إنّما يتصوّر ممّن يخفى عليه عواقب الأمور فالابتلاء من اللّه أن يظهر من العبد ما كان يعلم منه في الغيب لأنّه رتّب سبحانه الجزاء بعد وقوع الفعل ولو أنّه سبحانه يعلم الفعل من العبد قبل وقوعه لكنّ الجزاء يقع على تفاوت المراتب والطبقات من العلم والعمل وأنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح ولذلك فسّره صلى الله عليه وآله بقوله: «**أيّكم أحسن عقلاً وأورع من محارم الله وأسرع في طاعته**[2] **وأتمّ عقلاً لمراده تعالى**».

وأفضل العمل وأوجبه وأولاه معرفة اللّه وطريقها النظر والتفكّر في بدائع صنعه وآياته المنصوبة في الأنفس والآفاق كما قال صلى الله عليه وآله: «**لا تفضّلوني على يونس بن متّى فإنّه كان يرفع له كلّ يوم مثل عمل أهل الأرض**». وذلك لكمال تدبّر يونس عليه السلام في بدائع صنعه تعالى ضرورة أنّ أحداً لا يقدر على أن يعمل بجوارحه كلّ يوم مثل عمل أهل الأرض والحديث إشارة إلى أنّ أعمال المقرّبين واحد منها مقابل بمائة ألف باعتبار التفاوت بالنسبة إلى الأشخاص مثل بيتوتة أمير المؤمنين تلك الليلة في فراش رسول اللّه ولعلّ المراد من الحديث في قوله: «مثل عمل أهل الأرض» أهل الأرض في زمانه وقوله: «**لا تفضّلوني خضوع منه** صلى الله عليه وآله». ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ والحال أنّه غالب على حكمه غفور لمن تاب منهم.

١ـ تفسير القرطبي، ج١٨، ص٢٠٦، والدعوات، ص١٧١، والخصال، ص١١٣.

٢ـ بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٢٣، وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص٦٩، وتفسير الصافي، ج٢، ص٤٢٣.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ أبدعها من غير مثال ﴿طِبَاقٗا﴾ صفة للسموات والصفة للأعداد يكون للمضاف إليه مثل[1] ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ وطابقت بين الشيئين إذا جعلتها على حذو واحد وألزمتها والمعنى مطابقة بعضها فوق بعض وسماء فوق سماء غلظ كلّ سماء خمسمائة عام وكذا جوّها بلا علاقة ولا عماد ولا مماسّة فالسماء الاولى: على ما قيل: موج ممنوع من السيلان والثانية: من درّة بيضاء والثالثة: من حديد والرابعة: من نحاس أو صفر والخامسة: من فضّة والسادسة: من ذهب والسابعة: من ياقوتة حمراء وما فوقها من الكرسيّ والعرش بحار من نور. ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ والخطاب لرسوله أي: اختلاف وتناقض من طريق الحكمة وليس فيها عدم تناسب بل مستو مستقيم قيل: سلب التفاوت عنها مطابقة بعضها بعضا وحسن انتظامها لأنّ أحد المتفاوتين يفوت منه بعض ما في الآخر فحينئذ لا يلائمه فلو قيل: إنّ التفاوت حاصل فيها أو في المخلوقات كما نشاهد مثل أنّ الليل غير النهار وفي السماء الاولى امور ليس في الثانية وهكذا فكيف يكون ليس في خلق الرحمن من تفاوت فالجواب بأنّ المعنى ليس تناقص أو تزايد غير محتاج إليه أو محتاج إليه بل الكلّ مستقيمة على قدر موافق للحكمة لا ينبغي أن ينقص منها شيء أو يزيد فيها شيء. ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ أي: ردّ البصر وأدره واستقص في النظر في السماء هل ترى شقوق وفتوق أو وهن وخلل؟

﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ أي: كرّر النظر وأدم وارجع النظر والبصر مرّة بعد اخرى ولا يريد حقيقة التثنية لقوله: ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ ولا يصير حسراً بمرّتين وذلك مثل قولهم: لبّيك وسعديك والمعنى إلباباً بعد إلباب وإسعاداً بعد إسعاد

١ـ سورة يوسف: ٤٣.

كلّما دعوتني فأنا ذو إجابة وثبات بمكاني بعد ثبات من قولهم: لبّ بالمكان وألبّ إذا أقام. ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: يرجع إليك بصرك بعيدا عن نيل المراد ذليلاً صاغرا ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: طال، وخاسئاً حال من البصر يقال: خسأ الكلب تباعد من ذلّه كأنّه زجر وطرد مستهيناً به وذلك إذا قيل له: اخسأ.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ تصدير الجملة بالقسم لإبراز بيان خلوّها عن شائبة القصور وكونها في غاية الحسن والانتظام أي وبالله لقد زيّنّا أقرب السماوات إلى الأرض والناس وجمّلناها، والدنيا تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بالسرج والتنكير للتعظيم يعني: بكواكب مضيئة بالليل كإضاءة السرج من السيّارات والثوابت تتراءى كلّها مع أنّ بعضها في سائر السماوات لكن لمّا كانت السماوات صافية وأجراماً شفّافة فهي لا بدّ وأن تظهر وتلوح منها.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: المصابيح المعبّر بها عن النجوم ﴿رُجُومًا﴾ جمع رجم بالفتح وهو ما يرجم به ويرمي للطرد والزجر أو جمع راجم كسجود جمع ساجد ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وهم كفّار الجنّ والمعنى وجعلنا للكواكب فائدة اخرى هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من الكواكب لا نفس الكواكب فإنّها قارّة في الفلك على حالها فمنهم من يقتله الشهاب ومنهم من يفسد عضوا من أعضائه أو عقله والشهاب شعلة ساطعة من نار تنفصل من النجم فأطلق عليها النجم. وقالت الفلاسفة: إنّ الشهب هي أجزاء ناريّة تحصل في الجوّ عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة واتّصالها بالنار الّتي دون الفلك وهذا القول بمعزل عن القبول مع الآية ودلائل لا يسع هذا المقام بيانه. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: هيّأنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب عذاب النار المسعرة الموقدة.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا

شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ
﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرهم بسبب كفرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي: الدركة الناريّة الّتي تلقاهم بالتجهّم والعبوسة والكلوحة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنّم ويجوز أن يكون جهنّم من الجهنام وهي بئر بعيدة القعر.

ودركات النار سبع وهي جهنّم ثمّ لظى ثم الحطّة ثمّ السقر ثمّ الجحيم ثمّ الهاوية ولكن كلّ من هذه الأسماء يطلق على جهنّم وكلّ فرقة دركة من الدركات السبع كعصاة أهل التوحيد والنصارى واليهود والصابئة والمجوس والمشركين والمنافقين، ولم يذكروا الشياطين في واحدة من الدركات السبع ولعلّهم يقسّمون على مراتب إضلالهم وضلالهم كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾[1] أي: مع شياطينهم.

﴿إِذَا أُلْقُوا﴾ أي: الّذين كفروا في جهنّم وطرحوا كما يطرح الحبّ في النار وفي تعبير الإلقاء دون الإدخال إشعار بتحقيرهم وكون جهنّم سفليّة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ لجهنّم نفسها ﴿شَهِيقًا﴾ أي: صوتاً كصوت الحمار الّذي هو أنكر الأصوات وأفظعها غضبا عليهم وهو حسيس النار قالوا: الشهيق في الصدر والزفير في الحلق أو الشهيق آخر صوت الحمير والزفير أوّله والشهيق ردّ النفس والزفير إخراجه. ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ والحال أنّها يغلي لهم غليان المرجل بما فيها من شدّة التلهّب والتعسّر فهم لا يزالون صاعدين هابطين كالحبّ إذا كان الماء يغلي به لا قرار لهم أصلاً والفور شدّة الغليان وفعلت كذا من فوري أي

١ـ سورة ابراهيم: ٤٩.

من غليان الحال ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يقال: فلان يكاد ينشقّ من غيظه إذا وصف بالإفراط في الغضب والتميّز الانفصال والتقطّع وتميّز أصله تتميّز أي يقرب من شدّة غيظها أن يتمزّق تركيبها واستعير لفظ الغيظ لهذا الاستعمال استعارة تصريحيّة وذلك كلّه لغضب سيّدها وتأتي يوم القيامة تقاد إلى المحشر بألف زمام لكلّ زمام سبعون ألف ملك وهي من شدّة الغيظ تقوى على الملائكة وتحمل على الناس فتقطع الأزمة وتحطم أهل المحشر وتقول: لأنتقمنّ اليوم ممّن أكل رزق الله وعبد غيره فلا يردّها عنهم إلّا النبيّ ﷺ يقابلها بنوره فترجع مع أنّ لكلّ ملك من القوّة ما لو أن أمر به أن يقتلع الأرض وما عليها من الجبال ويصعد بها فعل من غير كلفة قال ﷺ: **«لقد أدنيت منّي النار حتّى جعلت أنفعها خشية أن تغشاكم»**.

قال جعفر الطيّار: كنت مع النبيّ في طريق فاشتدّ عليّ العطش فعلمه النبيّ ﷺ وكان حذاءنا جبل. فقال ﷺ: **«بلّغ منّي السلام إلى هذا الجبل وقل له يسقيك إن كان فيه ماء»**. قال: فذهبت إليه قلت: السلام عليك أيها الجبل. فقال الجبل بنطق فصيح: لبّيك يا رسول الله فعرضت القصّة. فقال الجبل: بلّغ سلامي إلى رسول الله وقل: منذ سمعت قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[1] بكيت لخوف أن أكون من الحجارة الّتي هي وقود النار بحيث لم يبق فيّ ماء. ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ أي: في جهنّم ﴿فَوْجٌ﴾ جماعة الكفرة بدفع الزبانية ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ أي: سأل الخزنة والزبانية ذلك الفوج وضمير الجمع باعتبار المعنى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ في الدنيا ﴿نَذِيرٌ﴾ منذر يتلو عليكم آيات ربّكم وينذركم لقاء يومكم هذا والإنذار لا يكون إلّا في التخويف.

﴿قَالُوا۟﴾ اعترافا: ﴿بَلَىٰ﴾ لايجاب نفي إتيان التذكير ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا

١ـ سورة البقرة: ٢٤.

وَقُلْنَا﴾ ذلك النذير في كونه نذيراً من الله فإن قلت: هذا يقتضي أن لا يدخلها الفاسق المصرّ لأنّه لم يكذّب النذير فالجواب أنّ الأدلّة السمعيّة دلّت على تعذيب العصاة مطلقاً ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء فضلا عن تنزيل الآيات عليكم وقيل: المراد ما نزّل الله من كتاب ولا رسول ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم أيّها الرسل في هذا الادّعاء ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ بعيد عن الحقّ.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ من النذر وما جاءونا به ودعونا إليه ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ولو كنّا نسمع من يعي ونتفكّر ونعقل عقل من يميّز ما كنّا من أصحاب السعير وعن أنس قال: أثني قوم على رجل عند رسول الله ﷺ فقال ﷺ: **«كيف عقل الرجل؟»**. قالوا: نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال ﷺ: **«إنّ الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وإنّما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم»**[1]. ثمّ قال: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ في ذلك الوقت الّذي لا ينفعهم الإقرار فيه والإقرار من قرّ الشيء يقرّ قراراً إذا ثبت والاعتراف مأخوذ من المعرفة وهو الإقرار عن معرفة والذنب مصدراً لا يثنّى ولا يجمع ويفيد فائدة الجمع بكونه اسم الجنس وشامل للقليل والكثير أو أريد به الكفر وهو وإن كان على أنواع فهو على ملّة واحدة.

﴿فَسُحْقًا﴾ مصدر إمّا لفعل من المزيد بحذف الزائد أي: فأسحقهم الله من رحمته سحقا أي إسحاقاً وإبعاداً أو أنّهم سحقوا سُحقاً أي بعدوا بُعداً ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقيل: ألزمهم الله سُحقاً عن الخير وبعداً عن الرحمة فجاء المصدر على غير لفظه مثل ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾[2] ومعنى سحقته باعدته بالتفريق

١ـ تحف العقول، ص٥٤، ومستدرك الوسائل، ج١١، ص٢٠٩، وبحار الأنوار، ج٧٤، ص١٥٨.

٢ـ سورة آل عمران: ٣٧.

عن حال اجتماعه حتّى صار كالغبار واللام في قوله: ﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للبيان.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ
ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ
﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ
وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ
نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ
فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ
هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾
أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ ويخافون عذابه وهو عذاب القيامة ويوم الموت ويوم القبر خوفاً وراء عيونهم حال كون ذلك العذاب غائبا عنهم ولم يعاينوه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ولمّا كان السرور إنّما يتمّ بالإعطاء قال: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ثواب عظيم في الآخرة قال مسروق: إنّ المخافة قبل الرجاء فإنّ اللّه خلق جنّة ونارا فلن تخلصوا الجنّة حتّى تمرّوا بالنار قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1].

قال فضيل بن عياض: إذا قيل لك: أ تخاف اللّه؟ فاسكت فإنّك إن قلت: لا فقد جئت بأمر عظيم وإذا قلت: نعم فالخائف لا يكون على ما أنت عليه إلّا ترى أنّ اللّه لمّا اتّخذ إبراهيمعليه السلام خليلاً ألقى في قلبه الوجل حتّى أنّ خفقان قلبه يسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء.

١ـ سورة مريم: ٧١.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ قال ابن عبّاس نزلت في المشركين كانوا يتكلّمون في شأن النبيّ فيما بينهم بأشياء فيظهره الله رسوله عليها فقال بعضهم لبعض أسرّوا قولكم كيلا يسمع ربّ محمّدﷺ فيخبره بما تقولون فقال لهم: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ﴾ الآية ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وبمضمرات جميع الناس وأسرارهم وبما في قلوبهم.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: إلّا يعلم الله من خلقه ﴿وَهُوَ﴾ والحال أنّه ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ العالم بدقائق الأشياء ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المطّلع ببواطنها وإنّما يستحقّ اسم اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ثمّ يسلك في إيصالها إلى المستصلح على سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك ثمّ معنى اللطف ولا يتصوّر كما ذلك في العلم والفعل إلّا لله.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ لمنافعكم اختلفوا في مبلغ الأرض وكميّتها قال مكحول: ما بين أقصى الدنيا إلى أدناها مسيرة خمسمائة سنة مائتان من ذلك في البحر ومائتان ليس يسكنها أحد وثمانون فيها يأجوج ومأجوج وعشرون فيها سائر الخلق، قال قتادة: بسيطها من حيث محيط بها البحر المحيط أربعة وعشرون ألف فرسخ فملك السودان منها اثنا عشر ألف فرسخ وملك الروم ثمانية آلاف فرسخ وملك العجم والترك ثلاثة آلاف فرسخ وملك العرب ألف فرسخ، قال عبد الله بن عمر: ربع من لا يلبس الثياب من السودان أكثر من جميع الناس.

وقد خرّج بطلميوس مقدار قطر الأرض في «المجسطي» بالتقريب وهو كتاب له يذكر فيه القواعد الّتي يتوسّل بها في بيان الأوضاع الفلكيّة والأرضيّة قال: بسيط الأرض مائة ألف وثمانون ألف أسطاربوس وهي أربعة وعشرون ألف ميل فتكون على هذا ثمانية آلاف فرسخ والفرسخ ثلاثة أميال وثلاثة

آلاف ذراع بالمكّيّ والذراع ثلاثة أشبار وكلّ شبر اثنتا عشر إصبعاً والأصبع خمس شعيرات مضمومات بطون بعضها إلى بعض وعرض الشعيرة الواحدة ستّ شعرات بغل والأسطاربوس أربعمائة ألف ذراع. قوله: ﴿ذَلُولًا﴾ أي: منقادة يسهل عليكم السلوك فيها والسكونة بها ولتتوصّلوا إلى ما ينفعكم والذلّ بالضمّ والكسر ضدّ الصعوبة والذلّ بمعنى الهوان بالضمّ فقط والذلول فعول بمعنى الفاعل ولذا عري عن علامة التأنيث مع أنّ الأرض مؤنّث سماعيّ. ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ والأمر أمر إباحة أي: فاسلكوا في جوانبها حيث إنّ منكبي الرجل جانباه واستعير للأرض كاستعارة الظهر لها في قوله:[1] ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ والمراد من مناكب الأرض جبالها وشبّهت بالمناكب من حيث الارتفاع. ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ من الحبوب والفواكه ونحوها ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله وحده ﴿النُّشُورُ﴾ والمرجع بعد البعث.

﴿ءَأَمِنتُم﴾ استفهام توبيخ ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أي: هل أمنتم من عذاب ملائكة السماء الموكّلين بتدبير أمر العالم أو الله سبحانه لا أنّه تعالى في جهة السماء لأنّ ذلك من صفات الأجسام والمراد بالفوقيّة القدرة والسلطنة لا فوقيّة الجهة مثل رفع الأيدي إلى السماء في الدعاء لكونها محلّ البركات وقبلة الدعاء ويجوز أن يكون الظرفيّة باعتبار زعم العرب حيث كانوا يزعمون أنّه تعالى في السماء فحينئذ المعنى: أنتم من تزعمون أنّه في السماء. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ ويقلبها عليكم فيغيبكم فيها كما فعل بقارون والباء في مثل هذه المواضع للتعدية وخسف الله به الأرض أي: غاب به فيها ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ وتضطرب وتتحرّك وأنتم مخسفون فيها والأرض تدور بكم إلى الأرض السفلى والمور التردّد في الذهاب والمجيء في مثل الموج.

١ـ سورة فاطر: ٤٥.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل والمعنى هل جعل لكم من هذين أماناً؟ وإذ لا أمان لكم منهما فما معنى تماديكم في شرككم وعصيانكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري عند مشاهدتكم للمنذر به أهو واقع أم لا؟ أ شديد أم ضعيف؟

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل كفّار مكّة من كفّار الأمم السابقة كالمذكورين وأضرابهم والالتفات إلى الغيبة إشعار بالإعراض عنهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بإنزال العذاب وإنكار الله على عبده أن يفعل به أمراً صعباً هائلاً لا يعرف.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ فالرؤية بصريّة لأنّها تتعدّى بإلى وأمّا القلبيّة فتعديتها بفي والطير يطلق على جنس الطائر إمّا لكون جمعه في الأصل مثل ركب وراكب أو مصدره جعل اسماً لجنسه. ﴿فَوْقَهُمْ﴾ ظرفا ليروا أو حالاً من الطير أي كائنات فوقهم ﴿صَافَّاتٍ﴾ والصفّ أن يجعل الشيء على خطّ مستو كالناس والأشجار والمعنى باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانها فإنّهنّ إذا بسطنها صففن قوادمها صفّاً وهي عشر في كلّ جناح الواحدة قادمة. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهنّ حينا فحينا للاستظهار به على التحرّك فإنّ الطيران كالسباحة في الماء فكما أنّ السباحة مدّ الأطراف وبسطها فكذا الطيران لا بدّ فيه صفّ الأجنحة وبسطها وحاصل المعنى أنّ الطير في الطيران صافّات وقابضات ولذا جاز العطف مع أنّ الثانية فعليّة. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوّ عن السقوط عند الصفّ والقبض على خلاف مقتضى الطبع الجسمانيّ فإنّه يقتضي الوقوع إلى السفل ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ الواسع رحمته كلّ شيء بأن خلقهنّ على خصائص وصنع تركيب للجري في الهواء

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم تدبير العجائب ويشاهد وينكشف له كمال صفات المبصرات.

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أم منقطعة مقدّرة ببل لتوبيخه والمعنى بل من هذا الحقير الّذي هو في زعمكم جند لكم وعون من آلهتكم ينصركم عند نزول الآفات والعذاب من غير اللّه وينصركم نصراً كائناً من دون نصره تعالى أو حاصل الكلام أنّ اللّه الّذي له هذه الأوصاف ينصركم وينجيكم من الخسف والحصب إن أصابكم أم الّذي تزعمون أنّه جند لكم وعلى هذا المعنى أم متّصلة. ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ إن نافية أي: ما هم في زعمهم أنّهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم وأنّ آلهتهم يحفظهم من بأس اللّه إلّا في غرور عظيم. ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ﴾ ويعطيكم الرزق ﴿إِنۡ أَمۡسَكَ﴾ الرّحمن وحبس ﴿رِزۡقَهُۥۚ﴾ بإمساك المطر ومباديه ولو كان الرزق موجوداً أو كثيراً وسهل التناول فوضع الأكلة في فمه فأمسك اللّه عنه قوّة الابتلاع عجز أهل السماوات والأرض عن أن يسوغوه تلك اللقمة كما يقع هذا الأمر أحياناً لبعض المرضى. قيل: كان الكفّار يمتنعون عن الإيمان ويعاندون الرسولﷺ معتمدين على شيئين: أحدهما: بمالهم وعددهم والثاني: اعتقادهم أنّ الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات وتدفع عنهم الآفات فأبطل اللّه عليهم الأوّل بقوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾ إلخ، وردّ عليهم الثاني بقوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ﴾ إلخ.

﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ الكلام منبئ عن مقدّر يستدعيه المقام كأنّه قيل: إنّهم لم يذعنوا للحقّ بل لجّوا وتمادوا في عتوّ وعناد واستكبار وشراد عن الحقّ.

أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣
قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦ فَلَمَّا رَأَوۡهُ
زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ٢٧
قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ
أَلِيمٖ ٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ
مُّبِينٖ ٢٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ﴾ مثل ضرب للمشرك والموحّد توضيحاً لحالهما والفاء لترتيب البيان وتقديم الهمزة على إلغاء صورة لاقتضائها الصدارة وأمّا بحسب المعنى فالأمر بالعكس حتّى لو قيل مكان الهمزة «هل» لقيل: فهل يمشي مكبّاً والمكبّ الساقط على وجهه والمعنى فمن يمشي وهو يعثرّ في كلّ ساعة ويخرّ على وجهه في كلّ خطوة لتوعير طريقه واختلال قواه أشدّ هداية ورشدا إلى المقصد الّذي يؤمّه. ﴿أَمَّن﴾ أي: هو أهدى أم من ﴿يَمۡشِي سَوِيًّا﴾ قائماً سالماً من العثار ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مستوي الأجزاء وقيل: المكبّ كناية عن الأعمى قيل للنبيّ: وكيف يمشون على وجوههم؟ قال ﷺ: «**إنّ الّذين أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم**»[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ﴾ أيها الكفّار إنشاء بعيداً بأن صوّركم فأحسن صوركم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾ لتسمعوا آيات الله وتعملوا بموجبها وقدّم السمع لأنّ فوائد السمع أقوى بالنسبة إلى عموم الناس وإن كانت فوائد البصر أعلى بالنسبة إلى الخواصّ ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات الكونيّة الشاهدة

١ـ مسند أحمد، ج٢، ص٣٦٣، والتبيان، ج٧، ص٤٨٩، وسنن الترمذي، ج٤، ص٣٦٧.

بشئون الخالق ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ والقلوب لتتفكّروا بها فيما تسمعونه وتتعقّلونه من الواردات عليكم والتفؤد التوقّد ومنه الفؤاد للقلب لأنّ العلوم والمعارف يتّقد وينكشف به وهو كالحوض حيث ينصبّ إليه ما حصل من طريق السمع والبصر. ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ باستعمالها فيما خلقت لأجله وقليلا صفة لمحذوف وما مزيدة لتأكيد القلّة أي شكراً قليلاً تشكرون وقيل: المراد من القلّة النفي إذا كان الخطاب للكفرة وبمعناه المعروف إذا كان الخطاب للكلّ قال بعض المتّقين:

لو عشت ألف عام في سجدة لربّي
شكرا لفضل يوم لم أقض بالتمام
والعام ألف شهر والشهر ألف عام
واليوم ألف حين والحين ألف عام

واعلم أنّ شكر السمع التعلّم والاستماع من العلماء والمواعظ الحسنة وردّ أقوال البدعة والهوى وشكر البصر النظر بالدقّة إلى المصاحف وكتب الدين وإلى وجوه أهل الإيمان والفقراء بعين الرحمة وشكر القلب قبول أحكام اللّه واليقين بتوحيده والخوف والرجاء منه وبه والمحبّة لأوليائه والبغض لأعدائه.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خلقكم وكثّركم فيها وذرأه أي كثره ومنه الذرّيّة ﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: إليه تعالى تجمعون وتبعثون للحساب والجزاء فابنوا أموركم على ذلك واستعدّوا لذلك اليوم وجميع البيان المذكور لإثبات هذا المطلوب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فرط عنادهم أو بطريق الاستهزاء: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ أي: الحشر الموعود وكانوا يقولون: متى هذا ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطبون به

النبيّ وجواب الشرط محذوف أي كنتم صادقين فيما تخبرون به من مجيء الساعة فبيّنوا وقته.

﴿قُلْ﴾ ما أعلم الخلق ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مخوّف بلغة تعرفونها وأمّا العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي: فلمّا رأوا العذاب قريباً وذا قرب أو على أنّه مصدر بمعنى الفاعل أي مزدلفاً والمراد يوم بدر أو المراد يوم القيامة ورأوا أنّ القيامة قد قامت وما اعدّ لهم العذاب كما عليه أكثر المفسّرين وأتى بلفظ الماضي لتحقّق وقوعها وأراد به المستقبل ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قبحت وجوههم وظهر عليها الكآبة ونالهم السوء ويقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: هذا الّذي كنتم به تستعجلون وتدّعون بتعجيله قال الفرّاء: تدّعون وتدعون واحد مثل: تدّخرون وتدخرون قيل: هو تدّعون من الدعوى أي تدّعون أن لا جنّة ولا نار.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ بالأسانيد الصحيحة عن شريك عن الأعمش قال: لمّا رأوا عليّ بن أبي طالب وماله من الزلفى والتقرّب عند اللّه سيئت وجوه الّذين كفروا[1]. وعن أبي جعفر عليه السلام: «**فلمّا رأوا مكانة عليّ من النبيّ سيئت وجوه الّذين كفروا وكذّبوا بفضله**».[2] وأصل الكلام أنّ رؤية الموعود ساءت وجوههم والسياءة من ساءه الشيء يسوؤه سوءاً ومساءةً نقيض سرّه وهذا المعنى متعدّ ويجوز أن يكون لازماً بمعنى قبح ومنه ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ فالمعنى حينئذ ساءوا وقبحوا وقيل: توبيخاً لهم هذا الكلام.

﴿قُلْ﴾ يا خير الخلق: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني خبراً أنتم في الوثوق به

١ـ انظر: الكافي، ج٨، ص٢٦٧.

٢ـ مجمع البيان، ج١٠، ص٨١، ونورالثقلين، ج٥، ص٣٨٥.

مثل الرؤية قال بعضهم: لمّا كان الإخبار قوياً بالرؤية شاع أ رأيت في معنى أخبر ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ وأماتني وذلك لما يتربّصون به ريب منون ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين وحصل مقصودكم ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استحقّوه بكفرهم ومن ينقذهم وقيل: معنى رحمنا غفرنا أي لا ينجيكم من عذابه أحد سواء متنا أو بقينا إنّما النجاة بالإيمان والعمل الصالح ووضع الكافرين موضع ضمير هم ليتخيّل عليهم بالكفر وبيان نفي الإنجاء بسبب الكفر.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الّذي أدعوكم إلى عبادته مولى التنعّم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وفوّضنا أمورنا عليه لا على غيره مثلكم حيث توكّلتم على عدتكم وعددكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ يا كفّار مكّة ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ من استفهاميّة أو موصولة منّا ومنكم أيّنا المصيب وأيّنا المخطئ.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ وصار غائراً في الأرض بالكلّيّة ونازلاً وذاهباً فيها ونضب أو غار في المنبهط من الأرض ﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾ على عجزكم ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ جار، من عان الماء أو معن الماء كلاهما أي ظاهر للعيون بجريه وبسهولة تناوله بالأيدي وكان ماء أهل مكّة من بئرين: بئر زمزم وبئر ميمون الحضرميّ وإنّما خصّ سبحانه من النعم بذكر الماء لأنّه أصل الحياة وهو أهون موجود وأعزّ مفقود.

وفي تفسير «الزاهدي» إنّ زنديقاً سمع معلّما يلقّن تلميذه قوله: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ فأجاب الزنديق: يأتي به المعول فلمّا أمسى الزنديق ونام في فراشه فسمع هاتفاً وهو يسمع صوته ولا يرى شخصه فهتف الهاتف يا زنديق غار ماء عينك فقل حتّى يأتي به المعول! فعوقب بذهاب ماء عينيه لأنّ

الجزاء من جنس العمل، ونعم ما حكى هذه القصّة المولوي في المثنوي نعوذ بالله من الجرأة على الله وترك حرمة القرآن.

تمّت السورة بعون الله.

سُورَةُ القَلَمِ

هي مكّيّة وقيل: بعضها مكّيّة وبعضها مدنيّة.

عليّ بن ميمون عن الصادق عليه السلام قال: **«من قرء سورة ن في فريضة أو نافلة آمنه الله أن يصيبه في حياته فقراً وأعاذه من ضغطة القبر»**[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا
غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ
ٱلۡمَفۡتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ
﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ
حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ
بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا
قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾

أي هذه سورة «نٓ» أو بحقّ ن أقسم الله بها على سبيل التأكيد في إثبات الحكم على ما عليه عادة الخلق مع ما فيه من بيان عظم شأن المقسم به، والنون حرف واحد في الكتابة وثلاثة أحرف في التلفّظ وقد قال صلى الله عليه وآله: «من

1ـ ثواب الأعمال، ص١١٩، ووسائل الشيعة، ج٤، ص٨٠٦.

قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول: ألم حرفٌ بل ألف حرفٌ ولام حرفٌ وميم حرفٌ»[1] وقال بعضهم: هو مفتاح اسم النور والناصر. وقيل فيه: إنّه اسم من أسماء النبيﷺ. وقيل: النون الحوت العظيم قال عكرمة، أقسم اللّه بالحوت الّذي لطخ سهم نمرود بدمه لمّا رمى السهم نحو السماء عاد السهم مختضبا بدم سمكة في بحر معلّق في الهواء فأكرم اللّه ذلك الحوت بأن أقسم به وأحلّ جنسه من غير ذكاة فإنّه لا يحلّ إلّا ميتتان: السمك والجراد. وقيل: المراد الحوت الّذي احتبس يونس في بطنه. وقيل: هو الحوت الّذي على ظهر الأرض وهو في بحر تحت الأرض السفلى اسمه ليوثا أو يهموت أو برهوت. وقيل: هو الدواة. وقيل: هو نهر في الجنّة قال اللّه: له كن مدادا فحينئذ. ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ هو ما يكتب به والواو للقسم على التقدير الأوّل وللعطف على الثاني والمراد قلم اللّوح، كما جاء في الخبر **«إنّ أوّل ما خلق الله القلم ونظر إليه فانشقّ بنصفين ثمّ قال: له أجر بما هو كائن إلى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ بذلك من الآجال والأعمال والأرزاق ثمّ ختم على القلم وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض، وبعد ما خلق القلم خلق النون فدحي الأرض عليها فارتفع بخار الماء ففتق منه السماوات واضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال».**

وعن ابن عبّاس: أنّ المراد بالقلم قلم الكرام الكاتبين أو جنس القلم، أقسم اللّه بالدواة والقلم لكثرة منافعها كما قيل: البيان اثنان بيان لسان وبيان بنان وهو باق على الأيّام وبيان اللسان تدرسه الأعوام ولو لم يكن للقلم مزيّة سوى كونه آلة لتحرير كتب اللّه لكفى به فضلا مرحباً لتعظيمه ومن تعظيمه تعظيم برايته فتوضع حيث لا تطأها الأقدام وإلّا أورثت الآلام. قال الشاعر:

١ـ تفسير كنز الدقائق، ج ١، ص ٧٢، وكنز العمال، ج ١، ص ٥١٩.

كفى قلم الكتّاب فخرا ورفعة　　　مدى الدهر، أنّ الله أقسم بـالقلم

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ما موصولة والعائد محذوف والسطر الصفّ من الكتابة ومن القوم الوقوف وضمير الجمع لأصحاب القلم من الحفظة الملائكة أو غيرهم ولعلّ مناسبة كون «ن» من أسمائه تعالى هي أنّ النون في الرقم نصف دائره محسوسه ونصف دائره معقوله تشعر نقطتها بأحدية ذاته تعالى والنصف المحسوس مظهر وظرف مداد عالم الخلق والنصف المعقول ظرف عالم الأمر فالمناسبة حاصلة.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جواب القسم أي: لست مجنوناً وليس شيء حائلاً بين نفسك وعقلك وأنت ملتبس بنعمة ربّك وهي نعمة النبوّة والرياسة العامّة والمراد تنزيهه ﷺ عمّا كانوا ينسبونه إليك حسداً ومكابرة مع كونه في غاية من حصافة العقل ورزانة الرأي وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم- على ما قال أبو حيّان- على سبيل التأكيد في انتفاء الوصف الذميم عنه وذهب غيره أيضاً أنّ الباء للقسم مثل شيخ نجم الدين في تأويلاته. وقيل في سبب النزول: إنّه ﷺ غاب عن خديجة إلى حراء جبل النور قالت خديجة: فلم نجده ﷺ فإذا هو قد طلع ووجهه متغيّر بلا غبار فقالت له: مالك؟ فذكر نزول جبرئيل وأنّه قال له: **«اقرأ باسم ربّك»** فهو أوّل ما نزل من القرآن. قال ﷺ: **«نزل جبرئيل إلى قرار الأرض فتوضّأ وتوضّأت ثمّ صلّى وصلّيت معه ركعتين وقال: هكذا الصلاة يا محمّد»**. فذكر ذلك ﷺ لخديجة فذهبت خديجة إلى ورقة بل نوفل وهو ابن عمّها وكان قد خالف دين قريش ودخل في النصرانية فجاء ورقة إلى النبي ﷺ وقال: هل أمرك جبرئيل أن تدعو أحداً؟ فقال: **«لا»**. فقال ورقة: لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنّك نصراً عزيزاً ثمّ مات قبل دعاء الرسول.

ووقعت تلك الواقعة في ألسنة كفّار قريش فقالوا: إنّه مجنون فأقسم الله على أنه ليس بمجنون وهو خمس آيات عن أول هذه السورة لكن قال ابن عبّاس: أول ما نزل ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ و«اقرأ» هي الثانية.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بمقاساة تحمّلك أعباء الرسالة وألوان الشدائد من جهة الكفّار ﴿لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وغير مقطوع ومنه قيل «المنون» للمنيّة لأنّها تقطع العدد والمدد ويجوز أن يكون معناه غير مكدّر بسبب المنّة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لا يدرك شأوه أحد من الخلق لأنّك تحتمل من جهتهم ما لا يكاد يحتمله أحد ودلّت الآية على أنّك مستول على الأخلاق الحميدة والأفعال المرضيّة حتّى صارت بمنزلة الأمور الطبيعيّة ولذا قال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1]، أي: لست متكلّفا فيما يظهر من أخلاقي لأنّ المتكلّف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إليه الطبع وسمّي خلقاً لرسوخه وثباته حتّى صار بمنزلة الخلقة الّتي جبّل عليها الإنسان وإن احتاج في كونه ملكة راسخة إلى اعتمال ومجاهدة طويلة ولذا يتبدّل بالمصاحبة فيكون الحسن قبيحاً والقبيح حسناً على حال المصاحبين كما في الحديث المرء علي دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وفي حديث آخر: لا تجالسوا أهل الهوى والبدع فإنّ لهم عرّة كعرّة الجرب. ولذلك صنّف أطبّاء الأرواح أبواباً في علم الأخلاق لترتيب الصحّة الروحانيّة كما ألّف أطبّاء الأشباح فصولا في علم الأبدان.

وإنّما وصف سبحانه خلقه بالعظمة كما وصف العرش والقرآن بالعظيم لبيان أنّ ذلك الخلق جامع لمكارم الأخلاق اجتمع فيه شكر نوح وخلّة إبراهيم وإخلاص موسى وصدق إسماعيل وصبر يعقوب وأيّوب واعتذار

١ـ سورة ص: ٨٦.

داود وتواضع سليمان وعيسى وهكذا من أخلاق سائر الأنبياء كما قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[1] إذ ليس هذا الهدى معرفة اللّه لأنّ ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول وليس هذا الهدى معرفة اللّه لأنّ ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول وليس الشرائع لأنّ شريعته ناسخة لشرائعهم والمراد الاقتداء بكلّ منهم فيما اختصّ به من الخلق الكريم إذ كان كلّ واحد منهم مختصاً بخلق حسن غالب على سائر أخلاقه وهذه درجة عالية لم يتيسّر لأحد من الأنبياء.

لكلّ نبيّ في الأنام فضيلة وجملتها مجموعة لمحمّد

وكان ﷺ متحلّياً بما في القرآن من مكارم الأخلاق وقد جمع فيه ﷺ ما في الآي العشر في سورة المؤمنين من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فذلك خلقه العظيم وهو عين الصراط المستقيم.

قال ﷺ: **«إنّ لله ثلاثمائة وستّين خلقاً من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة وأحبّها إلى الله السخاء»**[2].

قال بعض المحقّقين: من أراد أن يرى رسول اللّه ممّن لم يدركه من أمّته فلينظر إلى القرآن فإنّه لا فرق بين النظر فيه وبين النظر إلى رسول اللّه فكأنّ القرآن انتشاء صورة جسديّة يقال له محمّد: والأنبياء كلّهم أنوارهم كالكواكب بالنسبة إلى نوره ومع أنّه كان غائباً عنهم استناروا من صفاء نوره.

فاق النبيّين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم ولاكرم[3]

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ عند كشف الغطاء فيعلمون حينئذ أنّك مجنون أو أنّهم مجانين ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: أيّكم الّذي ابتلي بفتنة الجنون على أنّ

١ـ سورة الأنعام: ٩٠.

٢ـ تذكرة الموضوعات، ص١٢.

٣ـ المصباح، ص٧٣١.

المفتون بمعنى الفتون وهو الجنون كالمعقول بمعنى العقل والباء مزيدة في المبتداء كما في بحسبك زيد أو الباء بمعنى «في» أي الفريقين من المؤمنين والكافرين يوجدون من يستحقّ عليه هذا الاسم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الحقّ المؤدي إلى سعادة الدارين أوهام في تيه الضلال متوجّهاً إلى ما يفضيه إلى الشقاوة الأبديّة وهو المجنون الّذي لا يفرّق بين النفع والضرّ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبيله فيجزي كلا الفريقين حسبما يستحقّه وإعادة «هو أعلم» لزيادة التقرير وحصول الهداية أمر متوقّف على قبول المهتدي لأنّ الرسول الصادق الأمين قال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[1].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إذا تبيّن عندك حالهم فدم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم فقوى سبحانه قلبه ﷺ بالتشدّد مع قومه مع قلّة العدد وكثرة الكفّار وفي الآية بيان للامّة أنّ الإطاعة للعاصي عصيان والاقتداء بالطاغي طغيان.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ «لو» للتمنّي والمراد من الإدهان الملاينة والتسهيل والمسامحة وترك الدعوة أي إنّهم لو سامحتهم في الدعوة يداهنونك حينئذ بترك الطعن والفرق بين المداهنة والمداراة إنّ الإدهان الملاينة لمن لا ينبغي له ذلك وتغضي عنهم لحظّ نفسك وسلامة جاهك واجتلاب نفعك والمداراة لما ترى فيه من اصطلاح الأمر بالإغضاء وهي في الغالب مع من يخاف شرّه.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ كثير الحلف في الحقّ والباطل لجهله حرمة اليمين وعدم مبالاته من الحنث لسوء عقيدته وأصل الحلف اليمين الّذي كان يأخذ بعضهم من بعض على أمر أي العهد ثمّ عبّر به عن كلّ يمين والمهين

١ـ سورة نوح: ٥، ٦.

الحقير الرأي وهي الحقارة في التدبير.

﴿هَمَّازٍ﴾ عيّاب طعّان يلوي شدقيه في أقفية الناس وفي الحديث: «**لا يكون المؤمن طعّانا ولا لعّانا**». والهمّاز مبالغة هامز والهمز الطعن ومنه المهمزة حديدة تطعن بها الدابّة قيل لأعرابيّ: أ تهمز الفأر؟ قال: السنّور يهمزها. استعير للمغتاب الّذي يذكر الناس بالمكروه ويظهر عيوبهم ويكسر أعراضهم. ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ نقّال للحديث من قوم إلى قوم على وجهه السعاية والإفساد بينهم وإظهار الحديث بالوشاية وهو من الكبائر أمّا نقل الكلام بقصد النصيحة للمؤمنين فواجب كما قال: من قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1] وفي الحديث لا يدخل الجنّة نمّام[2].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ﴾ الخير المال أي: بخيل يمنع الناس من أقسام الخير من الإيمان والطاعة والإنفاق وكان للوليد بن المغيرة عشرة من البنين وكان يقول لهم ولأقاربه: من تبع منكم دين محمّد لا أنفعه بشيء وكان موسراً. ﴿مُعۡتَدٍ﴾ متجاوز في الظلم من استغراقه في الأخلاق الذميمة ومجاوزة الحقّ والحدّ ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الاسم والمعصية.

﴿عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ عتله إذا قاده بعنف وغلظة أي جاف غليظ القلب بحيث لا يقبل الخير والنصح ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد هذه القبائح ﴿زَنِيمٍ﴾ دعيّ ملتصق بالقوم وملحق بهم في النسب وليس منهم فالزنيم هو الّذي تبنّاه أحد واتّخذه ابنا وليس بابن له في الحقيقة والزائد في القوم تشبيهاً بالزنمتين من الشاة وهما المندلبتان من أذنها أو شيء يقطع من أذن البعير فيترك معلّقاً.

١ـ سورة القصص: ٢٠.

٢ـ رسائل الشهيدالثاني، ص٣٠٤، ومستدرك الوسائل، ج٩، ص ١٥٠، وبحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٦٨.

قال العتبيّ: لا نعلم أنّ اللّه وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً وكان الوليد دعيّاً في قريش وليس من سنخهم، ادّعاه أبوه المغيرة بعد ثمان عشرة سنة من مولده وحاصل معنى الزنيم ولد الزنى. قال الشاعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه بغيّ الأمّ ذو حسب لئيم[1]

وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة جوّاظ ولا جعظريّ ولا العتلّ الزنيم**».

والجوّاظ: الجموع المنوع، والجعظريّ: الفظّ الغليظ، والعتلّ: رحيب الجوف أكول شروب غشوم ظلوم.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ متعلّق بقوله: «لا تطع» بحذف الجارّ أي: لأن كان مستظهراً بالمال والبنين، ومن قرء بالاستفهام فيكون المعنى أ لأن كان ذا مال وبنين يجحد آياتنا وجعل مجازاة النعم الكفر بآياتنا؟

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ استيناف جار مجرى التعليل المنهيّ أي إذا تقرء عليه آياتنا وكلامنا قال: هي أحاديث وقصص لا اعتبار بها اكتتبوها كذباً.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أصله سنوسمه من الوسم وهو إحداث السمة والعلامة والمسيم المكواة وآلة الكيّ والخرطوم الأنف أو مقدّمه أو ما ضممت عليه الحنكين أي: سيجعل له كيّاً على أكرم مواضعه لإهانته وإذلاله إذ الأنف أكرم موضع من الوجه لتقدّمه له ولذلك جعلوه مكان العزّ والحميّة واشتقّوا منه الأنفة فيقال: فلان شامخ العرنين ويقال للذليل: رغم أنفه.

ولقد وسم العبّاس أباعره في وجوهها فقال ﷺ: «**أكرموا الوجوه**». فوسمها في جواعرها أي: في أدبارها وفي التعبير عن الأنف بلفظ الخرطوم

١ـ التبيان، ج ١٠، ص٧٨، وجامع البيان، ج٢٩، ص٣٢، وتفسيرمجمع البيان، ج ١٠، ص٨٤.

استقباحا لصاحبه واستهانة له لأنّه لا يستعمل إلّا في الفيل والخنزير.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾
فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ
﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا
يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا
لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟
سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ
إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يقال: بلي الثوب أي: خلق، وبلوته: اختبرته كأنّي أخلقته من كثرة اختباري له والمعنى إنّا ابتلينا أهل مكّة بالقحط والجوع سبع سنين بدعوة النبيﷺ حتّى أكل الجيف لتمرّدهم ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ مثل ابتلاء أصحاب الجنّة المعروف خبرها عندهم واللام في الجنّة للعهد.

وأصحاب الجنّة قوم من أهل صنعاء قيل: كانوا إخوة وكانت الجنّة لأبيهم دون صنعاء بفرسخين وقيل: هي جنّة بضروان وضروان على فرسخ من صنعاء وكان أصحاب هذه الجنّة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير وكانوا بخلاء وكان أبوهم يأخذ من البستان قوت سنة ويتصدّق بالباقي وكان ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل وما في أسفل الأكداس وما أخطأه القطّاف من العنب وما بقي على البساط الّذي يبسط تحت النخلة إذا صرمت فكان يجتمع لهم شيء كثير ويتزوّدون به أيّاماً. فلمّا مات أبوهم قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال فحلفوا فيما بينهم

وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ والإقسام الحلف ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ويقطعون الثمار من النخل والعنب ويجمعنّ محصولها مبكرين وسواد الليل باق ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ جواب للقسم ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يقولون: «إن شاء اللّه» وكانوا غير مستثنين فلم يقولوا: «إن شاء اللّه» وقيل: المعنى ولا يستثنون حصّة المساكين ولا يخرجونها كما كان يفعل أبوهم وقال أبو حيّان: المعنى لا يستثنون عمّا عزموا عليه من حرمان المساكين.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي: أحاط على الجنّة ﴿طَائِفٌ﴾ أي: بلاء طائف وذلك بالليل إذ لا يكون الطائف إلّا بالليل وكان ذلك الطائف نارا نزلت من السماء فاحرقتها ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ من جهته تعالى أي: من جهة أمره وهو منزّه عن الجهة والطوف الدوران حول الشيء ومنه الطائف لمن يدور حول البيت حافظا ومنه استعير الطائف من الجنّ والخيال والخادم. ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ غافلون بالنوم عمّا جرت به المقادير والنوم استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه أو أن يتوفّى اللّه النفس من غير أن يقطع ضوء الروح عن الجسد فالنوم موت خفيف والموت نوم ثقيل.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالبستان الّذي صرمت ثماره حيث لم يبق فيها شيء وقيل: معناه كالليل لأنّ الليل يقال له الصريم، أي: صارت سوداء كالليل لاحتراقها ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضاً حال كونهم داخلين في الصباح.

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: اخرجوا غدوة على ضيعتكم وبستانكم والحرث يجوز أن يراد به الحاصل مطلقاً وأن يراد به الزرع خصوصاً وتعدية الغدوّ بعلى لتضمّنه الاستيلاء ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ وقاصدين للصرم وقطع الثمرة وجمع المحصول.

﴿فَانطَلَقُوا﴾ ومضوا إليها ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم

بطريق المخافة والسرّ كيلا يسمع أحد ولا يدخل عليهم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ في الجنّة ﴿ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ من المساكين فضلا عن أن يكثروا.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: مشوا بكرةً على الحدّة والغضب والامتناع من مخالطة المساكين ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حالٌ من فاعل «غدوا» فلم يحصل لهم إلّا النكد والحرمان وذلك أنّهم قصدوا حرمان الفقراء فتعجّلوا الحرمان جزاء.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ الجنّة ﴿قَالُوٓا۟﴾ قال بعضهم البعض: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ طريق جنّتنا ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قوم ﴿مَحْرُومُونَ﴾ قالوه بعد ما تأمّلوها ووقفوا على حقيقة الأمر أي لسنا ضالّين بل حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا بسوء نيّتنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدلهم وخيرهم وأصوبهم رأياً والوسط تارة يقال: فيما له طرفان مذمومان كالجود الّذي بين البخل والسرف فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط وتارة يقال: فيما له طرف محمود وطرف مذموم كالخير والشرّ ويراد به الرذل ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لو لا تذكرون الله بالتسبيح وتتوبون إليه من خبث نيّتكم وقد كان قال لهم: حين عزموا على ذلك اذكروا الله وتوبوا من هذه العزيمة الخبيثة فعلّلوه ولم يقبلوا منه فعيّرهم، لعلّ كانت الأمم السابقة يؤاخذون على ما عزموا عليه من المعصية.

﴿قَالُوا۟﴾ معترفين بالذنب ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ نزّهه عن كلّ سوء سيّما عن أن يكون ظالما فيما فعل بنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بقصد حرمان المساكين كأنّهم قالوا: نستغفر الله من سوء صنيعنا ولو تكلّموا بهذه الكلمة قبل نزول العذاب لنجوا من نزوله لكنّهم تكلّموا بعد خراب البصرة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً فإنّ منهم من أشار بذلك ومنهم من استصوبه ومنهم من أنكره ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ﴾ أي: الويل والسخط لنا ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ متجاوزين حدود الله.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ ويعوّضنا بدلاً منها ببركة التوبة ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ من هذه الجنّة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ راجون العفو.

روي أنّهم تعاقدوا: إن أبدلنا اللّه خيراً منها لنصنعنّ كما صنع أبونا فأبدلهم اللّه من ليلتهم ما هو خير منها قالوا: إنّ اللّه أمر جبرئيل أن يقتلع تلك الجنّة المحترقة فيجعلها بزعر من أرض الشام أي موضع قليل النبات ويأخذ من الشام جنّة فيجعل مكانها قال ابن مسعود: إنّ القوم لمّا تابوا وأخلصوا أبدلهم جنّة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً. قال أبو خالد اليمانيّ: دخلت تلك الجنّة فرأيت كلّ عنقود منها كالرجل الأسود القائم.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ جملة من مبتدء وخبر مقدّم لإفادة القصر والألف واللام للعهد أي مثل الّذي بلونا به أهل مكّة من القحط وأصحاب الجنّة كذلك أفعل بامّتك إذا لم تعطف أغنياؤهم على فقرائهم بأن أمنعهم القطر وأرفع البركة من ذروعهم وتجارتهم وفيه وعيد لمانعي الزكاة بأيّ طريق كان. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وأشدّ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنّه أشدّ وأكبر لاحترزوا عمّا يؤدّيهم.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ
لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ
عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ
وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة وذكر

﴿عِندَ﴾ للتشريف والتكريم لأنّ كلّ شيء حقيقة وصورة له وملكة فكأنّها حاضرة عنده وإلّا فمحال كون عنديّة الجنّة بالنسبة إلى الله مكانيّة وعند لفظ موضوع للقرب فتارة يستعمل في المكان وتارة يستعمل في الاعتقاد مثل عندي الأمر كذا وتارة في المنزلة كقوله: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(1) وعلى ذلك يقال: الملائكة المقرّبون.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: جنّات ليس فيها إلّا التنعّم الخالص واستفيد الحصر من الإضافة اللاميّة الاختصاصيّة فإنّها تفيد اختصاص المضاف بالمضاف إليه.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كان صناديد قريش يرون وفور حظّهم من الدنيا وقلّة حظوظ المسلمين منها فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا: إن صحّ أنّا نبعث كما يزعم محمّد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلّا مثل ما هي في الدنيا وأقصى أمرهم أن يساوونا، فردّهم الله والهمزة للإنكار أي: أنحيف في الحكم فنجعل المؤمنين كالكافرين في حصول النجاة والوصول إلى الدرجات؟ والمراد من المجرمين الكافرون على ما دلّ عليه سبب النزول وإلّا فالإجرام في الجملة لا ينافي الإسلام.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ تعجّباً من حكمهم، وما استفهاميّة في موضع الرفع بالابتداء و«لكم» خبرها والمعنى أيّ شيء ظهر لكم حتّى حكمتم هذا الحكم؟

﴿أَمْ لَكُمْ﴾ أي: بل أ لكم ﴿كِتَٰبٌ﴾ نازل من السماء ﴿فِيهِ﴾ متعلّق بقوله: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ وتقرءون فيه ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ والمعنى تقرءون في الكتاب أنّ لكم ما تختارونه لا نغلبكم وأنّ في ذلك الكتاب أنّ العاصي كالمطيع بل أرفع حالاً.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ أي: أضمنّا أو أقسمنا بأيمان مغلّظة فثبت لكم

١ـ سورة آل عمران: ١٦٩.

علينا عهود مؤكّدة بالأيمان ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدتها ولا ننقطع ذلك العهد إلى يوم الحشر ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم من الخير وما تطلبونه وتحكمون به حاصل لكم.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه إلى النبيﷺ بإسقاطهم عن رتبة الخطاب أي سلهم مبكّتاً بهم أيّهم بذلك الحكم الغلط الخارج عن العقول قائم يتصدّى بتصحيحه كما يقوم زعيم القوم بإصلاح أمورهم ويقيم الحجّة عليها ويتكفّل بها. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم أي: إذا كان ليس لهم دليل في هذا القول الغلط وهو التسوية بين المحسن والمسيء إذ لا أقلّ من التقليد فليأتوا بمن يوافقهم من العقلاء على صحّة هذا القول حتّى يقلّدوهم والأدلّة من السمع والعقل قائمة بخلافه.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الظرف متعلّق بالذكر المقدّر و﴿عَن سَاقٍ﴾ قائم مقام الفاعل «ليكشف» والمراد يوم القيامة أو المعنى فليأتوا بشركائهم وبشهدائهم في ذلك اليوم الشديد الّذي تظهر فيه الأهوال وكشف الساق مثل وكناية عن الشدّة في الأمر.

قال عكرمة: سئل ابن عبّاس عن معنى قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فقال: إذا خفي عليكم شيء في القرآن فابتغوه في الشعر أما سمعت العرب تقول: «وقامت الحرب بنا على ساق» ويريدون شدّة اليوم والحرب وأصله أنّ الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج فيه إلى الجدّ يشمّر عن الساق فاستعير كشف الساق عن الشدّة استعارة تمثيليّة. قال دريد بن الصّمة:

كميش الإزار خارج نصف ساقه ... بعيد من الآفات طلّاع أنجد[1]

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص٩٧، وتنزيل الآيات، ص٣٨٤.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أي: يقال للكفّار والمنافقين: على وجه التوبيخ اُسجدوا تعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا لا تكليفاً لأنه لا تكليف لهم في ذلك اليوم فلا يستطيعون، وفيه دلالة على أنّهم يقصدون السجود فلا يتأتّى لهم ذلك عن ابن مسعود عن النبيﷺ: **«تعقم أصلابهم»** أي: **«ترد عظاماً بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض فيبقون قياماً على حالهم»**. وفي الحديث: **«وتبقى أصلابهم طبعاً واحداً»**. أي: فقارة واحدة[1] كأنّ سفافيد الحديد في ظهورهم لا تنثني.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ ذليلة لا يعرفون نظرهم عن الأرض ذلّة ومهانة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ الرهق غشيان الشيء أي تغشاهم ذلّة شديد بيان لخضوع أبصارهم ﴿وَقَدْ كَانُوا۟﴾ في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ﴾ دعوة التكليف ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ والمراد به الصلاة وخصّ السجود بالذكر من حيث إنّه أعظم الطاعات وأنّ الدعوة إلى الصلاة دعوة إلى السجدة ومن أعظم الدعوة أذان المؤذّنين فإنّ قولهم: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: أصحّاء يمكنهم السجود فلم يفعلوا.

قال كعب الأحبار: ما نزلت هذه الآية إلّا في الّذين يتخلّفون، حكي عن الربيع بن خثيم أنّه عرض له الفالج فكان يهادي بين رجلين إلى المسجد فقيل له: يا أبايزيد لو جلست فإنّ لك رخصة قال: من سمع حيّ على الفلاح فليجب ولو حبواً.

وفي الآية وعيد لمن ترك الصلاة المفروضة حتّى لو تخلّف عن الجماعة المشروعة من غير عذر سيّما إذا سمع النادين أو كان في جوار المسجد، وحدّ الجوار على ما قاله بعض العلماء: أن تكون بينه وبين المسجد

١ـ تفسير الصافي، ج٥، ص٢١٤، وتفسير نورالثقلين، ج٥، ص٣٩٦، والكشاف، ج٤، ص١٤٨، وتفسير جوامع الجامع، ج٣، ص٦١٩.

مائة دار، وتعمير بيت الله الصلاة فيه. قال أبو الدرداء:

عن النبي صلى الله عليه وآله **«من أحبّ الأعمال إلى الله ثلاثة أمر بصدقة وخطوة إلى الصلاة جماعة وإصلاح بين الناس»**. وحديث أمير المؤمنين عليه السلام: **«لأن احرقوا عليهم بيوتهم»**. صحيح السند[1] إذا كان ترك مستحبّ هذا حكمه فكيف المخالطة مع الزنادقة؟

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: يؤذَن المؤذّن يوم القيامة فيسجد المؤمن وتصلب ظهور الكافرين والمنافقين فيصير سجود المؤمنين حسرة على المنافقين والكافرين.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: كل أمرهم إليّ وإذا كان حالهم كذلك فدعني ومن يكذّب بالقرآن وتوكّل عليّ في الانتقام منهم وفي الآية دليل على حدوث القرآن وكلّ كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي يقال له: حديث ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ استدرجه إليه درجة درجة باستحقاقهم وقبولهم الكفر أي سنستزلّهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإحسان وإدامة الصحة وازدياد النعمة ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهة الّتي لا يشعرون أنّه الهلاك وفي الحديث: **«إذا رأيت الله ينعم على عبد وهو مقيم على معصية فاعلم أنّه مستدرج»**. وتلا هذه الآية.

روي أنّ رجلاً من بني إسرائيل قال: يا ربّ كم أعصيك وكم أنت لا تعاقبني فأوحى الله إلى نبيّ زمانه أن قل له: كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر كونها عقوبة وإنّ جمود عينك وقساوة قلبك استدراج منيّ وعقوبة لو عقلت[1] قيل: من المقت الإلهيّ بالعبد أن يرزق العلم ويحرم العمل به أو

١ـ انظر: المعتبر، ج٢، ص٤١٤، وتذكرة الفقهاء، ج١، ص١٧٠، ووسائل الشيعة، ج٣، ص٤٧٨.

١ـ تفسير القرطبي، ج١٨، ص٢٥٢.

يرزق العمل ويحرم الإخلاص فيه فمن علم اتّصافه بهذا من نفسه فليعلم أنّه ممقوت به.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ الإملاء الإمهال بإطالة العمر وازدياد النعمة ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أي: أخذي بالعذاب ﴿مَتِينٌ﴾ قويّ شديد لا يطاق ولا يدفع بشيء والكيد ضرب من الاحتيال وقد يكون محمودا ومذموما وإن كان يستعمل في المذموم أكثر وكذلك الاستدراج والمكر وهو من الخلق الحيلة السيّئة ومن الله التدبير بالحقّ لمجازاة أعمال الخلق.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ فلأجل ذلك من الغرامة الماليّة مكلّفون حملاً ثقيلاً فيعرضون عنك ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ والمغيبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون به من أباطيلهم.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ في تأخير نصرتك وإمهالهم ﴿وَلَا تَكُن﴾ في التفجّر بعقوبة قومك ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يونس عليه السلام في استعجال عقاب قومه لا تخرج من بين قومك من قبل أن يأذن الله لك كما خرج هو ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: دعا ربّه وهو في بطن الحوت محبوس عن التصرّف ومملوّ من الغمّ، وكظم السقاء إذا ملأه وشدّ رأسه وأمسك عليه والّذي نادى به قوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ

﴿إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] قوله: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾ وناله ووصل إليه ﴿نِعۡمَةٞ﴾ ورحمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو توفيقه سبحانه وتفضيله ﴿لَنُبِذَ﴾ وطرح من بطن الحوت ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ بالأرض الخالية من الأشجار والعراء مكان لا سترة به ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ مليم لكنّه رحم فنبذ غير مذموم.

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ وقرّبه بالتوبة عليه من ترك الأولى. إذا صحّ هذا القول بأن ردّ إليه الوحي وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون يقال: جبيت الماء في الحوض جمعته والحوض الجامع له جابية والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء وكان رسولاً قبل احتباسه في بطن الحوت. ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بأن عصمه من أن يفعل فعلا يكون تركه أولى قيل: إنّ هذه الآية بأحد حين همّ رسول اللّه أن يدعو على المنهزمين فيكون الآية مدنيّة. والمعتزلة فسّروا قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنّه سبحانه أخبر بصلاحه.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ إن مخفّفة واللام دليلها، أزلّ رجله أزلقها و«لمّا» ظرفيّة أي: إنّهم من شدّة عداوتهم لك ينظرون إليك شرزاً نظر الغضبان بمؤخر العين بحيث يكادون يزلّون قدمك فيرمونك وقت سماعهم القرآن ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ وذلك لاشتداد حسدهم مأخوذ المعنى من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني أو أنّهم يكادون يصيبونك بالعين، والجمهور على هذا القول.

روي أنّه كان في بني أسد عيّانون والعيّان شديد الإصابة بالعين وكان الواحد منهم إذا أراد أن يعين شيئاً يتجوّع له ثلاثة أيّام ثمّ يتعرّض له فيقول: ما رأيت أحسن من هذا فيتساقط ذلك الشيء. وكان الرجل منهم ينظر إلى الناقة السمينة أو البقرة السمينة ثمّ يعينها فيقول لجاريته: خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم من لحم هذه فما تبرح حتّى تقع فتخرّ فسأل الكفّار من

١ـ سورة الأنبياء: ٨٧.

قريش من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول: في رسول اللّه هكذا فعصمه اللّه. وفي «الأسرار المحمّديّة» قيل: إنّ في هذه الآية خاصيّة لدفع العين تعليقاً وغسلاً وشرباً وفي الحديث: **«العين حقّ»**. أي أثرها في العين واقع ولمّا خاف يعقوب عليه السلام على أولاده من العين لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوّة وكانوا ولد رجل واحد قال: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾[1] لئلّا يصابوا بالعين. وكان رسول اللّه صلى الله عليه وآله يعوّذ الحسن والحسين فيقول: **«أعوذ بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامة ومن كلّ عين لامة»**. ويقول: **«هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق»**[2].

وعن عبادة بن الصامت قال: دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله في أوّل النهار فرأيته شديد الوجع ثمّ عدت إليه آخر النهار فوجدته معافى. فقال صلى الله عليه وآله: **«إنّ جبرئيل أتى ورقّاني فقال: بسم الله أرقيك من كلّ شرّ يؤذيك ومن كلّ عين وحاسد يشفيك»**. قال صلى الله عليه وآله: **«فأفقت»**. وإنّما تكره الرقية إذا كانت بغير لسان العرب والدعاء ولا يدري ما هو ولعلّه سحر أو كفر وأمّا إن كان من القرآن أو شيء من الدعوات فلا بأس به ولا تختصّ العين بالإنس بل تكون في الجنّ أيضاً حتّى قيل: إنّ عيونهم أنفذ من أسنّة الرماح. وعن امّ سلمة إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله رأى في بيتها جارية تشتكي وفي وجهها صفرة فقال: **«استرقوا لها فإنّ بها النظرة»**. وأراد بها العين أصابتها من الجنّ.

وفي الحديث: **«لو كان شيء يسبق القدر لسبقه العين»**. وقال صلى الله عليه وآله: **«إنّ العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر»**[1].

١ـ سورة يوسف: ٦٧.

٢ـ الكافي، ج٢، ص٥٦٩، وعدةالداعي، ص٢٦٥.

١ـ مكارم الاخلاق، ص٣٨٦، والشيخ الطبري، وبحار الأنوار، ج٦٠، ص٢٠، وتفسيرالقرطبي، ج٩، ص٢٢٦.

قيل: وفي الشفاء من العين أن يقال على ماء نظيف ويسقيه منه ويغسله عيس عايس بشهاب قابس رددت العين من العين عليه إلى أحبّ الناس إليه فارجع البصر هل ترى من فطور الفاتحة وآية الكرسي وستّ آيات الشفاء وهي ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[١]، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[٢]، ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[٣]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٥]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[٦].

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ لتنفير الناس عنه وجهلهم وعنادهم أنه ﷺ لمجنون أي: هو مصاب الجنّ أو هو معلّم من جنّي كما قال الوليد بن المغيرة: يأتيه جنّي فيعلّمه.

ثمّ ردّ سبحانه قولهم فيه ﷺ فقال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ على أنه حال من فاعل «يقولون» مفيدة لبطلان قولهم أي: والحال أنّ القرآن ذكر للعالمين وتذكّر وبيان للجنّ والإنس. قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة ... فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر[١]

وقيل: إنّ الضمير راجع إلى النبيّ وكونه ذكراً أو شرفاً لا ريب فيه.

تمّت السورة بحمد الله.

١ـ سورة التوبة: ١٤.

٢ـ سورة يونس: ٥٧.

٣ـ سورة النحل: ٦٩.

٤ـ سورة الإسراء: ٨٢.

٥ـ سورة الشعراء: ٨٠.

٦ـ سورة فصلت: ٤٤.

١ـ عمدة القاري، ج ١، ص ٣، والفوائد المدنيّة، ص ٢٥٩.

سورة الحاقة

مكية. روى جابر الجعفيّ عن الباقر عليه السلام قال: **«أكثروا من قراءة الحاقّة فإنّ قراءتها في الفرائض والنوافل من الإيمان بالله ورسوله ولم يسلب قارئها دينه حتّى يلقى الله»**[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾

﴿الْحَاقَّةُ﴾ هي عن أسماء القيامة من حقّ يحقّ إذا وجب وثبت لأنّها يجب مجيئها ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ الأصل ما هي أي: أيّ شيء هي في حالها فوضع الظاهر موضع المضمر تأكيداً لهولها كما يقال: زيد ما زيد على التعظيم لشأنه فقوله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ مبتدء وما مبتدء ثان وما بعده خبره والجملة خبر للمبتدأ الأوّل والمراد أنّ الحاقّة أمر بديع وخطب فظيع.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ من الدراية بمعنى العلم يقال: درى به أي: علم به وأدراه

١ـ تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٠١، وثواب الأعمال، ص١١٩، وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص١٠٢.

أي: أعلمه والمعنى وأيّ شيء أعلمك يا محمّد بها وبأهوالها لأنّه لا يكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه من شدّة عظمتها وأهوالها وجملة «ما الحاقّة» في موضع المفعول الثاني لأدراك ويمكن أن يكون ﷺ عالماً بوقوعها ولكن لم يكن عالماً بكمال كيفيّتها ويحتمل أن يقال له وإسماعاً لغيره.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ قوم صالح من الثمد وهو الماء القليل الّذي لا مادّة له ﴿وَعَادٌ﴾ قوم هود وتمنع ثمود وهي قبيلة ﴿بِالْقَارِعَةِ﴾ من أسماء القيامة لأنّها تقرع وتضرب بفنون الأقراع والأهوال وتصيبهم كأنّهم تقرعهم والسماء بالانشقاق والانفطار والأرض والجبال بالدكّ والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ويقال: قارعة الدهر أي: شدّتها. ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ كانوا عرباً منازلهم بالحجر بين الشام والحجاز ﴿فَأُهْلِكُوا﴾ لتكذيبهم ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ بالصيحة الّتي جاوزت عن حدّ سائر الصيحات فرجفت منها الأرض وتصدّعت القلوب.

﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ وكانت منازلهم بالأحقاف وهي الرمل بين عمّان إلى

حضر موت واليمن وكانوا عربا أيضاً ذوي بسطة في الخلقة وكان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستّين وأوسطهم ما بين ذلك وكان رأس الرجل منهم كالقبّة يفرخ في عينيه ومنخريه السباع ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت في هبوبها أو شديدة البرد تحرق ببردها النبات والحرث ﴿عَاتِيَةٍ﴾ مجاوزة الحدّ لشدّة العصف والرياح مسخّرة لميكائيل تهبّ بإذنه وتنقطع بإذنه.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ التسخير سوق الشيء إلى الغرض المختصّ به قهراً فسلّط الله تلك الريح الموصوفة عليهم وفي الكلام بيان لدفع ما يتوهّم من كون هذه الواقعة باتّصالات فلكيّة مع أنّه لو كان كذلك لكان بتسبيبه أيضاً ﴿سَبْعَ لَيَالٍ﴾ منصوب على الظرفيّة وأنّث العدد لكون الليالي جمع ليلة يقال:

ليل وليلة ولا يقال: يوم ويومة وتجمع الليل على الليالي بزيادة التاء على غير القياس فتحذف تاؤها حالة التنكير بالإعلال إلّا حالة النصب نحو ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾[1] لأنّه غير منصرف والفتح خفيف. ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ ذكّر العدد لكون الأيّام جمع يوم وهو مذكّر ﴿حُسُومًا﴾ جمع حاسم مثل شهود جمع شاهد بمعنى حاسمات حال من مفعول ﴿سَخَّرَهَا﴾ أي: حال كون الريح متتابعات حتّى أهلكتهم تمثيلاً بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكيّ على داء الدابة مرّة بعد اخرى حتّى ينقطع وينحسم الدم أي تلك الرياح المتتابعة حسمت واستأصلت دابرهم ومن ذلك يسمّى السيف حساماً لأنّه يقطع ويحسم العدوّ. وهي كانت أيّام برد العجوز من صبيحة الأربعاء لثمان بقين من شوّال أو آخر أربعاء من شهر صفر إلى غروب الأربعاء الآخر وعن ابن عبّاس يرفعه: آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمرّ وسمّيت عجوزاً لأنّ عجوزاً توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الآخر فأهلكتها وقيل: هي أيّام الفجر وهي آخر الشتاء.

وفي «روضة الأخبار»: رغبت عجوز إلى أولادها أن يزوّجوها وكان لها سبعة بنين فقالوا: إلى أن تصبري على البرد عارية لكلّ واحد منّا ليلة ففعلت فلمّا كانت في السابعة ماتت فسمّيت تلك الأيّام أيّام العجوز وأسماء هذه الأيّام: الصنّ بالكسر أوّل أيّام العجوز، والصنبر وهي الريح الباردة وهو الثاني، والوبر وهو الثالث، والمعلل كمحدث وهو الرابع، ومطفىء الجمر وهو الخامس أو مكفئ الظعن أي: مميلها وهو جمع ضعينة وهو الهودج، والأمر وهو السادس، والمؤتمر وهو السابع. والتاريخ يكون بالليالي دون الأيّام ولذلك لم يذكر الثامن.

١ـ سورة سبا: ١٨.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ﴾ أي: قوم عاد ﴿فِيهَا﴾ في محالّ هبوب تلك الريح أو في تلك الليالى والأيّام ﴿صَرْعَىٰ﴾ موتى جمع صريع مثل قتلى وقتيل ساقط على الأرض ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ مشبهين بأصول نخل خاوية أي: خالية مجوّفة لأنّ أبدانهم خلت من أرواحهم وكانت الريح يدخل في أفواههم فيخرج ما في أجوافهم من أدبارهم كالنخل الخالية المجوّفه.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ والباقية اسم كالبقيّة لا وصف والتاء للنقل إلى الاسميّة ومن زائدة أي: ما ترى منهم بقيّة من صغارهم وكبارهم غير المؤمنين ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف بمعنى نفس باقية أو مصدر بمعنى البقاء كالكاذبة والطاغية.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ وتقدّمه من الكفرة وقرأ أبو عمرو والكسائيّ ومن قبله بكسر القاف وفتح الباء بمعنى ومن معه من القبط ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ في «القمي» المؤتفكات البصرة والخاطئة فلانة[1]. أي: قرى قوم لوط فهي المنقلبات بالخسف وهي خمس قريات صبعه وسعده وعمره ودوما وسدوم ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالأفعال ذات الخطاء العظيم الّتي من جملتها تكذيب البعث وذلك الفعل الرجس.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: فعصى كلّ امّة من المذكورين رسل ربّهم والرسول بمعنى الجمع لأنّ فعول يستوي فيه المذكّر والمؤنث والواحد والجمع ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ اللّه بالعقوبة ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشدّة على عقوبات سائر الكفّار لمّا زادت معاصيهم في القبح.

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ المعهود وقت الطوفان وجاوز حدّه المعتاد حتّى

١ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٨٤، وتفسير القمي، ج ٥، ص ٢١٨.

ارتفع على كلّ شيء حتّى الجبال الشامخة فانتقم اللّه منهم بالإغراق ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم فكأنّكم محمولون بأشخاصكم وإنّ نجاة آبائهم سبب ولادتهم ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ في السفينة لأنّ من شأنها أن تجري على الماء.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: فعلة النجاة للمؤمنين وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ وعبرة لكمال قدرة اللّه وقوّة قهره على العاصين المتمرّدين. ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ وتحفظ هذه التذكرة اذن من شأنها أن تحفظ ما يجب وينبغي حفظه والإفراد في الأذن حيث لم يقل الآذان الواعية لعلّ للإشعار على قلّتها قيل: الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن اللّه فهي السواد الأعظم عند اللّه وإنّ ما سواها لا يبالي بهم وإنّ ملئوا الخافقين.

وعن النبي صلى الله عليه وآله عند نزول هذه الآية إنّه صلى الله عليه وآله قال: «لعلي عليه السلام سألت اللّه أن يجعلها أذنك يا علي».[1] قال علي عليه السلام: «فما نسيت بعد ذلك شيئاً وما كان لي أن أنسى». فصار عليه السلام حافظاً للأسرار الإلهيّة وقد قال عليه السلام: «ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة».[2] وفي رواية أخذ بأذن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقال: «هي هذه». وقد صحّ هذا الحديث عند الفريقين ورووها[3].

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ

١ـ دلائل الأمامة، ص٢٣٥، ومدينةالمعاجز، ج٥، ص٦٩، وبحار الأنوار، ج٣٥، ص٣٢٨.

٢ـ نهج البلاغة، ج١، ص١٠٦، ووسائل الشيعة، ج١١، ص٤٧٨.

٣ـ انظر: بصائرالدرجات، ص٥٣٧، ومن مصادرالعامة: فتح الباري، ابن حجر، ج١٣، ص٤٣٩، وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٧، ص٢٢٠، وشواهدالتنزيل، ج٢، ص٣٦١.

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النفخ إرسال الريح من الفم والصور قرن من نور أوسع من السماوات ينفخ فيه إسرافيل فيحدث صوت عظيم فإذا سمع الناس ذلك الصوت يصيحون ثمّ يموتون والمصدر المبهم يكون لمجرّد التأكيد والمراد النفخة الاولى وإن كانت النفختان فالمعنى أنها لا تثنّى في وقتها وذكر الواحدة للتأكيد مثل نفخة واحدة.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: قلعت ورفعت من أماكنها بتوسّط الزلزلة والريح العاصفة فإنّ الريح في قوّة عصفها تحمل الأرض والجبال كما حملت قوم عاد ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: ضربت جملة الأرضين وجملة الجبال بعضها ببعض ضربة واحدة بلا احتياج إلى تكرار الضرب وتثنية الدقّ والدكّ أبلغ من الدق ودكّه إذا ضربه وكسره حتّى سوّاه بالأرض فتصير كثيباً مهيلاً.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: فحينئذ وقعت القيامة والواقعة من أسماء القيامة بالغلبة لتحقّق وقوعها.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ وانفرجت السماء لأمر عظيم أراده الله أو بسبب شدّة ذلك اليوم ﴿فَهِيَ﴾ أي: السماء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة ساقطة القوة بعد ما كانت محكمة أي انشقّت وانحرقت واسترخت.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: الخلق المعروف بالملك ﴿عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي: على جوانب السماء جمع رجاء بالقصر أي بعد انشقاق السماء الّتي هي مساكن الملك يلجئون إلى أكنافها وحافاتها وقوفهم على حافاتها لحظة وموتهم

بعدها فإنّ الملائكة يموتون عند النفخة الاولى ويمكن أن يكون هم المستثنون بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يموتوا في هذا الوقت المخصوص.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ العرش جسم عظيم لا يعلم عظمته إلّا اللّه وإنّه في الآفاق بمنزلة القلب في الأنفس وهو معنى الحديث: قلب المؤمن عرش الرحمن. وظاهر الآية في ذكر العرش عقيب ما تقدّم أنّ العرش بحاله خلاف السماء والأرض ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ أي: فوق الملائكة أو فوق الثمانية أي يحملون العرش ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم القيامة ثمانية من الملائكة. قال النبي صلى الله عليه وآله: **«هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله بأربعة أخرى»**. وقيل: المراد بالثمانية الثمانية آلاف وقيل: ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلّا اللّه[1].

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ متعلّق بقوله: ﴿تُعۡرَضُونَ﴾ على اللّه أي: تسألون وتحاسبون عبّر عنه بذلك تشبيها له بعرض السلطان العسكر ليعرف أحوالهم.

روي أن في يوم القيامة ثلاث عرضات عرضتان اعتذار واحتجاج وتوبيخ وأمّا الثالثة: ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك بشماله وهذا العرض وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لمّا كان اليوم اسما لزمان متّسع يقع فيه النفخات والصعقة والنشور والحساب صحّ جعله ظرفاً للكلّ كما تقول: جئت عام كذا وإنّما كان المجيء في وقت واحد من أوقاته وذهب والمشبّهة الضالّة من حمل العرش والعرض إلى كونه تعالى محمولاً في العرش لكنّه هذا المعنى كفر وغلط بل تمثيل لعظمة اللّه والمراد في هذه الآية ومن إتيانه في ظلل من الغمام إتيان أمره سبحانه وقضائه وبالجملة يا معاشر المكلّفين يوم القيامة يوم العرض لأعمالكم.

﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ أي: فعلة خافية أو نفس خافية وقيل: الخافية

١ـ جامع البيان، ج٢٩، ص٧٣، والكشاف، ج٤، ش ص١٥٣.

مصدر كالعاقبة أي خافية أحد لا تخفى وهو كقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[1] فيظهر أحوال المؤمنين فيتكامل سرورهم وأحوال غيرهم فيحصل الحزن والفضيحة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ أي: مكتوبه الّذي كتبته الحفظة ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ تعظيماً له لأنّ اليمين يتبرك بها والباء بمعنى في أو للإلصاق والمراد الأبرار فإنّ المقرّبين لا كتاب لهم لمكانتهم من الله ﴿فَيَقُولُ﴾ فرحاً وسروراً وليظهر ذلك لغيره: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: هلمّوا وخذوا كتابي واقرءوه وهاء اسم فعل معناه خذ. يقال: هاء يا رجل- بفتح الهمزة- وهاء- بكسرها- يا امرأة وهاؤما يا رجلان أو يا امرأتان وهاؤم يا رجال وهاؤنّ يا نسوة بمعنى خذ خذا خذوا خذي خذا خذن ومفعوله محذوف وكتابي مفعول اقرءوا لأنّه أقرب العاملين فهو أقوى والهاء هاء الاستراحة لنظم الآي وهذه الهاء لا تكون إلّا ساكنة وتمسّى هاء السكت وهي في سبعة مواضع في القرآن في لم يتسنّه وفي بهداهم اقتده وفي كتابيه وفي حسابيه وفي ماليه وفي سلطانيه وفي ماهيه وأمّا الهاء الّتي في القاضية والهاوية وفي خاوية وثمانية وعالية وأمثالها للتأنيث فيوقف عليهنّ بالهاء ويوصلن بالتاء.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: علمت وأيقنت أنّي مصادف حسابي في ديوان الحساب الإلهيّ وأحاسب عليه وإنّما فسّر الظنّ بالعلم لأنّ البعث والحساب ممّا يتيقّن المؤمن بهما ولا إحسان بدون اليقين ويمكن أن يكون المراد أنّي ظننت أنّي ملاق حسابي على الشدّة والمناقشة لما سلف منّي من الهفوات والآن أزال الله عنّي ذلك.

قيل في «الكشّاف»: وإنّما أجرى الظنّ مجرى العلم لأنّ الظنّ الغالب يقام مقام العلم في العبادات والأحكام ثمّ إن الظنّ استعمل بمعنى العلم في مواضع من

١ـ سورة الطارق: ٩.

القرآن كما في قوله تعالى حكاية: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا ٱللَّهِ﴾(١) وهم المؤمنون بالآخرة وفي قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾(٢) أي: علم.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: من أوتي كتابه بيمينه في نوع من العيش وإذ كسر العين من العيش يلزمه التاء والعيش الحياة المختصّة بالحيوان ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضى يرضاها من يعيش فيها أو بمعنى مرضيّة «كماء دافق» أي: مدفوق.

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المكان لأنها في السماء كما أنّ النار سافلة لأنّها تحت الأرض ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ جمع قطف وهو ما يقطف ويجتنى بسرعة والقطف بالفتح مصدر والقطف بالكسر العنقود دانية أي قريبة من مريديها ينالها القائم والقاعد والمضطجع من غير تعب ونعيم الجنّة تابع لإرادة المتنعّم به.

﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾ أمر إباحة يقال لهم: كلوا واشربوا من طعام الجنّة وشرابها ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ سائغاً لا تنغيص فيه في الحلقوم وجعل الهنأ صفة للأكل والشرب لأنّ المصدر يتناول المثنّى ومنه اليهناىء في اللحم المطبوخ ويستعمله الناس بالخاء المعجمة بدل الهاء من هنأ يهنأ ويهنى هناءة أي صار سائغاً ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ الماضية في الدنيا وقيل: المراد أيّام الصيام أي تدلّ ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله وهذا المعنى أنسب لأنّ الجزاء لا بدّ وأن يكون من جنس العمل.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ

١ـ سورة البقرة: ٤٤.

٢ـ سورة ص: ٢٤.

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩
خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا
فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ
۝٣٤ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۝٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا
ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ
كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ
۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ
بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ
لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ
۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ تحقيراً له لأنّ الشمال يتشأم بها ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ﴾ أي: لم أعط هذا المكتوب الّذي جمع جميع سيّئاتي ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ من الدراية بمعنى العلم لما شاهد من سوء الجزاء.

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ تكرير للتمنّي وتجديد للتحسّر أي: يا ليت الموتة الّتي ذقتها كانت قاطعة لأمري ولم أبعث بعدها وكانت دائمة عليّ الموتة والموتة وإن لم يكن مذكورة إلّا أنها في حكم المذكور بدلالة المقام ولمّا كانت تلك الحالة عليه أمر من الموت فتمنّاها عندها. قال الشاعر:

وشرّ من الموت الّـذي إن لقيتـه ... تمنّيت من الموت والموت أعظم[1]

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾ ولم يدفع عنّي شيئاً من العذاب الّذي كان لي في الدنيا من المال وهذا المعنى على كون ما نافية والمفعول محذوفاً وعلى كون

١ـ تفسير الرازي، ج ٣٠، ص ١١٣.

ما موصولة فاللام جارّة داخلة على ياء المتكلّم، ويمكن أن تكون للاستفهام على سبيل الإنكار أي أيّ شيء أغنى عنّي ما كان لي في الدنيا من اليسار؟

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ السلاطة التمكّن من القهر أي هلك وفنى سلطاني وملكي وبقيت ذليلاً وضلّت عنّي حجّتي كما قال ابن عبّاس: لأنّ الحجّة سلطة واستعملت في السلطة.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ حكاية لما يقوله الله يومئذ للزبانية أي خذوا هذا العاصي المتمرّد لربّه واجمعوا يديه إلى عنقه بالقيد والحديد والغلّ بالضمّ الطوق من حديد الجامع لليد الى العنق المانع عن تحرك الرأس ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ دلّ التقديم على التخصيص أي لا تدخلوه إلّا الجحيم وهي النار العظمى.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ من نار وهي حلق منتظمة والجارّ متعلّق بقوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ ﴿ذَرْعُهَا﴾ مبتدء خبره ﴿سَبْعُونَ﴾ أي: طول السلسلة ﴿ذِرَاعًا﴾ تميز ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ السلك هو الإدخال في الطريق والخيط والقيد وتقديم السلسلة على السلك كتقديم الجحيم على التصلية والملازمة بالنار وجعل السلسلة سبعين ذراعاً إرادة الوصف بطول السلسلة لأنّ هذا العدد معروف ومستعمل في الكثرة كما قال سبحانه: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[1] يزيد مرّات كثير لا خصوص السبعين من العدد.

وقال بعض أهل التحقيق: ولا منع من الحمل على ظاهره من العدد والمراد من الذراع ذراع الملك وذراع الملك سبعون باعا ومساحة باع الملك كلّ باع ما بين الكوفة إلى مكّة. قال كعب: لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها ولو وضعت حلقة من تلك السلسلة على جبل لذاب مثل الرصاص، تدخل السلسلة في فيه وتخرج من دبره ويلوى فضلها على عنقه وجسده

١ـ سورة التوبة: ٨١.

ويقرن بها بينه وبين شيطانه وحينئذ يشمل الآية الكافر لأنّ جسده يكون في العظم مسيرة ثلاثة أيّام وضرسه مثل جبل أحد على ما جاء في الحديث وعن النبي ﷺ: **«لو أنّ رضاضة مثل هذه- وأشار إلى صخرة مثل الجمجمة- سقطت من السماء إلى الأرض وهي خمسمائة عام لبلغت الأرض قبل الليل ولو أنّها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها وقعرها»**[1] واللام في السلسلة في هذا الحديث للعهد إشارة إلى السلسلة الّتي ذكرها اللّه في قوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾.

حكي أنّ شابّاً حضر صلاة الفجر من الجماعة خلف واحد من المشايخ فقرء الشيخ سورة الحاقّة فلمّا بلغ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ صاح الشابّ وسقط وغشي عليه فلمّا أتّم الشيخ صلاته قال: من هذا؟ قالوا: شابّ صالح خائف من اللّه وله والدة عجوز ليس لها غيره قال الشيخ: ارفعوه واحملوه حتّى نذهب به إلى أمّة ففعلوا فلمّا رأته أمّة فزعت وأقبلت وقالت: ما فعلتم بولدي؟ قالوا: ما فعلنا به شيئاً إلّا أنّه حضر الجماعة وسمع آية مخوّفة من القرآن فلم يطق سماعها فقالت: أيّة آية هي؟ فاقرءوها حتّى أسمع، فقرأها الشيخ فلمّا وصلت الآية إلى سمع الشابّ شهق شهقة أخرى خرجت معها روحه فلمّا رأت الأمّ ذلك وسمعت الآية خرّت ميتة فهكذا تفعل المواعظ في القلوب الواعية.

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ كأنّه قيل: ما له يعذّب بهذا العذاب الشديد؟

فأجيب: بهذا السبب عذّب هذا العذاب ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ الحضّ الحثّ على الفعل وأصله من الحثّ على الحضيض والحضيض قرار الأرض والمعنى لا يحثّ أهله وغيرهم على إعطاء طعام يطعم به الفقير فضلاً

۱ـ تفسيرابن كثير، ج٤، ص٤٤٤، وتهذيب الكمال، ج٢٣، ص٥٦.

عن أن يعطي من ماله وذكر الحضّ دون الفعل ليعلم أنّ تارك الحضّ بهذه المنزلة فيكون ترك الفعل أشدّ عقوبة وجعل سبحانه حرمان المسكين قريبة للكفر حيث عطفه عليه ولذلك قال ﷺ: **«البخل كفر والكافر في النار»**.[١] وتخصيص الأمرين بالذكر لما أنّ أقبح العقائد الكفر وأشنع الرذائل البخل وعن أبي الدرداء أنّه كان يحضّ امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين وكان يقول: جعلنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر بالإطعام والحضّ عليه.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿هَاهُنَا﴾ أي: في هذا المكان وهو مكان الأخذ الغلّ ﴿حَمِيمٌ﴾ أي: قريب نسباً أو وداداً وهذا الكلام من بقيّة ما يقال للزبانية حثّاً لهم على بطشه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي: ولا طعام إلّا من غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والقيح والدم بعصر قوّة الحرارة الناريّة روي: **«أنّه لو وقعت قطرة منه على الأرض لأفسدت على الناس معايشهم»**.[٢] ووجه التلفيق بين هذه الآية وبين قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ أنّ للنار دركات ولكلّ دركة نوع طعام والشراب، وقيل: الغسلين شجر في النار أخبث طعامهم.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أصحاب الخطايا أو الخاطئون طريق التوحيد والخاطئ هو الّذي يفعل ضدّ الصواب متعمّداً والمخطئ هو الّذي يفعله غير متعمّد أي يريد الصواب فيصير إلى غيره. ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي: فاقسم على أنّ «لا» مزيدة للتأكيد أو المعنى نفي الإقسام لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم وقيل: هو جملتان والتقدير وما قال المكذّبون فلا يصحّ لأنّه قول باطل

١ـ الاصابة، ج٦، ص٤٤٣.

٢ـ انظر: جامع البيان، ج٢٣، ص١٣٣، والدرالمنثور، ج٥، ص٢٧٧، وفتح القدير، ج٤، ص٣٩٩.

ثمّ قال: اقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ قسم عظيم لأنّه قسم بالأشياء كلّها على سبيل الشمول والإحاطة لأنّها لا تخرج عن قسمين مبصر وغير مبصر فالمبصر المشاهدات وغير المبصر المغيبات فدخل فيهما الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والإنس والجنّ والخلق والخالق والنعم الظاهرة والباطنة ممّا يكون لائقاً بأن يكون مقسماً به إذ من الأشياء ما لا يكون لائقاً بأن يكون مقسماً به وقيل: إنّ المراد بما أظهره للخلق والملائكة والقلم واللوح وبما اختزن في علمه ولم يجز القلم به ولم يشعر أحد به من الملائكة وما أبدى لهم من علمه في جنب ما اختزنه في علمه عنهم إلّا كذرّة في جنب الدنيا والآخرة ولو أظهر اللّه ما اختزن لذاب الخلائق عن آخرهم فضلاً عن جملة.

﴿إِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ على اللّه وقوله قول الحقّ وأضاف القول إليه لأنّه لمّا قال: «قول رسول» اقتضى مرسلاً وما يقرؤه ليس من كلامه بل هو مبلّغ ذاك الكلام وهو قول مرسلة فالإضافة إلى الرسول من حيث التبليغ إذ الرسول شأنه التبليغ لا الاختراع وقيل: معنى الرسول الكريم المراد جبرئيل أي: هو قول جبرئيل الرسول الكريم والنسبة والإضافة إليه من حيث إنّه أنزله من السماوات إلى الأرض وأملاه على خاتم النبيّين فجبرئيل أيضاً منزّل ومبلّغ لا أنّه قوله والقول الأوّل أنسب في المقام ويدلّ عليه مقابلة رسول بشاعر وكاهن لأنّهم كانوا يقولون للنّبي: شاعر وكاهن ولم يقولوا لجبرئيل: شاعر وكاهن.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمون تارة ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنّ القليل منكم تؤمنون أو إيماناً قليلاً تؤمنون بالقرآن والرسول، أو المراد بالقلّة النفي أي: لا تؤمنون أصلاً كقولك لمن لا يزورك: فلمّا تأتينا وأنت لا تأتينا أصلاً.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ أي: القرآن ليس بقول الكاهن كما يزعمون والكاهن

هو الّذي يخبر عن الكوائن من مستقبل الزمان أو الّذي يزعم أنّ له خدماً من الجنّ يأتونه بضرب من الأخبار وقد انقطعت الكهانة بعد نبيّنا لأنّ الجنّ منعوا من الاستماع.

وقال الراغب في «المفردات»: الكاهن الّذي يخبر بالأخبار الماضية الخفيّة بضرب من الظنّ كالعرّاف الّذي يخبر بالأخبار المستقبلة بالظنّ ولكون هذه الصناعتين مبنيّتين على الظنّ الّذي يخطئ ويصيب قالﷺ: من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما قال: **«فقد كفر بما أنزل الله على محمّد»**.[1] وفي شرح «المشارق»: العرّاف من يخبر بما أخفى من المسروق والضالّة والكاهن من يخبر بما يكون في المستقبل وفي الصحاح: العرّاف الكاهن.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكّرا قليلاً أو زماناً قليلاً تذكّرون والمراد لا تذكّرون أو المتذكّر منكم قليل والنسبة الّتي نسبوا إلى النبيﷺ من الشعر والكهانة ناشئة من عدم شعورهم وقصورهم لأنّ معاني ما يلقيهﷺ منافية لمعاني أقوال الكهنة فإنّهم لا يدعون الناس إلى تهذيب الأخلاق والأعمال المتعلّقة بالمعاد والمبدء بل الكاهن ينصب نفسه للدلالة على بعض الصوائع وبعض الأخبار بالمغيبات حدثاً يصدق فيها تارة ويكذب كثيراً ويأخذ جعلاً على ذلك فلو تذكّر وتعقّل أهل مكّة معاني القرآن ومعاني أقوال الكهنة لما قالوا بأنّه كاهن.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: القرآن منزل من اللّه نزله على لسان جبرئيل تربية وتبشيراً للسعداء وإنذاراً للأشقياء وعبّر سبحانه عن المفعول بالمصدر مبالغة.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ أي: ولو ادّعى محمّد علينا شيئاً لم نقله كما تزعمون والتقوّل افتعال القول واختراعه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: بيمينه

١ـ الخرائج والجرائح، ج٣، ص١٠٢٧، وراجع: بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٥٢، وكنزالعمال، ج٦، ص٧٤٩.

وسلبنا منه القوّة على التكلم بذلك وقيل، المعنى منعناه بقوّتنا وقدرتنا فيكون المعنى من قبيل ذكر المحلّ وإرادة الحالّ وذكر الملزوم وإرادة اللازم. ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ أي: أهلكناه وقطعنا نياط قلبه والنياط عرق أبيض غليظ كالقصبة علّق به القلب إذا انقطع مات صاحبه وفي الآية بيان لإهلاكه بأفظع ما يكون.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي: ما من أحد أيّها الناس يقدر على منع إهلاكه وحاصل المعنى أنّه لو قال من عند نفسه شيئاً أو زاد أو نقص على ما اوحي إليه لعاقبه الله وهو أكرم الناس. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ موعظة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك وحبّ الدنيا بخلاف المشرك ومن مال إلى الدنيا فإنّه يكذّب به ولا ينتفع منه ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ منكم أيّها الناس مكذّبين بالقرآن فنجازيهم على تكذيبهم. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ وندامة يوم القيامة ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين المصدّقين بالقرآن.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: القرآن هو الحقّ واليقين صفتان بمعنى واحد أضيف أحدهما: إلى الآخر إضافة الشيء إلى نفسه مثل «حبّ الحصيد» للتأكيد فإنّ الحقّ هو الثابت الّذي لا يتطرّق إليه الريب وكذا اليقين فالتجلّيات في المعلومات ثلاثة: تجلّي علميّ وتجلّي عينيّ وتجلّي حقّيّ فاليقينيّ هو العلم الحاصل بالإدراك من النظر والاستدلال بحيث يحصل به اطمينان ويزول الارتياب منه وهو المعبّر عنه بعلم اليقين ومرتبة عين اليقين أعلى من المرتبة الاولى لأنّ أهل الطبقة الاولى يمكن أن يقع لهم خطرات بخلاف أهل عين اليقين فإنّهم أهل إرشاد والنبوّة وأهل حقّ اليقين مرتبة أكمل من المرتبة الثانية بحيث لو رأوا ما كان غائباً لا يزداد في يقينهم يقين وهذه مرتبة الأكملين من الأنبياء والأولياء كما قال عليّ عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت

يقيناً».[1] مثاله فالأول: كعلم الكعبة علماً ضرورياً من غير رؤية والثاني: مثل رؤيتها من بعيد والثالث: كدخولها فافهم.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: فسبّح الله بذكر اسمه العظيم بأن تقول: سبحان الله تنزيها عن الرضى بالتقوّل عليه فمفعول سبّح محذوف والباء في ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ للاستعانة كما في ضربته بالسوط.

روي أنّه لمّا نزلت الآية قال رسول الله: «**اجعلوها في ركوعكم**».[2] ومعنى هذا التسبيح تنزيهه تعالى عن شوب الغير والتشريك وتجريد غيره عن الاستحقاق لهذا الاسم الأعظم الحاوي للأسماء ولكن لا يظهر في قلبك وشهودك أيّها المسبّح تلوين من النفس أو القلب والتوجّه لغيره تعالى فتكون مشبّهاً لا مسبّحاً ومشركاً لا مخلصاً موحّداً.

تمّت السورة بعون الله.

١ـ شرح مئة كلمة، ص٥٢، والصراط المستقيم، ج١، ص٢٣٠.

٢ـ المعتبر، ج٢، ص١٩٥، وانظر: تذكرة الفقهاء، ج٣، ص١٦٨، ونهاية الاحكام، ج١، ص٤٨٢.

سورة المعارج

مكيّة إلّا قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ مدنيّة.

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من أدمن قراءة سورة سأل سائل لم يسأله الله يوم القيامة عن ذنب عمله وأسكنه جنّته مع محمد صلى الله عليه وآله»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ
﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾
فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ
﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

السؤال بمعنى الدعاء والطلب واختلف أنّ هذا السائل من هو، قيل: القائل هو الّذي قال: «اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك[2]» الآية، هو النضر بن الحارث العبدري[2] فالمعنى دعا داع على نفسه بعذاب واقع مستعجلاً له وقيل: معنى الآية سأل بعض المشركين من النبيّ فقالوا: لمن هذا العذاب الّذي تذكر؟ جوابه بأنّه ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ وقيل: معناه دعا داع

١ـ تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤١١، وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص١١٦.

٢ـ منسوب إلى عبد الدار.

بعذاب على الكافرين وذلك الداعي هو النبيّ فحينئذ الباء زائدة للتأكيد كما في قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ وقرئ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ على قراءة الألف من سال يسيل سيلاً والتقدير سال سيل سائل بعذاب واقع.

وأخبرنا[1] السيّد أبو الحمد قال: حدّثنا الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ قال: حدّثنا أبو عبد الله الشيرازيّ قال: حدّثنا أبو بكر الجرجانيّ قال: حدّثنا أبو أحمد البصريّ قال: حدّثنا محمّد بن سهل قال: حدّثنا زيد بن أبي إسماعيل مولى الأنصار قال: حدّثنا محمّد بن أيّوب الواسطيّ قال حدّثنا سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمّد الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: **«لمّا نصب رسول الله صلى الله عليه وآله علياً يوم غدير خمّ وقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه. انتشر ذلك في البلاد فقدم على النبيّ صلى الله عليه وآله النعمان بن الحرث الفهريّ فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله وأمرتنا بالجهاد والحجّ والصوم والصلاة فقبلناها ثمّ لم ترض حتّى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعليّ مولاه فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: والله الّذي لا إله إلّا هو إنّ هذا من الله فولّى النعمان بن الحرث وهو يقول: «اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» فرماه بحجر على رأسه فقتله وأنزل الله تعالى «سأل سائل بعذاب واقع ليس له دافع من الله».**[2] إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ صفة لله تعالى مثل: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾[3] والمعارج المصاعد والمراد الأفلاك التسعة المرتّبة بعضها فوق بعض أي: له مواضع العروج ومنه الأعرج لارتفاع إحدى رجليه عن الأُخرى.

١ـ نقله عن مجمع البيان.

٢ـ شواهدالتنزيل، ج٢، ص٣٨١، ومجمع البيان، ج١٠، ص١١٩.

٣ـ سورة الأنعام: ٩٦.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ المأمورون بالنزول والصعود ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبرئيل أفرده بالذكر لتميّزه وفضله ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: يعرجون من مسقط الأمر إلى عرشه فجعل عروجهم إلى العرش عروجاً إلى الربّ لأنّ منه تبتدء الأحكام وإلى حيث شاء الله تهبط الملائكة بأمور بني آدم ﴿فِى يَوْمٍ﴾ متعلّق بتعرج ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ﴾ ممّا يعدّه الناس وقوله: ﴿خَمْسِينَ﴾ خبر كان والمعنى كمقدار خمسين ألف سنة اختلف في معناه: فقيل: تعرج الملائكة إلى الموضع الّذي يأمرهم به في يوم كان مقداره من عروج غيرهم خمسين ألف سنة وذلك من أسفل الأرضين إلى فوق السماوات السبع وقوله تعالى في سورة السجدة:[1] ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هو لما بين السماء السماء الدنيا والأرض خمسمائة في النزول والمراد أنّ الآدميّين لو احتاجوا إلى قطع هذا المقدار الّذي قطعته الملائكة في يوم واحد لقطعوه في هذه المدّة.

وقيل: إنّه يعني: يوم القيامة وإنّه سبحانه يفعل فيه من الأمور ويقضي فيه من الأحكام بين العباد ما لو فعل في الدنيا لكان مقداره خمسين ألف سنة عن الجبّائيّ وقتادة وعكرمة. وروى أبو سعيد الخدريّ قال: قيل لرسول الله: ما أطول هذا اليوم! فقال: **«والّذي نفس محمّد ﷺ بيده إنّه ليخفّ على المؤمن حتّى يكون أخفّ من صلاة مكتوبة في الدنيا»**[2]. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: **«لو ولّى الحساب غير الله لمكثوا فيه خمسين ألف سنة من قبل أن يفرغوا والله سبحانه يفرغ عن ذلك في ساعة»**.[3] وعنه أيضاً قال: **«لا ينتصف ذلك اليوم حتّى يقيل أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار»**[4].

١ـ سورة السجدة: ٥.

٢ـ نورالبراهين، ج٢، ص٧١، ومجمع البيان، ج١٠، ص١٢٠.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ مجمع البيان، ج١٠، ص١٢٠.

وقيل: معناه إنّ أوّل نزول الملائكة في الدنيا وأمره ونهيه وقضائه بين الخلائق إلى آخر عروجهم إلى السماء وهو القيامة هذه المدّة فيكون مقدار الدنيا خمسين ألف سنة لا يدري كم مضى وكم بقي وإنّما يعلمه اللّه.

وقال الزجّاج: يجوز أن يكون المعنى سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وذلك العذاب يقع يوم القيامة.

وفي «الكافي» مقطوعاً أنّ قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ * لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ نزلت للكافرين بولاية عليّ قال: هكذا واللّه نزل بها جبرئيل على محمّد صلى الله عليه وآله وهكذا هو واللّه مثبت في صحف فاطمة عليها السلام[1]. القمّي عن النبيّ صلى الله عليه وآله في معنى قوله: يعرج الملائكة والروح في صبح ليلة القدر إلى محلّ أمره سبحانه من عند النبيّ والوصيّ[2].

واليوم يوم كالآن وهو أدنى ما يطلق عليه ومنه يمتدّ الكلّ وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[3] فسمّي الزمن الفرد يوماً لأنّ الشأن يحدث فيه وهو أصغر الأزمان ويوم كألف سنة وهو اليوم الإلهيّ كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ﴾[4] وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[5] للصعود والهبوط خمسمائة من سماء الدنيا إلى الأرض وخمسمائة إلى السماء للملائكة المأمورين ويوم كخمسين ألف وهو أوّل أيّام الآخرة وهو يوم القيامة ويوم أهل الجنّة والنار إلى ما لا يتناهى. وإنّ للقيامة خمسين موقفاً

١ـ الكافي، ج٨، ص٥٨، وبحار الأنوار، ج٣٥، ص٣٢٤.

٢ـ تفسيرالقمي، ج٢، ص٣٨٦، وتفسيرالصافي، ج٧، ص٢٩٠.

٣ـ سورة الرّحمن: ٢٩.

٤ـ سورة الحج: ٤٧.

٥ـ سورة السجدة: ٥.

يسأل العبد في كلّ موقف منها عن أمر من امور الدين فإن لم يقدر على الجواب وقف كلّ موقف بمقدار اليوم الإلهيّ الّذي هو ألف سنة ثمّ لا ينتهي اليوم إلى ليل لأنّ زمان أهل الجنّة كالنهار أبداً وزمان أهل النهار كالليل أبداً.

وبالجملة في الآية تنبيه وتذكير على أنّ أيّام الآخرة إذا كان يومه وأوّل يومه مقدار خمسين ألف فالويل للعاصي وطوبى للمطيع.

وقيل: المعنى سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره كذا والباء بمعنى عن فيكون قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معترضة بين الظرف ومتعلّقه.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمّد ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ على أذاهم وتكذيبهم إيّاك لأنّ سؤالهم كان عن استهزاء وتكذيب وذلك ممّا يضجره ﷺ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المكذّبين وأهل مكّة ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ العذاب الواقع يزعمونه ﴿بَعِيدًا﴾ أي: يستبعدونه بطريق المحالية كما كانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، الآية﴾ يقول المرء لخصمه: هذا بعيد أي لا يكون ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ أي: نعلمه ﴿قَرِيبًا﴾. والمراد من القرب قرب الإمكان كما أنّ مرادهم من البعد بعد الإمكان لا بعد الزمان أو من باب كلّ ما هو آت قريب: قال الشاعر:

هل الدنيا وما فيهما جميعاً ... سوى ظلّ يزول مع النهار

وفي الحديث: **«ما الدنيا فيما مضى وما بقي إلّا كثوب شقّ باثنين وبقي خيط واحد وكاد ذلك الخيط قد انقطع»**.

ومن عجب الأيّام أنّك قاعد ... على الأرض في الدنيا وأنت قسير

فسيرك يا هذا كسير سفينة ... بقوم قعود والقلوب تطير

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو هاهنا خبث الحديد ونحوه ممّا يذاب على مهل وتدريج أو درديّ الزيت لسيلانه على مهل لثخانته قال ابن مسعود: كالفضّة المذابة في تلوّنها أو كالقير والقطران في سوادهما والظرف متعلّق

بقريباً أو متعلّق بمقدّر مؤخّر عن الظرف أي يوم تكون السماء كالمهل تكون من العذاب والأحوال ما لا يوصف.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ العهن الصوف المصبوغ أي: تكون الجبال كالصوف المصبوغ ألوانا فإذا لفّت وطيّرت في الجوّ أشبهت العهن المنفوش إذا طيّرته الريح وأوّل ما تتغيّر الجبال تصير رملاً مهيلاً ثمّ عهناً منفوشاً ثمّ هباء منثورا.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل قريب قريباً عن أحواله ولا يتكلّمه لابتلاء كلّ منهم بشغله عن ذلك وإذا كان حال القريب هكذا فكيف الأجنبي؟ والتنكير للتعميم.

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ
وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا
إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ إِنَّ
الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا
﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ
حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ
هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾
أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ
الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا

خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ استيناف لبيان معنى كأنّه قيل: لعلّه لا يبصره فكيف يسأل عن حاله فقيل: يبصّرونهم والضمير الأوّل لحميم الأوّل والثاني للثاني وجمع الضميرين لعموم الحميم ويعدّى بصر إلى المفعول الثاني بالباء وقد تخذف الباء وإذا نسبت الفعل للمفعول به حذفت الجارّ وقلت: بصرت زيداً ويعدّى بالتضعيف إلى ثان ويقوم الأوّل مقام الفاعل لكنّ الشائع تعديته إلى الثاني بحرف الجرّ يقال: بصرته به، لكنّ الآية من قبيل الأوّل. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنّى الكافر وقيل: كلّ مذنب ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ لو بمعنى التمنّي ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ بكسر الميم في يومئذ لإضافة العذاب إلى يوم وقرئ أيضاً بالفتح بناء على أنّ الاضافة إلى غير متمكّن أي يتمنّى الكافر أو المذنب أن يفتدي ﴿بِبَنِيهِ﴾ بأولاده أصله بنين سقطت نونه بالإضافة وجمعه.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته الّتي يصاحبها ﴿وَأَخِيهِ﴾ الّذي كان ظهيراً له والمراد أنّ اشتغالهم بنفسهم في العذاب بلغ إلى حيث يتمنّى أن يفتدي بأقرب الناس إليه حتّى ينجو فضلاً عن أن يهتمّ بشأنهم ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ الفصيلة في الأصل القطعة المفصولة من الجسد والجسم وتطلق على الآباء الأقربين والأولاد. والمراد في الآية الآباء الأقربون لأنّ الأولاد قد ذكروا لقوله: «وبنيه» ومعنى ﴿تُـْٔوِيهِ﴾ أي: تضمّه إليها في النسب، آوى إلى كذا: انضمّ إليه ولاذ بها عند الشدائد أي: كانوا في الدنيا ملاذهم وكهفهم.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ عطف على

يفتدي أي: يودّ أن يفتدي بهم ثمّ ينجيه الافتداء وثمّ لاستبعاد الإنجاء وهيهات أن ينجيه! ﴿كَلَّآ﴾ للمجرم المتمنّي وتصريح بامتناع الافتداء وفائدته وفي الحديث: «**يقول الله سبحانه لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أنّ لك ما في الأرض من شيء أ كنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول الله: لردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي**»[1].

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: النار المدلول عليها بقرينة العذاب ﴿لَظَىٰ﴾ علم للدرك الثاني من جهنّم منقول من اللهب الخالص الّذي لا يخالطه دخان فيكون في غاية الإحراق لقوّة حرارته الناريّة بالصفاء وهو خبر «إنّ» والمراد إنّ النار الّتي تتمنّون أن تفدون عنها لهب خالص.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ النزع جذب الشيء وقلعه من مقرّه والشوى جمع شواة وهي جلدة الرأس فالنار تقشّرها عنه، والشوى الأطراف والأعضاء فالنار قلّاعة ونزّاعة لها بقوّة الإحراق ثمّ تعود كما كانت وهكذا أبد الآباد.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الحقّ ومعرفته وتجذب النار إلى نفسها مجاز عن إحضارهم لأنّها تدعوهم فتحضرهم من مسافة ما بين سنة كالمغناطيس وتقول لهم: إليّ إليّ يا كافر ويا منافق ويا زنديق فإنّي مستقرك أو المراد أنّ النار تدعوهم بلفظ فصيح بأسمائهم ثمّ تلقطهم مثل التقاط الطير الحبّ أو تدعو زبانيتها المعرضين عن الطاعة والإيمان والمقبلين على الكفر والدنيا.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ وجمع المال حرصاً فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤدّ حقوقه الواجبة فيه وتشاغل به عن الدين وتكبّر باقتنائه وذلك لطول أمله وانعدام شفقته على عباد الله وفي الآية تنبيه على قباحة البخل وأنّه لا يليق بالمؤمن وفي الخبر أنّه صلى الله عليه وآله بصق عليه السلام يوماً في الأرض ووضع عليها إصبعه ثمّ

١ـ صحيح البخاري، ج٧، ص٢٠١، وانظر: كنز العمال، ج١، ص٧٣.

قال: «يقول الله لا بن آدم: تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتّى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد».[1] أي صوت شديد فجمعت ومنعت حتّى إذا بلغت التراقي قلت: إنّي أتصدّق وأنّى أوان الصدقة؟

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: جنس الإنسان خلق حال كونه هلوعاً مبالغة هالع أي سريع الجزع عند مسّ المكروه وسريع المنع عند مسّ الخير يقال: ناقة هلوع حريص سريعة السير. ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ إذا ظرف لجزوعاً أي: وصل إليه الفقر أو المرض ونحوهما ﴿جَزُوعًا﴾ مظهراً للجزع وهو ضدّ الصبر قال ابن عطا: الهلوع الّذي عند الموجود يرضى وعند المفقود يسخط.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: الصحّة والخير والسعة مبالغ في الإمساك والمنع أي: منوع عند الجدة وجزوع لدى الشدّة قال مقاتل: الهلوع دابّة وراء جبل قاف تأكل كلّ يوم كلاء سبعة أودية وتشرب مياه سبعة أبحر ومع ذلك لا تطيق الحرّ والقرّ وتضطرب لأكل غدها والأوصاف الثلاثة وهي هلوعاً وجزوعاً ومنوعا امور يتعلّق بها الذمّ وليست هذه الأوصاف مع أنّها طبائع جبّل الإنسان عليها لا يمكنه أن يفارقها بل يجب عليه تنزيه نفسه عنها لأنّها ليست من اللوازم الماهيّة للوجود بل إنّما حصولها فيه بوضع الله وجعل ما يزيلها أيضاً بالأسباب الّتي سبّبها في كتب الأخلاق وليس الإنسان مجبوراً في ارتكابها لأنّها كبرودة الماء وحرارته بل هي صفات تتغيّر في مراتبها كزيد والقائم والنائم وزيد هو هو وواحد، فصفة السبعة أو الملكيّة ليست جزء ذات زيد كملازمة الجسميّة لماهيّة زيد ولك الخيار في الصفات فيختار واحد السلمانيّة والآخر الأباجهليّة. قال المتنبّي:

١ـ الدرالمنثور، ج٦، ص٢٦٧، وكنزالعمال، ج٦، ص٣٠٤، والطبقات الكبرى، ج٧، ص٤٢٧.

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّـــة فلعلّـــه لا يظلـــم[١]

والحكمة في وضع هذه الأمور في الطبيعة كخلق الشهوة ليصحّ التكليف ويحارب نفسه وشيطانه فيستحقّ به الثواب إذ لا يحصل الترقي إلّا بالمحاربة فأصل النفس أمّارة لكن لا يظهر أثرها في الكاملين والممتثلين لأوامر الإلهيّة كما يظهر للناقصين.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناء من الإنسان أي: المطبوعين على الصفات الرذيلة مستمرون عليها ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ فإنهم بدلوا تلك الطبائع واتّصفوا بأضدادها ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ لا يشغلهم عنها شاغل فيواظبون على أدائها قال ﷺ: «أوّل ما افترض الله على أمّتي الصلاة الخمس وأوّل ما يرفع من أعمالها الصلاة الخمس وأوّل ما يحاسب به العبد صلاته».[٢] وإنّه آخر ما يجب عليه رعايته فإنّه يؤخّر الصوم في المرض دون الصلاة وكان آخر ما أوصى ﷺ: «به الصلاة وما ملكت أيمانكم». ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: وإلّا الّذين في أموالهم نصيب معيّن يجعلونه تقرّباً إلى اللّه من الزكاة المفروضة والصدقة ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ للّذي يسأل ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الفقير الّذي يتعفّف ولا يسأل قال أبو عبد اللّه عليه السلام: «الحقّ المعلوم ليس من الزكاة وهو الشيء الّذي تخرجه من مالك للفقير»[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ويتعبون أبدانهم وأنفسهم في الطاعة لتصديقهم بيوم الجزاء فمجرّد التصديق بالجنان واللسان وإن كان ينجي من الخلود في النار لكن لا يؤدّي إلى أن يكون صاحبه مستثنى من المطبوعين بالأحوال المذكورة.

١ـ المجوع، ج١٩، ص١٩٢، وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٨، ص٣٨١.

٢ـ كنزالعمال، ج٧، ص٢٧٦، والجامع الصغير، ج١، ص٤٣٥.

٣ـ انظر، من لايحضره الفقيه، ج٢، ص٤٨، ووسائل الشيعة، ج٦، ص٣١، ومجمع البيان، ج١٠، ص١٢٥.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم مع مالهم من الأعمال الفاضلة استصغاراً لها واستعظاماً لجنابه تعالى وعلامة الخوف الاجتناب عن المعاصي والملاهي والمؤمن الكامل خوفه من أن لا تقبل حسناته ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ لا يمكن الأمن من عذابه والآية بيان أنّه لا ينبغي لأحد أن يأمن من عذابه بل يكون بين الخوف والرجاء لأنّه لا يعلم أحد عاقبته.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ فرج الرجل والمرأة سوآتهما والجارّ متعلّق بقوله: ﴿حَٰفِظُونَ﴾ عن مباشرة الحرام وحفظ الفرج كناية عن العفّة.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وعلى بمعنى «من» أي: إلّا من نسائهم المنكوحات ومضيّ مدّة الاستبراء وإيراد ما ملكت الأيمان يدلّ على أنّ المراد من الحافظين إلّا على ملك اليمين هذا الاستثناء خاصّ بالذكور دون الإناث بمعنى أنّ المرأة تملك يمينها لا يجوز لها أن لا تحفظ نفسها عن مملوكها بل واجب عليها صون نفسها عن مملوكه ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: لا تؤاخذون في موارد الاستثناء في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الّذي ذكر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فالمبتغون بغير ما شرع الله هم المتعدّون حدوده الكاملون في العدوان والتجاوز عن الحد وحدّ النكاح أربع من الحرائر ولكن عقد التمتّع وملك اليمين لا حدّ له ودخل في المنع حرمة وطء الذكران والبهائم والزنا والاستمناء روي أنّ العرب كانوا يستمنون في الأسفار فنزلت الآية.

وفي الحديث: «**ومن لم يستطع التزويج فعليه بالصوم**».[1] فلو كان الاستمناء مباحاً لكان الإرشاد إليه أسهل لكنّ الحنابلة وبعض الحنفيّة يجوّزونها لكنّه هذا رأي فاسد حتّى عند علماء السنّة والجماعة. قال ابن عطا: سمعت أنّ قوماً يحشرون حبالى وأظنّهم هؤلاء. قال البغويّ: والآية دليل على حرمة

١ـ المهذب البارع، ج٣، ص١٩٠(ابن فهدحلي).

الاستمناء والواجب على فاعله التعزير كما قال سعيد بن جبير: عذّب الله قوماً كانوا يعبثون بمذاكيرهم ويجب العمل بالإرشاد النبويّ الّذي هو الصوم حين التوقان والحقّ أحقّ أن يتّبع.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والأمانة اسم لجنس ما يؤتمن الإنسان عليه سواء كان من جهة الباري وهي أمانات الدين والشرائع أو من جهة الخلق وهي الودائع ونحوها وقد جعل النبيﷺ الخيانة عند الائتمان والكذب عند التحديث والخلف عند المعاهدة والفجور عند المخاصمة من خصال المنافق، قال بعض الكبار: من اتّصف بالأمانة كاملاً وكتم الأسرار سمع كلام الموتى وعذابهم ونعيمهم كما سمعت البهائم عذاب أهل القبور لعدم نطقها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ والجمع باعتبار أنواع الشهادة قالﷺ: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلّا فدع».[1] وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات للتأكيد بها لأنّ في إقامتها إحياء الحقوق وفي كتمها تضييعها وإبطالها ولا يحلّ أخذ أجرة عليها بالاتّفاق.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ تقديم الجارّ والمجرور تفيد الاختصاص أي: يراعون شرائطها وسننها ويحفظونها من الإحباط باقتران الذنوب والقيام بأوقاتها وإنّهم إذا حافظوا عليها فهي تحفظهم أيضاً كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[2] وفي الحديث: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبيّ بن خلف».[3] وهو الّذي

١ـ بدائع الصنائع، ج٦، ص٢٦٦، وأبوبكر الكاشاني، م٥٩٧، وتكملة البحر الرائق، ج٩، ش ص٣٠٦.

٢ـ سورة العنكبوت: ٤٥.

٣ـ نيل الاوطار، ج ١، ص٣٧٢، وسنن الدارمي، ج٢، ص٣٠١.

ضربه النبيّ في غزوة أحد برمح في عنقه فمات منه في طريق مكّة وكان أشدّ وأطغى من أبي جهل دلّ على ذلك كونه مقتولا بيد النبيﷺ ولم يقتل بيده غيره.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ الموصوفون مكرمون بالثواب الأبديّ مستقرّون في جنّات لا يقادر قدرها ولعلّ تقديم الجنّات لمراعاة الفواصل أو المعنى مكرمون كائنين في جنّات.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ما استفهاميّة للإنكار في موضع الرفع بالابتداء و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ خبرها أي: أيّ شيء للّذين كفروا بتوحيد اللّه وما بالهم وما حملهم على ما فعلوا ﴿قِبَلَكَ﴾ عندك يا محمّد ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ مسرعين إليك أي: ناظرين إليك بالعداوة مبادي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ الجارّ متعلّق بعزين مفترقين فرقاً شتّى والأصل عزوه من العزو بمعنى الانتساب كان كلّ فرقه تعتزي إلى غير من يعتزي إليها الأخرى وكان المشركون يتحلّقون حول رسول اللّه حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً ويستهزءون بكلامه ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمّد فلندخلنّها قبلهم فنزلت.

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ﴾ من هؤلاء المهطعين ﴿أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ ليس فيها إلّا التنعّم ﴿كَلَّآۖ﴾ ردع لهم عن ذلك الطمع القارع أي اتركوا هذا الطمع وفي تنكير جنّة إشعار بأنّه لا يدخلون في كلّ جنّة ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ العلم بالنشأة الأولى من حال النطفة ثمّ العلقة ثمّ المضغة.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: أقسم أي: ليس الأمر كما يقولون، اقسم ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ المراد مشرق كلّ يوم من السنة ومغربه فيكون مائة وثمانون مشرقاً ومغرباً أو المعنى مشرق كلّ كوكب ومغربه أو أنواع الهدايات والخذلانات.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ جواب القسم ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وحذف المفعول

الأول أي نبدلهم خيراً منهم وخيرا مفعوله الثاني بمعنى التفضيل على فرض التسليم إذ لا خير في المشركين وقد قيل: إنّ الله بدّل بهم الأنصار والمهاجرين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ومغلوبين إن أردنا ذلك لكن حكمتنا اقتضت تأخير عقوبتهم وعدم إهلاكهم. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ وخلّهم لشأنهم يخوضوا ويشرعوا في باطلهم ويلعبوا في الدنيا بالاشتغال بما لا ينفعهم وهذه الآية منسوخة بآية السيف ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ من المعاينة ﴿يَوْمَهُمُ﴾ هو يوم البعث والإضافة لأنّه يوم كلّ الخلق وهم منهم أو لأنّ يوم القيامة يوم الكفّار من حيث العذاب ويوم المؤمنين من حيث الثواب فكأنّه يومان: يوم للكافر ويوم للمؤمن ﴿ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ بدل من يومهم والأجداث جمع جدث وهو القبر ﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع حال كونهم مسرعين إلى جانب الداعي وصوته وهو إسرافيل ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ هو كلّ ما نصب فعبد من دون الله وقيل: النصب شبكة يقع فيها الصيد فيسارع إليها صاحبها، ونصب واحد الأنصاب وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها قال الأخفش: نصب جمع كرهن ورهن والأنصاب جمع الجمع ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي: يسرعون أيّهم يستلمه وفي الآية تهكّم بهم بذكر جهالتهم الّتي.اعتادوها من الإسراع إلى ما لا يملك نفعاً ولا ضراً.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال من فاعل يوفضون والمعنى أبصارهم ذليلة ووصف أبصارهم بالخشوع مع أنّ الدلالة شاملة لهم لغاية ظهورها فيها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم حقارة عظيمة ويحيط بهم ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: ذلك اليوم المذكور بهذه الكيفيّات الّتي سيقع، مبتدء وخبره اليوم الّذي وعدوا به على ألسنة الرسل.

تمّت السورة بحمد الله.

سُورَةُ نُوحٍ

مكية. عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح»[1]. قال أبو عبد الله عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا تدع أن يقرء سورة إنا أرسلنا فأي عبد قرأها محتسباً صابراً في فريضة أو نافلة أسكنه الله مساكن الأبرار، كرامة من الله وزوّجه مائة حوراء وأربعة آلاف ثيب»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣)
يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا
يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ
دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ
ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ
جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ

١ـ مستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٥٤، ومجمع البيان، ج١٠، ص١٣٠.

٢ـ ثواب الأعمال، ص١٢٠.

وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾

النون نون العظمة والإرسال يقابل بالإمساك أرسل نوحﷺ واسمه عبد الغفّار سمّي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه أو هو سريانيّ معناه الساكن لأنّ الأرض سكنت إليه لأنها طهرت به من خبث الكفّار وهو أوّل أُولي العزم من الرسل على قول الأكثرين وكان قومه يعبدون الأصنام وأوّل من عذّبت أمّته وهو شيخ المرسلين، بعث ابن أربعين سنة أو ثلاثمائة وخمسين أو أربعمائة وثمانين ولبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان تسعين سنة.

قال بعض المفسّرين: إنّ في الآية دلالة على أنّه لم يرسل إلى أهل الأرض كلّهم لأنّه تعالى قال: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ فلو أرسل إلى الكلّ لقيل: إلى الخلق أو ما يشابهه كما قيل لرسول اللهﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[1] ولقول النبيّﷺ: «كان نوح النبيّ بعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى الناس عامّة»[2].

ثمّ قال: إن قيل: فما جريمة غير قومه حتّى عمّم الناس في الدعاء عليهم فقال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ؟ فإنّه إذا لم يرسل إليهم لم يكن كلّهم مخالفا لأمره حتّى يستحقّوا الدعاء أجيب بأنّه تحقّق أنّ الناس في زمانه في الكفر على سجيّة واحدة يستحقّون بذلك ولمّا أخبر بأنّه لا يؤمن منهم إلّا من آمن معه دعا على من عدا باستيصال العذاب لهم.

وقال بعضهم: إنّه كان مرسلاً لجميع أهل الأرض لأنّه لو لم يكن مرسلاً للجميع ما دعا عليهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

١ـ سورة سبأ: ٢٨.

٢ـ عوالي اللئالي، ج٢، ص١٤، ومسند أحمد، ج٣، ص٣٠٤، وصحيح البخاري، ج١، ص٨٦.

١ـ سورة الإسراء: ١٥.

فإن قلت: إذا كانت رسالته عامّة لجميع الناس فكانت مساوية لرسالة نبيّنا فما معنى قول النبيّ: إنّ نوحاً بعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى الناس عامّة؟

فالجواب إنّ رسالة نوح عامّة في زمنه ورسالة نبيّنا محمّدﷺ عامّة لجميع من في زمنه ومن يوجد بعد زمنه إلى يوم القيامة فلا مساواة فحينئذ سقط السؤال وفي الكلام بيان آخر وهو أنّ هذا العموم الّذي حصل له بعد الطوفان لم يكن من أصل بعثته بل طرأ بعد الطوفان بخلاف رسالة نبيّناﷺ.

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ وخوّفهم بالنار على عبادة الأصنام كي ينتهوا عن الشرك وأن مفسّرة لما في الإرسال من معنى القول ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من الله عاجل كالطوفان أو آجل كعذاب الآخرة لئلّا يبقى لهم عذر.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ وأصله قومي، خاطبهم بإظهار الشفقة على قومه ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ منذر من عاقبة الكفر وأفرد الإنذار مع كونه بشراً لأنّ الإنذار أقوى في تأثير الدعوة وهو مقدّم كما قال لنبيّناﷺ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1] والإنذار متعلّق بالكافر كما أنّ التبشير متعلّق بالمؤمن وقومهم كانوا كفرة ولا يستحقّون حال الكفر التبشير ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: موضح لكم أمركم بلغة تعرفونها.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: بأن اعبدوا الله والأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والأحكام من الأفعال القلوب والجوارح ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ يتناول الزجر والمنع عن جميع المحظورات ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في أخلاقي وصفاتي وأضاف الإطاعة إلى نفسه لأنّ طاعة الرسول طاعة الله وإن كانت تقع لهﷺ في الظاهر.

﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ جواب الأمر ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعض ذنوبكم هو ما سلف في الجاهليّة لا ما تأخّر عن الإسلام فإنّه يؤاخذ به ولا يكون مغفوراً بسبب الإيمان لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بالحفظ

١ـ سورة المدثر: ٢.

من عذاب الاستيصال واستحقاق العذاب إلى زمان مقدّر عند الله أي لا يصيبكم في هذه المقدّرة هلاك بسبب كفركم إذا آمنتم.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ﴾ وهو الأجل الّذي قدّر لكم على تقدير بقائكم على الكفر وهو الأجل القريب الّذي استحققتم بسبب الكفر ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادروا إلى الإيمان قبل وقوعه ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً لسارعتم إلى ما أمرتكم به.

﴿قَالَ﴾ أي: نوح مناجياً لربّه وحاكيا له وهو أعلم بحال ما جرى بينه وبين قومه من القيل والقال بعد ما بذل مجهوده في الدعوة وضاقت عليه الحيل: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى الايمان ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: دائماً بلا فتور فهما ظرفان لدعوت أراد على الدوام لأنّ الزمان منحصر فيهما وكان عليه السلام يأتي بالليل على أبوابهم ويرد على جماعتهم بالنهار فيقرع الباب؟ فيقول صاحب البيت: من على الباب؟ فيقول أنا نوح: قل لا إله إلّا الله.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ ممّا دعوتهم إليه ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسبب قبول الدعوة ﴿جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ وسدّوا مسامعهم قصداً إلى عدم الاستماع ﴿وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ الاستغشاء التقنّع والتغطّي باللباس وبالغوا في التغطّي بثيابهم لئلّا يبصروا نوحاً كراهة منه فإنّ المبطل يكره رؤية المحقّ ولئلّا يعرفهم ويدعوهم ﴿وَأَصَرُّوا﴾ وأقاموا على الكفر والماضي وأكبر الإصرار السعي في طلب الأوزار وقيل: في معنى الإصرار في الآية أن يعتقد بقلبه أنه متى قدر على الذنب فعله ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا﴾ تعظّموا عن طاعتي وأخذتهم العزّة لأنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾. ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أظهرت لهم الدعوة علنا والجهر ظهور الشيء بإفراط لحاسّة البصر والسمع ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ إشارة إلى ذكر عموم الحالات بعد ذكر جميع الأوقات أي دعوتهم على

وجوه متخالفة وأساليب متفاوته وثمّ لتفاوت الوجود.

وفي بعض التفاسير أنّ نوحاً‌عليه‌السلام لمّا آذوه بحيث لا يوصف حتّى كانوا يضربونه في اليوم مرّات قلّ صبر نوح فسأل الله أن يواريه عن أبصارهم بحيث يسمعون كلامه ولا يرونه ينالونه بمكروه ففعل الله ذلك به فدعاهم كذلك زماناً فلم يؤمنوا فسأل أن يعيده إلى ما كان وهو قوله: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: قلت لهم عقيب الدعوة عطف على قوله: «دعوت» اطلبوا المغفرة منه لأنفسكم بالتوبة عن الكفر والمعاصي ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين والمراد من كونه غفاراً في الأزل كونه مريداً للمغفرة في وقتها المقدّر وهو وقت وجود المغفور له وفي الحديث: «**من أعطي الاستغفار لا يمنع المغفرة**»[1] لأنّه قال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ ولذا كان أمير المؤمنين يقول: «**ما ألهم الله عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذّبه**» والغفّار أبلغ من الغفور والغفر الستر والتغطية ومنه قيل لجنّة الرأس «المغفر» لأنّه يستر الرأس والمغفرة من الله ستره للذنوب وعفوه عنها بفضله ورأيت في بعض الأخبار من كتب أهل السنّة (عبدي لو أتيتني بتراب الأرض ذنوباً لغفرتها لك ما لم تشرك بي).

حكي أنّ شيخاً حجّ مع شابّ فلمّا أحرم الشيخ قال: لبّيك اللّهم لبّيك فقيل له: لا لبّيك فقال الشابّ للشيخ: أما تسمع هذا الجواب؟ فقال: كنت أسمع هذا الجواب منذ سبعين سنة قال، فلأيّ شيء تتعب نفسك؟ فبكى الشيخ فقال: فإلى أيّ باب ألتجئ؟ فقيل له: قد قبلناك.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ أي: المطر كما قال الشاعر: «إذا نزل السماء بأرض

١ـ انظر: تحف العقول، ص٤١، وبحار الأنوار، ج٧٤، ص١٤٤، وتفسير الصافي، ج١، ص٤٩٨.

قوم» وقيل: حذف المضاف أي ماء السماء ﴿عَلَيْكُم﴾ حال كونه ﴿مِّدْرَارًا﴾ كثير الدّرور والسيلان والانصباب وفي الإرسال مبالغة بالنسبة إلى الإنزال وكذا المدرار صيغة مبالغة ومفعال ممّا يستوي فيه المذكّر والمؤنّث ويرسل جواب شرط محذوف والتقدير: إن تستغفروا يرسل السماء ولمّا طالت الدعوة وما نفعت وكذّبوه حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة وقيل: سبعين سنة فوعدهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخصب ويدفع عنهم ما كانوا فيه.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ ويعط لكم المدد والقوّة بهما ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ وينشئ لكم ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذوات أشجار وأثمار ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية تزيّنها بالنبات.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: أيّ سبب حصل لكم في أنكم غير معتقدين لله عظمة موجبة لتوحيده والطاعة له والرجاء بمعنى الاعتقاد والظنّ وكذلك لا تخشون منه عقاباً ولا ترجون منه ثواباً.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ يقال: عدا طوره أي: تجاوز حدّه والمعنى والحال أنه تعالى خلقكم تارات حالاً بعد حال عناصر ثمّ أغذية ثمّ أخلاطاً ثمّ نطفاً ثمّ علقة ثمّ مضغاً ثمّ عظاماً ولحوماً ثمّ أنشأكم خلقاً آخر وقيل: المراد خلقكم صبياناً وشباباً وشيوخاً وطوالاً وقصاراً وأقوياء وضعفاء مختلفين في الخلق والخلق فحينئذ التقصير في توقير من هذه قدرته ممّا لا يكاد يصدر من العاقل.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا
وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا
فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا

خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا
سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا
﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾
وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا
عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ
بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ الرؤية يمكن أن يكون بمعنى العلم لأنّ ذلك علم بالسماع من أهله أو بمعنى الإبصار والمراد مشاهدة الصنع الدالّ على العلم كيف خلق هذه السماوات المرفوعة حال كونها ﴿طِبَاقًا﴾ مطابقاً بعضها فوق بعض.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: جعله منوّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل ونسبة إلى الكلّ مع أنه في السماء الدنيا لأنّ كلّ واحدة من السماوات شفّافة لا تحجب ما وراءها فيرى الكلّ كأنّها سماء واحدة، ومن ضرورة ذلك أن يكون ما في واحدة منها كأنّه في الكلّ على أنه ذهب جماعة مثل ابن عبّاس ووهب بن منبّه إلى أنّ الشمس والقمر والنجوم وجوهها ممّا يلي السماء وظهورها ممّا يلي الأرض ولفظ السراج يقتضي ذلك لأنّ ارتفاع نوره في طرف العلوّ ولو لا ذلك لأحرقت جميع ما في الأرض لشدّة حرارتها ونورها فجعلها الله نوراً وسراجا لأهل الأرض والسماوات على أن لو كان في واحدة منهنّ يجوز أن يقال: فيهنّ كما يقال: أتيت بني تميم وإنّما أتى بعضها.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: مصباحاً يضيء لأهل الأرض فهي سراج العالم كما أنّ المصباح سراج الإنسان هي في السماء الرابعة وقيل: في الخامسة وقيل: في الشتاء في الرابعة وفي الصيف في السابعة ولو أضاءت من

الرابعة أو من سماء الدنيا لم يطق لها شيء لكنّ الجمهور على أنّها في الرابعة لا يختلف وقوله تعالى: ﴿سِرَاجًا﴾ من باب التشبيه البليغ وكذلك شبّه اللّه نبيّه محمّداً ﷺ بالسراج قال: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ لأنّه ﷺ أزال ظلمة الكفر وأنار الخلق بنور التوحيد.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: إنباتاً عجيباً بواسطة إنشاء أبيكم آدم منها أو إنشاء الكلّ منها من حيث إنّه خلقهم من النطف المتولّدة من الأغذية المتولّدة من النبات المتولّدة من الأرض استعير الإنبات للإنشاء لكونه أول التكوين والحدوث ووضع نباتاً موضع إنباتاً مصدر بحذف الزوائد وقيل: نباتاً حال لا مصدر.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض بالدفن ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث ﴿إِخْرَاجًا﴾ محقّقاً لا ريب فيه لمجازاة الأعمال ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ﴾ كرّر الاسم الجليل للتعظيم ﴿الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطة متّسعة كالفراش تتقلّبون عليها تقلّبكم على بسطكم.

﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ من السلوك وهو الدخول لا من السلك وهو الإدخال طرقا واسعة جمع سبيل وفجّ هو الطريق الواسع وجعل صفة لسبلاً. ويستعمل في الطريق الواسع أي لتسلكوا متّخذين من الأرض سبلاً فتتصرّفوا فيها مجيئاً وذهاباً وجعلها مبسوطة للسلوك والعيش كالنوم والاستقرار والحرث والفرش والسلوك جسمانيّ وروحانيّ كطلب العلم والحجّ والمعرفة والتجارة والطرق الموصلة إلى الكمال والأحوال كالعبادة والزهد والسلوك الروحانيّ لا يحصل إلّا بالسلوك الجسمانيّ كما كان معراجه ﷺ بالبدن.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربّه فهو بدل من ﴿قَالَ﴾ الأوّل ولذا ترك العطف أي: قال مناجياً لربّه: أي ﴿رَّبِّ﴾

بحذف الياء ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ وداموا على عصياني مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ استمرّوا على اتّباع رؤسائهم الّذين أبطرتهم أموالهم وأولادهم وصارت سبباً لخسارتهم في الآخرة فصاروا أسوة لهم في الخسار واتّبعوهم لوجاهتهم بسبب المال والأولاد لما شاهدوا فيهم من شبهة مصحّحة للاتّباع كما قالت قريش: لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فجعلوا إقبال الدنيا سبباً مصحّحاً للاتّباع.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: الكبرياء منهم مكروا مكراً كبيراً في الغاية والكبّار نحو الطوّال بالتشديد أبلغ من الكبار بالتخفيف ومكرهم الكبير احتيالهم في منع الناس عن اتّباع نوح وتحريض الناس على أذيّة نوح، ولمّا كان التوحيد أعظم المراتب كان المنع منه أعظم الكبائر ولذا وصف بالكبائر.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: الرؤساء للأتباع والسفلة: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ أي: لا تتركوا عبادتها ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ جرّد يغوث ويعوق عن حرف النفي إذ بلغ التأكيد نهايته وخصّ عبادة هؤلاء بالذكر فهو من باب عطف الخاصّ على العامّ لأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظم ما عندهم وقد انتقلت هذه الأصنام عنهم إلى العرب فكان ودّ لكلب بدومة الجندل ولذلك سمّت العرب بعبد ودّ.

قال الراغب: الودّ صنم سمّي عند العرب لاعتقادهم أن بينه وبين الله مودّة وكان سواع لهمدان قبيلة باليمن ويغوث لمذحج كمجلس وعنه كانت العرب تسمّي عبد يغوث ويعوق لمراد أبو قبيلة سمّي به لأنّه تمرّد عن قبيلته ونسر لحمير موضع غربيّ صنعاء اليمن وانتقلت أسماء هذه الأصنام إلى العرب فاتّخذوا أمثالها فعبدوها.

وقيل: إنّها أعيان تلك الأصنام والطوفان دفنها وغمرها في ساحل جدّة

فلم تزل مستورة حتّى أخرجها العين لمشركي العرب نظيره ما روي أنّ آدم عليه السلام كتب اللغات المختلفة في طين وطبخه فلمّا أصاب الأرض الغرق بقي مدفوناً ثمّ وجد كلّ قوم كتابا مكتوبا فأصاب إسماعيل الكتاب العربي[1].

وقيل: إنّ الأصنام أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح ماتوا فحزن الناس عليهم حزنا شديدا واجتمعوا حول قبورهم لا يكادون يفارقونها وذلك بأرض بابل فلمّا رأى إبليس فعلهم ذلك جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم: هل لكم أن أصوّر لكم صورهم إذا نظرتم إليها ذكرتموهم واستأنستم وتبرّكتم بهم؟ قالوا: نعم. فصوّر لهم صورهم من صفر ورصاص ونحاس وخشب وحجر وسمّى الصور بأسمائهم ثمّ لما تقادم الزمن وانقرضت الآباء والأبناء وأبناء الأبناء قال اللعين لهم: إنّ من قبلكم كانوا يعبدون هذه الصور فعبدوها في زمان مهلاييل بن قينان ثمّ صارت سنّة في العرب في الجاهليّة.

وقيل: إنّ المؤسّس لعبادة الأصنام في العرب عمر بن لحيّ بن قمعة علّمه جنيّ كان تابعه فقال له: اذهب إلى جدّة وائت منها بالآلهة الّتي تعبد في زمن نوح وادريس وهي ودّ، فذهب وأتى بها إلى مكّة ودعا إلى عبادتها فانتشرت عبادة الأصنام في العرب وعاش عمر ثلاثمائة وأربعين سنة ورأى من ولده وولد ولده ألف مقاتل ومكث هو وولده في ولاية البيت خمسمائة سنة ثمّ انتقلت الولاية إلى قريش مكثوا فيها خمسمائة سنة اخرى فكان البيت بيت الأصنام ألف سنة.

وذكر الشعرانيّ أنّ أصل وضع الأصنام إنّما هو من قوّة التنزيه من العلماء الأقدمين فإنّهم نزّهوا الله عن كلّ شيء وأمروا بذلك عامّتهم فلمّا رأوا

۱ـ البرهان، ج ۱، ص ۳۷۷ (الذركشي م ۷۹۴هـ)، وكشف الظنون، ج ۱، ص ۵۲.

أنّ بعض عامّتهم صرّح بالتعطيل وضعوا لهم الأصنام وكسوها الديباج والحليّ والجواهر وعظّموها بالسجود وغيره ليتذكّروا بها الحقّ الّذي غاب عن عقولهم وغاب عن أولئك العلماء الجهلاء أنّ ذلك لا يجوز إلّا بإذن اللّه وإنّ ما أمروا به يفضي إلى هذا الأمر الشنيع.

وقيل: إنّ هذا الأمر سرى من الهند إلى أرض العرب، وودّ كان على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ الرؤساء أو الأصنام والجملة حاليّة ﴿كَثِيرًا﴾ جمعهم جمع العقلاء لعدّهم آلهة ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ بالإشراك فإنّ الشرك ظلم عظيم ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ الجملة عطف على قوله: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: قال: ربّ إنّهم عصوني وقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ من غير أن يعطف أحدهما على الآخر فحكى اللّه أحد قولي نوح بتصديره بلفظ «قال» وحكى قوله الآخر بعطفه على قوله الأوّل بالواو النائبة عن لفظ «قال» ولا يلزم عطف الإنشاء على الإخبار.

والمراد من الضلال في الآية الضياع والهلاك والضلال في تمشية مكرهم بالإهلاك لا في أمر دينهم حتّى يقال: إنّ هذا الدعاء يتضمّن الرضى بكفرهم وقد بعث ليصرفهم عن الضلال فكيف يليق أن يدعو اللّه في ضلالهم وإن كان يمكن أن يجاب عن هذا الإيراد بأنّه بعد ما أوحي إليه أنّه لا يؤمن من قومك إلّا من قد آمن ونظيره دعاء موسى بقوله:

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[1] ومن أحبّ عذاب الكافر وأحبّ موت الشرير بالطبع على الكفر حتّى ينتقم اللّه منه لا ضرر فيه فيؤول المعنى.

١ـ سورة يونس: ٨٨.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ وغيّاً ليزدادوا عقاباً نظير قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[1] وقد دعا عليه السلام بهذا الدعاء بعد أن أن دعا الأبناء بعد الآباء بلغوا سبعة قرون فلمّا آيس من إيمانهم واخبر أنّهم لا يؤمنون دعا عليهم.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ أي: من أجل خطيئات قوم نوح وكفرهم ومعاصيهم وما زائدة بين الجارّ والمجرور لتأكيد الحصر المستفاد من تقديم الظرف أي إغراقهم بالطوفان لم يكن إلّا من أجل خطيئاتهم تكذيباً لقول المنجّمين من أنّ ذلك كان لاقتضاء الأوضاع الفلكيّة وهذا القول كفر لكونه مخالفاً لتصريح هذه الآية ولزيادة «ما» الإبهاميّة فائدة غير التأكيد وهي تفخيم خطيئاتهم العظيمة ومن لم ير زيادتها جعلها نكرة وجعل خطيئاتهم بدلا منها ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ في الدنيا بالطوفان ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ تنكير النار لتعظيمها أو المراد عذاب القبر عقيب الإغراق وإن كانوا في الماء فإنّ منّ مات في ماء أو في نار أو أكلته السباع أو الطير أصابه ما يصيب المقبور من العذاب: قال الشاعر:

لا تعجبنّ لأضداد إذا اجتمعت   فاللّه يجمع بين الماء والنار[2]

أو المراد من النار نار جهنّم والتعقيب لتنزيله منزلة المتعقّب لاقترابه وتحقّقه ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ وفيه تعريض باتّخاذهم آلهة من دون اللّه وبأنّها غير قادرة على نصرهم ﴿وَقَالَ نُوحٞ﴾ بعد أن قنط من اهتدائهم بالأمارات وبإخبار اللّه إيّاه ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولا تترك ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بك ﴿دَيَّارًا﴾ يدور في الأرض ويتحرك فيذهب ويجيء أي فأهلكهم بالاستيصال.

١ـ سورة المائدة: ٣٢.

٢ـ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص١٣٩، وتفسير الثعلبي، ج ١٠، ص٤٧.

وقال بعض: إنّ معنى الدّيار ليس من الدور بل من الدار وأصله ديوار وقد فعل به ما فعل بأصل «سيد» والمراد لا تذر ممّن ينزل الدار ويسكنها إذ لو كان بمعنى الدوران كما فسّرنا لم يبق على وجه الأرض جنّي ولا شيطان وإنّما أراد صلّى الله عليه أهل كلّ ساكن دار من الكفّار أي كلّ إنسيّ. لكن هذا القول: ضعيف لأنّ نوح ما كان الجنّ والشيطان من أمّته إذ لم يكن نوح مبعوثاً إلى الثقلين فهذا الدليل الّذي قال: لم يبق على وجه الأرض جنّي ولا شيطان غير موجّه على أنّه ليس ديّار فعالا من الدار وإلّا لقيل: دوّار لأنّ أصل دار دور فقلبت واوه ألفاً فلمّا ضعّفت عينه كان دوّارا بالواو المشدّدة ولا وجه لقلبها ياء.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ عليها كلّاً أو بعضاً بيان لوجه دعائه عليهم وإظهارٌ بأنّه كان من الغيرة في الدين لا لغلبة غضب النفس لهواها ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحقّ ويصدّوهم عن السبيل لأنّ الرّجل منهم كان ينطلق بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول له: احذَر هذا فإنّه كذّاب وإنّ أبي حذّرنيه وأوصاني بمثل هذه الوصيّة فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك.

﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا﴾ والفجور شقّ ستر الديانة ﴿كَفَّارًا﴾ مبالغة في الكفر أي لا يلدون ولا ينتجون إلّا من سيفجر ويكفر وإنّما قاله بالوحي لقوله في سورة هود: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ وهذا الدعاء كان في الأواخر.

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ أبو نوح اسمه لمك بن متوشلخ على وزن متدحرج وأمّه سمخاء بنت أنوش كانا مؤمنين قال ابن عبّاس: لم يكفر لنوح أب ما بينه وبين آدم وفي إشراق التواريخ أمّة قسوس بنت كابيل وقيل: هيجل بنت لاموس وكانا مسلمين على ملّة إدريس وقيل: المراد بوالديه آدم وحواء ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ أي: منزلي وقيل: مسجدي وقيل: سفينتي فإنّها

له بمنزلة البيت ﴿مُؤۡمِنٗا﴾ حال كون الداخل مؤمناً وبهذا القيد خرجت امرأته واعلة وابنه كنعان و﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ خصّ أولاً من يتّصل به نسباً وديناً ثمّ عمّ المؤمنين والمؤمنات.

وفي الحديث: «ما الميّت في قبره إلّا كالغريق المتغوّث ينتظر دعوة يلحقه من أب أو أخ أو صديق فإذا لحقته كانت أحبّ إليه من الدنيا وما فيها وإنّ الله ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال وإنّ هديّة الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم»[1].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ أي: هلاكاً والتبر دقاق الذهب قال﴿ع﴾ في الأوّل: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ لأنّه وقع بعد قوله: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ وفي الثاني ﴿إِلَّا تَبَارَۢا﴾ لأنّه وقع بعد قوله: «ولا تذر على الأرض» فذكر في كلّ مكان ما شاكل معناه وما اقتضاه فاستجيب دعاؤه وعمّهم الطوفان بالغرق وأهلكهم عن آخرهم وما نقل عن بعض المنجّمين من أنّه أراد جزيرة العرب فوقع الطوفان عليهم دون غيرهم فذلك كلام فاسد مخالف للقرآن والسنّة وتفسير العلماء وأصحاب التواريخ.

وأمّا صبيانهم قيل: إنّ الله أعقم أرحام نسائهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنّة فلم يكن معهم صبيّ ولا مجنون حين غرقوا لأنّ الله قال: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾[2] ولم يوجد التكذيب من الأطفال والمجانين وقيل: غرق معهم صبيانهم أيضاً لكن لا على وجه العقوبة لهم بل لتشديد عذاب آبائهم وامّهاتهم بإراءة إهلاك أطفالهم الّذين كانوا أعزّ عليهم من أنفسهم قال﴿ص﴾: «يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون

١ـ كنزالعمال، ج١٥، ص٧٤٩.

٢ـ سورة الفرقان: ٣٧.

مصادر شتّى»[1]، وعن الحسن أنّه سئل عن ذلك فقال: علم اللّه سرايتهم فأهلكهم بغير عذاب وكم من صبيان يموتون بالغرق والحرق وسائر أسباب الهلاك واللّه أعلم بمصالح الحكمة.

تمّت السورة بحمد اللّه.

١ـ المحلّى، ج١١، ص٤٠٨، والعمدة، ص٤٢٨، وصحيح مسلم، ج٨، ص١٦٨.

سورة الجن

مكية. أبيّ بن كعب عن النبيّ(ص) قال: «ومن قرء سورة الجنّ أعطي بعدد كلّ جنّي وشيطان صدّق بمحمّد وكذّب به عتق رقبة»[1]. وقال الصادق(ع): «من أكثر قراءة قل أوحي لم يصبه في حياة الدنيا من أعين الجنّ ولا من نفثهم ولا من كيدهم وسحرهم وكان مع محمّد وآله(ع)»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا
ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا
ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ
يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا
﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا
رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

١ـ مجمع البيان، ج١٠، ص١٤٠، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٥٤.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لقومك: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وألقي عليّ بطريق الوحي وأخبرت بأعلام من الله والإيحاء إعلام في خفاء ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح لأنّه فاعل أوحي والضمير الشأن والحديث ﴿اسْتَمَعَ﴾ أي: القرآن أو طه أو اقرأ والمفعول محذوف لدلالة ما بعده عليه والمستمع من كان قاصداً للسماع مصغياً إليه والسامع من اتّفق سماعه من غير قصد إليه ﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ جماعة منهم ما بين الثلاثة وأقلّ من العشرة والجنّ واحده جنّي كروم ورومي.

قال ابن عبّاس: انطلق رسول الله في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ فأدركهم وقت صلاة الفجر وهم بنخلة فأخذﷺ يصلّي بأصحابه صلاة الفجر فمرّ عليهم نفر من الجنّ وهم في الصلاة فلمّا سمعوا القرآن استمعوا له وفيه دليل على أنّهﷺ لم ير الجنّ حينئذ إذ لو رآهم لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحي وكذا لم يشعر بحضورهم وباستماعهم ولم يقرء عليهم وإنّما اتفق حضورهم في قراءة فسمعوها فأخبر الله بذلك.

والجنّ أجسام رقاق في صورة تخالف صورة الملك والجنّ عاقلة مدركة كالإنس خفيّته عن الأبصار لا يظهرون لهم ولا يكلّمونهم إلّا صاحب معجزة ويغلب عليهم الناريّة والهوائيّة والمركّبات كلّها من العناصر فما يغلب عليهم للناريّة فناريّ كالجنّ وما يغلب فيه الهواء فهوائيّ كالطير وما يغلب فيه الماء فمائيّ كالسمك، وما يغلب فيه التراب فترابيّ كالإنسان وسائر الحيوانات الأرضيّة.

﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم عند رجوعهم إليهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا﴾ أي: كتابا مقروءاً على لسان الرسول ﴿عَجَبًا﴾ مصدر بمعنى العجيب وضع موضع العجيب للمبالغة أي بديعاً مبايناً لكلام الناس.

وفيه إشارة إلى أنّهم كانوا من أهل اللسان قال عيزار بن حريث: كنت عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال له: كنّا في سفر فإذا بحيّة جريحة

تتشحّط في دمها فقطع رجل قطعة من عمامته فلفّها فيها فدفنها فلمّا أمسينا ونزلنا أتانا امرأتان من أحسن نساء الجنّ فقالتا: أيّكم صاحب عمرو، أي: الحيّة الّتي دفنتموها؟ فأشرنا لهما إلى صاحبها فقالتا: إنّه آخر من بقي ممّن استمع القرآن من رسول اللهﷺ كان بين كافري الجنّة ومسلميهم قتال فقتل فيهم فإن كنتم أردتم به الدنيا عوّضناكم، فقلنا: لا إنّما فعلنا ذلك لله، فقالتا: أحسنتم وذهبتا فقال: إنّ اسم الّذي لفّ الحيّة صفوان بن معطّل المراديّ.

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ إلى الحقّ وصلاح الدين والدنيا، والرشد كالقفل خلاف الغيّ، والرشد كالذهب يقال في الأمور الأخرويّة فقط ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بذلك القرآن ﴿وَلَن نُّشْرِكَ﴾ بعد اليوم ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ ولا نعبد غيره.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: وأنّ الشأن ارتفع عظمة ربّنا مستعار من الجدّ الّذي معناه الحظّ والبخت والغنى ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: لم يختر لنفسه لكمال تعاليه زوجة ولا ابناً ولا بنتاً لأنّهم بعد ما سمعوا القرآن ووقفوا للتوحيد تنبّهوا للخطاء فيما اعتقده كفرة الجنّ من تشبيه الله بخلقه فاستعظموه ونزّهوه عن هذه النقيصة ولوازم الإمكان والحدوث.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وجاهلنا ومردة الجنّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ وتجاوزا عن الحدّ في الظلم ووصف القول بالمصدر للمبالغة في التجاوز في الظلم وهو نسبة الشريك والصاحبة والولد إليه.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتذارهم من تقليدهم لسفيههم أي كنّا نظنّ أنّ الشأن والقصّة: لن يكذب على الله أحد أبداً ولذلك اتّبعنا قولهم فلمّا سمعنا القرآن علمنا أنّهم كذبوا عليه تعالى، و﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكّد لتقول.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: وأنّ الشأن كان في

الجاهليّة رجال كائنون من الإنس يلتجئون ويتعلّقون برجال من الجنّ قال أهل التفسير كان الرجل من العرب إذا أمسى في واد قفر في بعض مسائره وخاف على نفسه يقول: أعوذ بسيّد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه فيبيت في أمن وجوار حتّى يصبح فإذا بذلك استكبروا وقالوا: سدنا الإنس والجنّ وذلك قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: فزاد الرجال العائذون الإنسيّون الجنّ رهقاً وتكبّراً وعتواً وسفهاً والرهق محرّكة يجيء على معان: منها السفه وركوب الشرّ والظلم، ويجوز أن يكون المراد من الرجال العائذين رجال الجنّ زادوا الأنس ظلماً وضلالة.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أختلف في معناها قيل: إنّ هذه الآية بقيّة من حكاية قول مؤمني الجنّ لكفّارهم إنّ الكفّار الّذين يعوذون برجال من الجنّ الكفرة في الجاهلية حسبوا كما حسبتم أن لن يبعث اللّه رسولاً بعد موسى وعيسى وقيل: هذه الآية ما قبلها اعتراض من كلام اللّه ومعناه إنّ الجنّ ظنّوا كما ظننتم معاشر الإنس أنّ اللّه لا يحشر أحداً يوم القيامة ولا يحاسبه أو لن يبعث اللّه أحداً رسولاً.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: طلبنا والتمسنا قرب السماء لاستراق السمع أو طلبنا الصعود إلى السماء فعبّر باللمس مجازاً ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ أي: حفظة من الملائكة شداداً ﴿وَشُهُبًا﴾ والشهب جمع شهاب وهو نور يمتدّ من السماء كالنار أي: ملئت السماء من الحرس والشهب.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لاستراق السمع أي: كان يتهيأ لنا فيما قبل القعود في مواضع الاستماع فنسمع منها بعض كلام الملائكة ومن أحاديث البخاري عن عائشة عن رسول اللّه: «أنّ الملائكة تنزل في العنان - بالفتح وهو السحاب فتذكّر الأمر الّذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع وتسمعه ثمّ

توحيه إلى الكهّان فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم»[1].

﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡـَٔانَ﴾ في مقعد من المقاعد والآن أي في هذا الزمان وبعد البعث ﴿يَجِدۡ لَهُۥ﴾ جواب للشّرط أي يجد لنفسه ﴿شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ أي: شهاباً راصداً لأجله ومترقباً له يصدّه عن الاستماع بالرجم أو ذوي شهاب راصدين ليرجموا المستمع بما معهم من الشّهب فلمّا رأى الجنّ ذلك قالوا: ما هذا إلّا لأمر أراده الله بأهل الأرض وذلك قولهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بحراسة السماء منّا ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ خيراً وصلاحا، وفي بيان الآية أدب أدّب الله الخلق لأنّ نسبة الخير في الآية إلى الله ونسب الشرّ مجهولاً.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن
نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا
بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ
وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ
فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾
لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ
ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ
يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٠﴾

ثمّ قال في تمام الحكاية عن الجنّ الّذين آمنوا عند سماع القرآن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وهم الّذين عملوا الصالحات المخلصون ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون الصالحين في الرتبة و﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ أي: فرقاً شتّى ومتباينة كلّ فرقة تباين صاحبتها كما يبيّن المقدود بعضه من بعض والجنّ أمثال الإنس فمنهم قدريّة

١ـ صحيح البخاري، ج٤، ص٧٩.

ومرجئة وشيعة وخوارج وصفت الطرائق بالقدد لدلالتها على التقطّع والاختلاف.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي: علمنا الآن بالاستدلال ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولن نفوته إذا أراد بنا أمراً ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ وأنّه تعالى يدركنا حيث كنّا.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ من غير تأخير وتردّد ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ وبما أنزله من الهدى ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ نقصاً في الجزاء ولا ترهقه وتغشاه ذلّة وظلم فلا يخاف نقصاً في حسناته ولا زيادة في سيّئاته أو لا يخاف نقصاً قليلاً ولا كثيراً وذلك أنّ أجره وثوابه موفّر وهذا حكاية عن قوّة إيمان الجنّ وصحّة إسلامهم.

ثمّ قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ الّذين انقادوا للحقّ ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق الّذي هو الإيمان والقاسط الجائر لأنّه عادل عن الحق والمقسط العادل لأنّه عادل إلى الحق يقال: قسط إذا جار وأقسط إذا عدل.

قال صاحب تفسير «روح البيان»: وقد غلب هذا الاسم على حزب معاوية ومنه الحديث خطابا لعليّ عليه السلام: تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين[1]، فالناكثون أصحاب عائشة فإنّهم الّذين نكثوا البيعة واستنزلوا عائشة وساروا بها إلى البصرة على جمل اسمه عسكروا لذا سمّيت الوقعة يوم الجمل، والقاسطون أصحاب معاوية لأنّهم قسطوا وجاروا حين حاربوا الإمام الحقّ والواقعة تعرف بصفّين، والمارقون الخوارج فإنّهم الّذين مرقوا وخرجوا من دين اللّه واستحلّوا القتال مع خليفة رسول اللّه وهم عبد اللّه بن وهب الراسبيّ وحرقوص بن زهير البجليّ المعروف بذي الثديّة وتعرف تلك الواقعة بيوم النهروان هي من أرض العراق على أربعة فراسخ من بغداد.

١ـ علل الشرايع، ج١، ص٢٢٢، والخصال، ص٥٥٨، والاحتجاج، ج١، ص١٧٥، وبحار الأنوار، ج٣٦، ص٣٢٥.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ يجوز أن يكون من بقيّة كلام الجنّ ويجوز أن يكون مخاطبة من الله لرسوله ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى من أسلم والجمع باعتبار المعنى ﴿تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ التحرّي طلب الأليق أي: طلبوا الهداية العظيمة. ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون عن سنن الهدى﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: هم حطب توقد بهم في جهنّم.

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ أن مخفّفة من المثقّلة أي: أنّ الشأن، لو استقام الجنّ أو الإنس أو كلاهما على طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ الإسقاء والسقي بمعنى وقيل: السقي والسقيا هو أن تعطيه ماء ليشرب والإسقاء أن تجعل له ذلك حتّى يتناوله كيف شاء وغدق إذا غزر وصف الماء به في غزارته كرجل عدل وتخصيص الماء الكثير بالذكر لأنّه أصل السعة والمعنى لأعطيناهم مالاً كثيراً وعيشاً رغداً.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ ولنعاملهم معاملة المختبر في ذلك التوسيع أ يشكرونه أم يكفرون به وفيه إشارة إلى أنّ المرزوق يجب عليه القيام بشكره وذلك لوظائف الطاعات والعبادات والواجبات.

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ ووحيه ﴿يَسْلُكْهُ﴾ يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: شاقّاً صعباً يعلو المعذّب ويعذّبه على أنّه مصدر وصف العذاب به للمبالغة ثمّ إن كان إعراضه عن الوحي والذكر بعدم التصديق كان عذاب التأبيد وإلّا فبقدر جرعة إن لم تغفر له وروي أنّ «صعد» جبل في النار إذا وضع عليه يديه أو رجليه ذابتا وإذا رفعهما عادتا وقيل: «صعد» جبل أملس في جهنّم ويكلّف الوليد بن المغيرة صعوده أربعين عاماً فيجذب في أعلاه بالسلاسل فإذا انتهى إلى أعلاه انحدر إلى أسفله ثمّ يكلّف ثانياً وهكذا يعذّب أبد الآباد.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ عطف على قوله: ﴿أَسْتَمَعَ﴾ أي: وأوحي إليّ أنّ المساجد مختصّة بالله وبعبادته خصوصاً المسجد الحرام فالمراد بالمساجد المواضع الّتي بنيت للصلاة والعبادة كمسجد رسول الله ومسجد بيت المقدس وأمثالها وحاصل المعنى أن لا تذكروا مع الله في المواضع الّتي بنيت للعبادة أحداً على وجه الإشراك في عبادته كما يفعل النصارى في بيعهم والمشركون في الكعبة قال الحسن: ومن السنّة عند دخول المساجد أن يقال: لا إله إلّا الله لا أدعو مع الله آخر.

وقيل: المراد من المساجد مواضع السبعة في السجود من الإنسان وهي الجبهة والكفّان وأصابع الرجلين وعينا الركبتين وهي لله فلا ينبغي أن يسجد بها إلّا لله وروي أنّ المعتصم سأل أبا جعفر محمّد بن عليّ بن موسى الرضا‰ عن قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ فقال: هي الأعضاء السبعة الّتي يسجد عليها[1].

وقيل: إنّ المراد بالمساجد البقاع كلّها وذلك لأنّ الأرض كلّها جعلت للنبيّ مسجداً قال سعيد بن جبير: قالت مؤمنو الجنّ للنبيّ‰: كيف لنا أن نأتي المسجد ونشهد معك الصلاة ونحن نامون عنك؟ فنزلت الآية ويروى عن كعب أنه قال: «إنّي لأجد في التوراة أنّ الله يقول: إنّ بيوتي في الأرض المساجد وإنّ المسلم إذا توضّأ فأحسن الوضوء ثمّ أتى المسجد فهو زائر الله وحقّ على المزور أن يكرم زائره».[2] ولعلّ الحكمة في إيجاب السجود على هذه الأعضاء أنّ هذه الأعضاء الّتي عليها مدار الحركة هي المفاصل الّتي تنفتح وتنطبق والسعي

١ـ الحدائق الناظرة، ج٨، ص٢٧٧، وجواهرالكلام، ج١٠، ص١٤١، ووسائل الشيعة، ج٤، ص٩٥٥، وبحار الأنوار، ج٨٢، ص١٣٨.

٢ـ المقنع، للصدوق، ص٨٩، ومنتهى المطالب، ج٢، ص١٥٧، والرسالةالسعدية، ص١٢٩، مع اختلاف يسيرفي اللفظ.

ويحصل بها اجتراح السيّئات وارتكاب موجبات الشهوات فشرع اللّه بها السجود للتكفير والتطهير ومحو الذنوب.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي: وأوحي إليّ أنّ الشأن والقصّة: لمّا قام النبيّ ﷺ ولذا جعلوه في أسمائه ﷺ لأنّه هو العبد الحقيقيّ لمّا قام يدعو يقول: لا إله إلّا اللّه ويقرء القرآن ﴿كَادُواْ﴾ يعني: قريشاً ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ جمع لبدة بالكسر مثل قربة وقرب، وهي ما تلبّد بعضه على بعض وتراكب وتلاصق ومنها لبدة الأسد وهي الشعر المتراكب بين كتفيه.

والمعنى أنّ قريشاً ومشركي العرب يتراكمون ويزدحمون للإنكار ويتعاونون عليه، عن الحسن وقتادة.

وقيل: الضمير في كادوا راجع إلى الجنّ من ازدحامهم عليه تعجّباً ممّا رأوا من قراءته وعبادته عن ابن عبّاس والضحّاك.

وقيل: هو بيان قول النفر من الجنّ: لأصحابهم حين رجعوا إليهم ومرادهم أنّ أصحاب النبيّ يتزاحمون عليه لاستماع القرآن منه يودّ كلّ واحد منهم أن يكون أقرب من صاحبه فيتلبّد بعضهم على بعض فعلى هذا المعنى هذا الكلام حكاية اللّه حال النفر من الجنّ وليس من جملة ما أوحى اللّه إلى النبيّ.

إذا كان المراد من الآية ما ذهب إليه ابن عبّاس وأكثر المفسّرين، فالازدحام والتلبّد من النفر القليل يمكن أن يراد منه أنّ النفر لم يزالوا يدنون من جهة واحده حتّى كانوا عليه لبدا أو بأن يتجوّز في النفر وهم أكثر من النفر وحينئذ تعيين العدد على ما فعله بعضهم بلا معنى قال ابن مسعود: وقع الازدحام في المجنون بعدَ العود من نخلة. ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ وذلك أنّ قريش قالوا للنبيّ ﷺ: إنّك جئت بأمر عظيم لم نسمع مثله فارجع عنه فأمره سبحانه قل لهم: إنّما أدعو ربّي ومعنى هذه يعضد قول الحسن: حيث ردّ ضمير كادوا إلى قريش.

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾

ثمّ خاطب نبيّه فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمّد، للناس لا أقدر على دفع الضرر عنكم ولا إيصال الخير إليكم وإنّما القادر على ذلك هو الله تعالى وهذا اعتراف بالعبوديّة وإضافة الحول والقوّة إليه.

ثمّ قال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمّد لهم: ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾ ولا يمنعني أحد ممّا قدّره الله عليّ ولا يخلّصني من الله إن خالفت أمره أحد ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ يقال: التحد فيه أي مال عنه ويقال للملتجأ: الملتحد أي لن أجد عند الشدائد ملتجأ غيره وإذا لا أملك لنفسي شيئاً فكيف أملك لكم شيئاً.

﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء متّصل من قوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾ وفائدة الاستثناء المبالغة في توصيف نفسه بالتبليغ للدلالة على أنّه لا يدع التبليغ الّذي يستطبعه وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صفة بلاغاً أي: بلاغاً كائناً منه وبلاغاً واقع موقع التبليغ كما يقع السلام والكلام موقع التسليم والتكليم والمعنى لا أملك شيئاً سوى تبليغ وحي الله ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ الّتي أرسلني بها وجمع الرسالة باعتبار تعدّد ما أرسل هو به.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: خالف أمره في التوحيد وارتكب الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ جزاء على ذلك والجمع

باعتبار المعنى وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ دفع لأن يراد بالخلود المكث الطويل.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية لمحذوف يدلّ عليه الحال من استضعاف الكفّار له ولأنصاره ولاستقلالهم لعددهم حتّى قالوا هم بالإضافة إلينا كالحصاة من جبال كأنّه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتّى إذا رأوا ما يوعدون من فنون العذاب في الآخرة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون؟ وناصراً وعدداً منصوبان على التمييز وحمل بعضهم ما توعدون على ما رأوه يوم بدر وأيّا ما كان ففيه دلالة على أنّ الكفّار مخذولون وإن كثروا عدداً لأنّ الكافرين لا مولى لهم والواحد على الحقّ هو السواد الأعظم فإنّ نصره ينزل من العرش.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: ما أدري، ﴿أَقَرِيبٌ﴾ خبر مقدّم لقوله: ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أو يكون ما توعدون فاعلاً لقريب سادّ مسدّ الخبر لوقوعه بعد همزة الاستفهام وما موصولة والعائد محذوف أي ما أدري أ قريب الّذي توعدونه أم غاية تطول مدّتها والأمد وإن كان يطلق على القريب إلّا أنّ المقابلة تخصّصه بالبعيد والفرق بين الزمان والأمد أنّ الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عامّ في المبدء والغاية وحاصل المعنى أنّ الموعود كائن لا محالة وأمّا وقته فما أدري لأنّ اللّه لم يبيّنه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة.

فإن قيل: أليس قال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين».[1]؟ فكان عالماً بقرب وقوع القيامة فكيف قال هاهنا: لا أدري أ قريب أم بعيد؟

فالجواب أنّ المراد بقرب وقوعه هو أنّ ما بقي من الدنيا أقلّ ممّا انقضى فهذا القدر من القرب كان معلوما عنده ﷺ وأمّا قربه بمعنى كونه

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص ٧١، وتفسير الصافي، ج٣، ص ٣٣٠.

يتوقّع ساعته ويعرف زمانه فغير معلوم عنده وعند غيره، على أنّ كلّ آت قريب.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وحده أي: هو عالم لجميع ما غاب عن الخلق واللام للاستغراق ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: لا يطلع على الغيب أحداً من عباده. ثمّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ يعني: الرسل فإنّه يستدلّ على نبوّتهم بأن يخبروا بالغيب لتكون آية معجزة لهم فمن اختار للرسالة فإنّه يطّلعه على ما شاء من غيبه على حسب ما يراه من المصلحة وهو قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: يدخل ويثبت قدّام الرسول المختار المرتضى ومن جوانب الرسول عند إظهاره له على الغيب حرساً من الملائكة يحرسونه من بعض الشياطين ولمّا أظهره عليه من الغيوب المتعلّقة برسالته يعني: إنّ جبرئيل كان إذا نزل بالرسالة نزل معه ملائكة يحفظونه من أن يسمع الجنّ الوحي فيلقونه إلى كهنتهم فتخبر به الكهنة قبل الرسول فيختلط على الناس أمر الرسالة هذا كما جرّب عادة الملوك بأن يضمّوا إلى الرسول جماعة من خواصّهم تشريفاً له كما روي أن سورة الأنعام نزلت ومعها سبعون ألف ملك[1]، والراصدون هم الراقبون من الملائكة لهذا الأمر.

وقيل: معنى الآية أنّ الله يجعل لرسوله المختار للرسالة رصداً وطريقاً إلى علم ما كان قبله من الأنبياء والسلف وعلم ما يكون بعده.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ليعلم الرسول أنّ الملائكة قد أبلغوا قال سعيد بن جبير: ما نزل جبرئيل بشيء من الوحي إلّا ومعه أربعة من الملائكة حفظة فيعلم الرسول قد أبلغ الرسالة على الوحي الّذي قد أمر به. وقيل: ليعلم محمّد ﷺ أنّ الرسل قبله قد أبلغوا جميع رسالات ربّهم كما أبلغ أو كانوا محروسين محفوظين بحفظ الله.

١ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ١٥٥، وبحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٤.

وقيل: ليعلم اللّه أن قد أبلغوا لا أنّه سبحانه ما كان يعلم قبل وقوعه قبل الإبلاغ بل المعنى ليظهر المعلوم على ما كان سبحانه عالماً به ويعلمه واقعاً كما كان يعلم أنّه سيقع وقيل: المعنى ليبلغوا فجعل بدل ذلك ليعلم إبلاغهم توسّعاً.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: أحاط سبحانه علماً بما لدى الأنبياء والخلائق وهم لا يحيطون إلّا بما يطّلعهم اللّه عليه ممّا هو عند اللّه.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي: عرف عدد ما خلق لم يفته علم شيء حتّى مثاقيل الذرّ والخردل ولا شيء يعلمه عالم أو يذكره ذاكر إلّا وهو تعالى عالم وإن حمل الإحصاء على العلم تناول جميع المعلومات وإن حمل على العدّ تناول الموجودات. والآيه صريحة على أنّ علمه بالأشياء ليس على وجه كلّي إجماليّ بل على جزئيّ تفصيليّ وأيضا يستدلّ من الآية على أنّ المعدوم ليس بشيء لأنّه لو كان شيئاً لكانت الأشياء غير متناهية وكونه أحصى عددها يقتضي كونها متناهية لأنّ الإحصاء إنّما يكون في المتناهي فيلزم الجمع بين كونها متناهية وغير متناهية وذلك محال.

تمّت السورة بعون اللّه.

سورة المزّمّل

مكيّة، وقيل: مدنيّة، وقيل: بعضها مكيّ وبعضها مدنيّ. قال رسول الله ﷺ: «ومن قرء سورة المزمّل دفع عنه العسر في الدنيا والآخرة»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ
عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ
هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ
رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ
وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ والمتلفّف بثيابه والمتغطّي بها، أُدغمت التاء في الزاي لقرب المخرج ولأنّه أبدى إلى المسموع من التاء فقيل: المزمّل بتشديدين، كان ﷺ نائماً بالليل في قطيفة فأمر أن يترك التزمّل إلى التشمّر للعبادة ويختار التهجّد على الجهود قال ابن عبّاس: أوّل ما جاءه جبرئيل خافه فظنّه ﷺ مسّاً من الجنّ فرجع من جبل حراء إلى بيت خديجه مرتعداً وقال: «زمّلوني». فبينما هو كذلك إذ جاء جبرئيل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ وعن عكرمة

١ـ مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٣٥٤، ومجمع البيان، ج ١٠، ص ١٥٧.

أنّ المعنى يا أيّها الّذي زمّل أمراً عظيماً وحمله والزمل الحمل وازدمله احتمله.

قال السهيليّ: ليس المزمّل من أسمائه وإنّما المزمّل مشتقّ من حالته الّتي كان عليها وقت الخطاب وكذا المدثّر وفي هذا الخطاب الملاطفة فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب سمّوه باسم مشتقّ من حالته الّتي هو عليها كقول النبيّ ﷺ لعليّ حين وقعت معاتبة بينه وبين فاطمة[1] فأتاه ﷺ وعليّ نائم قد لصق بجبينه التراب فقال له: «قم يا أبا تراب»، ملاطفة له وكذلك قوله لحذيفة: قم يا نومان وكان حذيفة نائماً وإنّما خوطب ﷺ بهذا الخطاب في بدو الوحي ولم يكن قد بلغ شيئاً ثمّ خوطب بعد ذلك بالنبيّ والرسول.

﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أي: لا تزمّل وترقد ودع هذه الحال لما هو أفضل منها وقم إلى الصلاة في الليل وحذف «في» وأوصل الفعل إلى الظرف فنصب لأنّ عمل الجرّ لا يكون في الفعل والنصب أقرب إليه من الرفع ومن ذلك قال بعضهم: هو مفعول نظرا إلى الظاهر في الاستعمال ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من الليل.

﴿نِصْفَهُ﴾ بدل من الليل بدل البعض من الكلّ أي: قم نصفه والتعبير عن المخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتناء بشأن النصف المقارن للقيام والإيذان بفضله وكون القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب بمعنى أنّه يجوز أن يوصف النصف المستثنى بكونه قليلاً بالنسبة إلى النصف المشغول بالعبادة مع أنّهما متساويان في المقدار حيث إنّ النصف الفارغ لا يساويه بحسب الفضيلة والشرف فالاعتبار بالكيفيّة لا بالكمّيّة.

﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ﴾ أي: انقص القيام من النصف إلى الثلث ﴿قَلِيلًا﴾ أي:

١ـ لامعاتبةَ ولانزاع ولااختلاف بين علي وفاطمة عليهما السلام لإنهما معصومان وقلبها طاهرٌ مطهرٌ وآية التطهير في شأنهما ولذاقال الصدوق رحمه الله ليس هذا الخبرعندي بمعتمد، ولاهولي بمعتقدفي هذه العلة لأن علياً وفاطمة عليهما السلام ماكانايقع بينهما. لأنه عليه السلام سيدالوصيين، وهي سيدةنساءالعالمين، مقتديان بنبيّ الله ﷺ في حسن خلق، وبحار الأنوار، ج٤٣، ص١٤٧.

نصفاً قليلاً أو مقداراً قليلاً ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف إلى الثلثين بمعنى أن قُم وصلِّ ثلثي الليل الليل ونم ثلثه قال الصادق عليه السلام: «القليل النصف». أو انقص من القليل قليلاً أو زد على القليل قليلاً[1] وقيل: معنى الآية قم نصف الليل إلّا قليلاً من الليالي وهي ليالي العذر كالمرض وغلبة النوم وعلّة العين ونحوها أو انقص من النصف قليلا أوزد عليه وبالجملة خيّر الله سبحانه نبيّه في هذه الساعات للقيام بالليل وجعله موكولاً إلى رأيه. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطائفة من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير وشقّ ذلك عليهم وكان الرجل منهم لا يدري كم صلّى وكم بقي من الليل فكان يقوم الليل كلّه مخافة أن لا يحفظ قدر الواجب حتّى خفّف عنهم بآخر هذه السورة.

وعن سعيد بن هشام قال: قلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله فقالت: ألست تقرء يا أيّها المزّمّل؟ قلت: بلى قالت: فإنّ الله أفرض قيام الليل في أوّل هذه السورة فقام النبيّ وأصحابه حولاً وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء حتّى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف بقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فصار قيام الليل تطوّعاً بعد أن كان فريضة.

وقيل: كان بين أوّل السورة وآخرها الّذي نزل فيه التخفيف عشر سنين، والقائل سعيد بن جبير، وقيل: هذا كان بمكّة قبل فرض الصلوات الخمس ثمّ نسخ بالخمس وقيل: هذا التخيير في القيام بين نصف الليل أو أقلّ منه أو أزيد منه في الآية على حسب طول الليل وقصره فالنصف إذا استوى الليل والنهار والنقص منه إذا قصر الليل والزيادة إذا طال الليل.

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي: بيّنه بيانا واقرأه على هنيئتك ولا تنثره نثر الرمل واقرأه بالتثيب والنظم والتوالي والتؤدة وتوفّ حقّها في أداء الحروف

١ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص ١٦١، وتفسير الصافي، ج ٥، ص ٢٤٠.

ولا تغيّر لفظا ولا تقدّم مؤخّراً وهو مأخوذ من ترتّل الأسنان إذا استوت وأحسن انتظامها يقال: ثغر رتل إذا كانت أسنانه مستوية لا تفاوت فيها.

وبالجملة رتّله ترتيلا بليغا في قراءتك في القيام وغيره بحيث يتمكّن السامع من عدّها ولذا نهى ابن مسعود عن التعجيل وقال: لا يكن همّ أحدكم آخر السورة ولذا قيل: شرّ القراءة الهذرمة أي السرعة وكانﷺ يجوّد القرآن، وتجويده تحسين ألفاظه بإخراج الحروف من مخارجها وإعطاء حقوقه من صفاته كالجهر والهمس واللين ونحوها بغير تكلّف من التمطيط والتجاوز عن الحدّ وكان ينبغي للقاري أن يحذر عن الإدماج والتخليط بحيث يلفّ بعض الكلمات في بعض الكلمات في بعض آخر لزيادة السرعة كالبياض إن قلّ صار سمرة وإن كثر صار برصاً وما فوق الجعودة فهو القطط.

قال النبيّﷺ: «من قرء القرآن أقلّ من ثلاث لم يفهمه».[1] وعن النبيّﷺ أنّه قرأ بسم الله الرّحمن الرّحيم عشرين مرّة وكان له كلّ مرّة فهم وفي كلّ كلمة علم وقد كان بعض الأصحاب يقول: كلّ آية لا أفهمها ولا يكون قلبي فيها لم أعدّ لها ثواباً وإذا قرء سورة لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية.

قال بعض العلماء: لكلّ آية ستّون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر والمقصود من إنزال القرآن فهم الحقائق والعمل بالفحاوي شرّع الإنصات لقراءة القرآن وجوباً عند بعض وندبا عند بعض أو وجوباً في القراءة في الصلاة وندبا في غيرها على الاختلاف بين العامّة والخاصّة وللقاري أجر وللمستمع أجران.

قال صاحب «روح البيان» ختم القرآن في ركعة واحدة أربعة: تميم الداريّ وعثمان ابن عفّان وسعيد بن جبير وأبو حنيفة وكان همسر بن

١ـ المصنف، ج٣، ص٣٥٦.

المنهال يختم في الشهر تسعين ختمة وما لم يفهم رجع فقرء مرّة أُخرى. وفي «القاموس»: وأبو الحسن عليّ بن عبد اللّه ابن ساوان ختم في النهار أربع ختمات إلّا ثمنا مع إفهام التلاوة.

وفي الخبر: «طيّبوا طرق القرآن من أفواهكم باستعمال السواك، والصلاة بعد السواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفاً»[1].

وفيما روى أبو عبيد القاسم بن سلام عن النبيّ ﷺ: «**ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن**»[2] قال السيّد المرتضى في «الغرر والدرر»: معناه أراد أن يستغني بالقرآن، تقول العرب تغنّيت تغنّياً وتغانيت تغانياً قال ابن مسعود: من قرأ سورة آل عمران فهو غنيّ أي مستغن. قال الأعشى:

وكنـت امـرءا زمنـا بـالعراق عفيف المناخ طويل الـتغن[3]

وفي حديث: «**نعم كنز الصعلوك سورة آل عمران يقوم بها في آخر الليل**». وفي حديث آخر عن النبيّ ﷺ: «**لا ينبغي لحامل القرآن أن يظنّ أنّ أحداً أعطي أفضل ممّا أعطي لأنّه لو ملك الدنيا بأسرها لكان القرآن أفضل ممّا ملكه**».[4] ولو كان معنى ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن الترجيع وحسن الصوت لعظمت المحنة على أكثر الناس بذلك. وذكر الأنباريّ وجها آخر في الخبر وهو: أنّ المراد من لم يتلذّذ بالقرآن ولم يستحله ولم يستعذب تلاوته كاستحلاء أصحاب الطرب للغناء والتذاذهم به وسمّي ذلك تغنّياً توسّعاً نظير قولهم: العمائم تيجان العرب والحبى حيطان العرب والشمس حمّامات العرب.

١ـ مسند أحمد، ج٦، ص٢٧٢، ومجمع الزوائد، ج٢، ص٩٨، والدرالمنثور، ج١، ص١١٣، عن النبي ﷺ.

٢ـ المبسوط، ج٨، ص٢٢٧، والكافي، ج٢، ص٦٠٥، ومعاني الأخبار، ص٢٧٩.

٣ـ الأمالي، ج١، ص٢٤، (السيد المرتضى)، وبحار الأنوار، ج٨٩، ص١٩١.

٤ـ الأمالي، ج١، ص٢٤، (السيد المرتضى)، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٢٣٧.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: سنرمي إليك قولاً ثقيلاً وهو القرآن العظيم المنطوي على تكاليف شاقّة ثقيلة بالنسبة إلى عدم التكليف والثقل حقيقة في الأجسام ثمّ يقال: للمعاني باعتبار اللازم منه أو ثقيلاً حين إلقائه عليه كما سئل رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ قال: يأتيني مثل صلصلة الجرس أحياناً وهو أشدّ عليّ فيفصم ويقلع عنّي وقد وعيت ما قال وأحياناً تمثيل إلى الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول: قالت عائشة: ولقد رأيته ﷺ ينزّل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليترشّح عرقاً.

وقوله ﴿إِنَّا سَنُلْقِي﴾ الآية اعتراض بين الأمر وهو ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ وتعليله وهو ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ لتسهيل ما كلّفه من القيام وعن أبي جعفر وأبي عبد الله قالا: ﴿نَاشِئَةَ﴾ هي القيام في آخر الليل إلى صلاة الليل[1] وقيل: معناه ساعات الليل لأنّها تنشأ ساعة بعد ساعة أي إنّ ساعات الليل الناشئة وقيل: الناشئة بالجنسيّة قيام الليل. ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي: كلفةً وثقلاً مصدر وطئ الشيء أي داسه برجله لأنّ العبادة في تلك الساعات أثقل على الإنسان من العبادة في النهار والمقصود بيان أفضليّة العبادة في ذلك الوقت وقد جعل الله الليل لباساً يستر الناس ويمنعهم عن الاضطراب والحركة وأقدامهم للعبادة أثبت بخلاف النهار فإنّهم فيه مباشرون أمور معاشهم. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ اسم من القول بمعناه فقلب الواو ياء أي: أزيد في الاستقامة في المقال والطبع أفرغ فيه وقيل: الناشئة أن تكون بعد النوم فلو لم يتقدّمها نوم لم تكن ناشئة.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: تقلّباً وتصرّفاً في مهمّاتك كتردّد السائح في الماء ومشتغلاً بشواغلك فلا تستطع أن تنفرغ كاملا في العبادة وقيل: المعنى إن فاتك من الليل شيء من العبادة فلك فراغ في النهار فتداركه

١ـ مجمع البيان، ج ١٠، ص١٦٣، ومستدرك الوسائل، ج٦، ص٣٣٦، وبحار الأنوار، ج ٨٠، ص٩٦.

فيه حتّى لا ينقص شيء من حظّك من العبادة لربّك.

وفي بعض كلمات المحقّقين: من فاته نافلة من النوافل أو ورد من الأوراد استحبّ له فعل مثله متى ذكره لا على وجه القضاء في الأوراد ولكن على سبيل التدارك ورياضة النفس كيلا تعتاد الرخص وأمّا في النوافل لا بأس على وجه القضاء بتداركها.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي: وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراية علم خصوصاً بعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس فإنّهما من ساعات الفتح والفيض قلباً لساناً وأركاناً وقياماً وقعودا لأنّ العبد بسبب دوامه واشتغاله بهذا الفيض الأعظم وهذه المناسبة يغلب قدسه على دنسه إن كان من أهل الدنس وتصير مناسباً لعالم القدس وإن كان أهل السعادة فحينئذ يترقّى مقامه من مرتبة إلى مرتبة وهلمّ جرّا ويفيض عليه من العلوم ما شاء الله. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: انقطع إلى ربّك انقطاعاً بالعبادة والتوجّه الكلّيّ وإخلاص النيّة وجرّد نفسك عن امور الصادّة عن مراقبة الله واقطع العلائق عمّا سواه وليس هذا منافيا لقوله: «لا رهبانيّة ولا تبتّل في الإسلام».[1] فإنّ التبتّل هنا هو الانقطاع عن النكاح ومنه قيل لمريم: البتول، أي المنقطعة عن الرجال وأمّا إطلاق البتول على فاطمة عليها السلام فلكونها شبيهة بمريم في أنّها سيّدة نساء بني إسرائيل في الانقطاع عمّا سوى الله لا عن النكاح.

وقيل: تبتيلا مكان تبتّلاً لأنّ معنى التبتّل بتّل نفسه، فجيء على معناه مراعاة لحقّ الفواصل أو من قبيل قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ تقديره أنبتكم منها إنباتاً فنبتم نباتاً وكذا هنا التقدير تبتّل إليه تبتّلاً بتبتّلك عمّا سواه تبتيلاً.

١ـ الفائق في غريب الحديث، ج٢، ص٩٢(جارالله الزمخشري).

فإن قيل: إنّ التبتّل والانقطاع الكلّي ينافي معه قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾.

فالجواب أنّ عمل الظاهر لا يقع الكامل عن ذكره ومراقبته فمن مستنفل ومن ذاكر وذلك بحسب اختلاف الأحوال والأشخاص وقد يكون مشاغله الظاهرة في حكم العبادة والانقطاع.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أي: هو ربّهما وخالقهما يريد به جنس المشارق والمغارب في الشتاء والصيف ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استيناف لبيان ربوبيّته بنفي الألوهيّة عمّا سواه ﴿فَٱتَّخِذۡهُ﴾ لمصالح دينك ودنياك، والفاء لترتيب الأمر وموجبة على اختصاص الربوبيّة ﴿وَكِيلٗا﴾ مفوّضاً إليه موكولا له لإصلاحها واسترح أنت. واعلم يا أخي أنّ من جعل اللّه وكيلاً لزمه أيضاً أن يكون وكيلاً للّه على نفسه في استحقاق حقوقه وفرائضه وكلّ ما يلزمه فيخاصم نفسه في ذلك ليلاً ونهاراً لا يقصر لحظة ولا يقصر طرفة قال الزورقي: خاصيّة الاسم نفي الحوائج والمصائب فمن خاف ريحاً أو صاعقة أو نحوهما فليكثر منه فإنّه يصرف عنه السوء ويفتح له أبواب الرزق.

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: قريشاً من الخرافات والهذيانات في حقّ اللّه من الشريك والصاحبة والولد وفي حقّك من الساحر والشاعر والكاهن والمجنون وفي حقّ القرآن من أنّه أساطير الأوّلين ونحو ذلك.

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ تأكيد للأمر بالصبر أي: واتركهم تركاً حسناً بأن تجانبهم بقلبك وهواك والهجر والهجران مفارقة الإنسان غيره وذلك يكون بالبدن أو باللسان أو بالقلب وقوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ﴾ يحتمل للثلاثة.

وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾
وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: دعني وإيّاهم وكل أمرهم إليّ ولا تشتغل قلبك بمجازاتهم. والآية للتهديد كما يقول القائل: دعني وإيّاه. و«ذر» أمر من وذر لكن لم يجعلوا له ماضي مثل دع لم يجعلوا ودع لأنّ الابتداء بالواو يستكرهونه ولذلك أبدلوا في بعض الموارد الواو بالهمزة أو التاء مثل اقّتت وتراث وتخمة، والمكذّبين مفعول معه ويجوز على العطف أي دعني على أمري ودع المكذّبين.

﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ صفة للمكذّبين أي: أرباب التنعّم والترفّه قريشاً لا سيّما بني المغيرة. والنعمة بفتح النون التنعّم وبكسرها الإنعام وما أنعم به عليك وبالضمّ السرور والتنعّم استعمال ما فيه النعومة واللين من المأكول والملبوس ومعلوم أنّ متعلّق الذمّ ليس نفس النعمة والرزق بل المتنعّم كما قال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن والياً: «إيّاك والتنعّم فإنّ عباد الله ليسوا بالمتنعّمين»[1]، وفيه تسلية للفقراء فإنّهم يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ والمهل التؤدة والسكون أي مهّلهم زماناً قليلاً وأجلاً يسيراً ولا تعجل فإنّ الله سيعذّبهم في الآخرة إذ عمر الدنيا قليل وكلّ آت قريب. ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ في الآخرة ﴿أَنكَالًا﴾ أي: قيوداً ثقالاً يقيّد بها أرجل المجرمين إهانة لهم وتعذيبا لا خوفاً من فرارهم جمع نكل بالكسر وهو القيد الثقيل بيان الاقتدار على الانتقام منهم ومضادّة على تنعّمهم الباطل في الدنيا بكفران النعمة ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي كلّ نار عظيمة في مهواة شديدة الحرّ والاتّقاد.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ هو ما ينشب في الحلق ويعلّق من عظم وغيره فلا ينساغ لا هو نازل ولا هو خارج كالضريع والزقوم وهما في الدنيا من النباتات والأشجار سمّان قاتلان للحيوان الّذي يأكلهما مستكرهان فما ظنّك بضريع

١ـ مسند أحمد، ج٥، ص٢٤٣، والجامع الصغير، ج١، ص٤٤٦، والسيرةالنبوية، ج٤، ص١٩٥.

جهنّم وزقّومها؟ ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يقادر قدره كما يدلّ عليه التنكير. في التفسير: إنّه لمّا نزلت هذه الآية خرّ النبيّ ﷺ مغشيّاً عليه[١].

قيل: إنّ الحسن البصريّ أمسى صائماً فاتي بطعام فعرضت له هذه الآية فقال: ارفعه ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال: ارفعه وكذلك الثالثة فأخبر ثابت البنانيّ ويزيد الضبيّ ويحيى البكّاء فجاءوا فلم يزالوا حتّى شرب شربة من سويق.

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرف للاستقرار من الأنكال والجحيم والرجفة الزلزلة والزعرة الشديدة أي تضطرب بهيبة الله ليكون علامة القيامة وأمارة لجريان حكم الله في مؤاخذة العاصي وأفرد الجبال بالذكر لعظمتها وغلظ أجسامها وهي أوتاد فإذا تزلزلت الأوتاد لم يبق للأرض قرار وأيضاً زلزلة العلويّات أظهر من زلزلة السفليّات ومن زلزلتها تبلغ القلوب الحناجر خوفاً من الوقوع.

﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ من شدّة الرجفة مع صلابتها مثل رمل هبل هبلاً واسيل ونثر بحيث لو حرّك من أسفله انهال من أعلاه ومهيل اسم مفعول من هال وأصله مهيول كمبيع والحاصل أنّ الأرض والجبال يدقّ

١ـ انظر: تفسير الصافي، ج ٥، ص ٢٤٢، وتفسير الأصفي، ج ٢، ص ١٣٦٨.

بعضها ببعض فتصير الجبال كالمجموعة من الرمل المهيل ثمّ ينسفها الريح فيصير هباء منبثاً وتبقى الأرض مكانها ثمّ تبدل.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ أيها الناس، يعني: محمّداً ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ في الآخرة يشهد بما يكون منكم وقع في الدنيا ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بمصر ﴿رَسُولًا﴾ يعني: موسى بن عمران ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ وتخصيص فرعون لأنّه الرئيس والباقي تبع فعصى فرعون المعلوم حاله تنعّماً وكبراً الرسول الّذي أرسلناه إليه فعصيتم أنتم رسولكم كما كذّب فرعون وقومه موسى ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾ بسبب عصيانه ﴿أَخْذًا﴾ ثقيلاً ﴿وَبِيلًا﴾ لا يطاق وأذهبناهم من طريق الماء إلى النار والوبيل الثقيل الغليظ ومنه الوابل للمطر العظيم.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ إن كفرتم كأنّه قيل: هبوا أنّكم لا تؤخذون في الدنيا أخذة فرعون فكيف تتّقون أنفسكم، اتّقى بمعنى وقى المتعدّي إلى مفعولين ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: بقيتم على الكفر ﴿يَوْمًا﴾ أي: عذاب يوم مفعول به لتتّقون ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ من شدّة هوله والولدان جمع وليد يقال: ويستعمل في من يقرب عهده بالولادة وإن كان يستعمل فيمن بعد عهده منها تجوّزاً ﴿شِيبًا﴾ وشيوخ جمع أشيب وهو بياض الشعر.

قال الزمخشريّ: رأيت في بعض الكتب أنّ رجلاً أمسى فاحم الشعر كحل الغراب وأصبح هو أبيض الرأس واللحية كالثغامة بياضاً وهو نبت أبيض قال: رأيت القيامة والجنّة والنار ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار فمن ذلك أصبحت كما ترون.

وقال أحمد الدورقيّ: مات رجل من جيراننا شابّاً فرأيته وقد شاب فقلت: وما قصّتك قال: دفن رجل في مقبرتنا فزفرت جهنّم زفرة شاب منها كلّ من في المقبرة كما في فصل الخطاب.

فإن قلت: إيصال الضرر والألم إلى الصبيان غير جائز لكونهم غير مكلّفين.

أجابوا أنّه إذا كان في القيامة من هيبة المقام ما يجثو به الأنبياء على الركب فما ظنّك بغيرهم؟ النهاية أنّ هذا المكروه لهم لعلّ لوجوب الاستحقاق للنعيم الدائم لهم لأنّهم ليس لهم عمل أو أنّه محمول على التمثيل، وسرعة الشيب موجبها الهموم والأحزان لأنّ الهمّ إذا تفاقم على المرء ضعفت قواه لأنّه يوجب انعصار الروح إلى داخل القلب وذلك الانعصار يوجب انطفاؤها الحرارة الغريزيّة وضعفها وانطفائها يوجب بقاء الأجزاء الغذائيّة غير تامّة النضج وذلك يوجب بياض الشعر لعدم استعداد بصلة الشعر كاملاً من منبته فيسرع الشيب وقيل: يجوز ذلك أن يكون وضعاً لليوم بالطول يعني على الكناية بأنّه في طوله بحيث يبلغ الأطفال فيه أوان الشيخوخيّة والشيب لا أنّه تقدير حقيقيّ من هو لا ينقضي بعد بل يمتدّ إلى حيث يكون مقداره خمسين ألف سنة.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ السماء مبتدء خبره منفطر به أي منشقّ بسبب ذلك اليوم فذكر سبحانه من هول ذلك اليوم هذا الانفطار فإذا انفطرت السماوات وانشقّت على عظمتها بسبب ذلك الهول فما ظنّك بغيرها من الخلائق؟ فالباء للسببيّة أي بسبب الهول والشدّة ويجوز أن يكون الباء بمعنى في أي في ذلك اليوم، قال المكّيّ في قوت القلوب: حرف العوامل يقوم بعضها مقام بعض واستشهد بهذه الآية وقيل: الباء للاستعانة مثل فطرت العود بالقدوم فالمعنى السماء منفطر باستعانة شدّة ذلك اليوم وهذا المعنى الآخر ركيك جدّاً لأنّ اتّخاذ الآلة والاستعانة لا يليق بجنابه تعالى.

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ الضمير راجع إلى الله تعالى وإن لم يجر له ذكر، للعلم به والمصدر مضاف إلى فاعله أي كان وعده كائنا محقّقاً أو الضمير

راجع لليوم والمصدر مضاف إلى مفعوله والفاعل مقدّر وهو الله، قال في الصحاح: الوعد يستعمل في الخير والشرّ فإذا أسقطوا الخير والشرّ قالوا في الخير: الوعد والعدة وفي الشرّ: الإيعاد والوعيد.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة لمن يطلب الخير لنفسه وكيف لا والقرآن موعظة للمتّقين طريق للمساكين ونجاة للهالكين وبيان للمستبصرين وشفاء للمتحيّرين وأمان للخائفين وأنيس للعابدين ونور للعارفين وهدى لمن أراد الطريق إلى ربّ العالمين.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ من المكلّفين ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بالتقرب إليه بالإيمان والقبول.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

ثمّ خاطب نبيّهﷺ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ يا محمّد إنّك تقوم أقلّ من ثلثي الليل وأقلّ من نصفه وأقلّ من ثلثه والهاء تعود إلى الليل أي نصف الليل وثلث الليل فحاصل المعنى يكون إنّك تقوم في بعض الليالي قريباً من الثلثين وفي بعضها قريباً من نصف اللّيل وفي بعضها قريباً من ثلث اللّيل وقيل: إنّ الهاء تعود إلى الثلثين أي أقرب من نصف الثلثين ومن ثلث الثلثين ولكن إذا

قرئت نصفه وثلثه بالنصب فالمعنى تقوم نصفه وثلثه وإطلاق الأدنى على الأقلّ مجاز مرسل من قبيل إطلاق الملزوم على اللازم لأنّ المسافة بين الشيئين إذا دنت قلّ ما بينهما من الأحياز والحدود وإذا بعدت كثر ذلك.

روي أنّه تعالى افترض قيام اللّيل في أوّل هذه السورة فقام النبيّ وأصحابه حولاً مع مشقّة عظيمة من حيث إنّه يعسر عليهم تمييز القدر الواجب حتّى قام أكثر الصحابة اللّيل كلّه خوفاً من الخطاء في أصابة المقدار المفروض وصاروا بحيث انتفخت أقدامهم واصفرّت ألوانهم وأمسك اللّه خاتمة السورة من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إلخ اثنى عشر شهراً في السماء حتّى أنزل اللّه في آخر السورة التخفيف فنسخ تقدير القيام بالمقادير المذكورة مع بقاء فريضة أصل التهجّد حسبما تيسّر ثمّ نسخ نفس الوجوب أيضاً بالصلوات الخمس. ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ مرفوع معطوف على الضمير في «تقوم» أي ويقوم معك طائفة من أصحابك وتابعك وهم عليّ وأبو ذرّ كما قال ابن عبّاس: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يعلم مقادير اللّيل والنهار فيعلم القدر الّذي يقومونه من اللّيل والعالم بمقادير ساعات اللّيل والنهار ومكوّرهما على الحقيقة هو اللّه وأنتم تعلمون ذلك بالتحرّي والاجتهاد الّذي يقع فيه الخطاء أحياناً. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ ولا تطيقوا المداومة ومعرفة الساعات ويقع منكم التقصير فيه لا يحصل لكم العلم الحقيقي بتقدير اللّيل وأوقاته ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ وخفّف بأن جعله تطوّعاً بعد ورفع التبعة عن الحكم الوجوبيّ كرفع التبعة عن التائب ولم يلزمكم إثما كالتائب لا يلزمه إثم بعد التوبة فاستعمل لفظ المشبّه به في ثمّ اشتقّ منه فقال: ﴿فَتَابَ﴾ أي: فرخّص وسهّل لكم ترك القيام بنفي الوجوب والعزيمة وجعل الحكم رخصة وندباً.

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: فصلّوا ما تيسّر لكم من صلاة اللّيل

غير مقدّرة بكونها هذا المقدار أو نحوه ولو قدر حلب شاة وقيل: معنى الآية فاقرءوا في صلاة الليل ما تيسّر من القرآن وعبّر عن الصلاة بالقرآن لأنّها تتضمّنه ومن قال: إنّ المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة فهو محمول على الاستحباب عند الأكثرين دون الوجوب ولكن فسّر أبو مسلم بالقيام لقراءة القرآن لا غير والّذين حملوا المعنى على قراءة القرآن استحباباً.

اختلفوا في القدر الّذي تضمّنه هذا الأمر من القراءة فقال سعيد بن جبير: خمسون آية وقال ابن عبّاس: مائة آية قال الحسن: ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجّه القرآن وقال كعب: من قرأ مائة آية كان من القانتين وقيل: مائتا آية والقائل السدّيّ وقال جويبر: ثلث القرآن لأنّ مقدار الثلث متيسّر.

والظاهر أنّ المراد من معنى ما تيسّر مقدار ما أردتم وحصل لكم اليسر في قراءته قال النبيّ ﷺ: **«إنّ الله ليبغض كلّ جعظريّ»**. أي الفظّ الغليظ جوّاظ أي: الضخم المختار سخّاب بالأسواق أي: شديد الصوت جيفة باللّيل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة[1] وبالجملة فللعاجز لمرض أو ضعف أو عذر آخر يقرء بالآيتين من سورة البقرة في ليلة والمراد ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلخ والأعجز منه قراءة سورة الإخلاص ثلاث مرّات يقوم مقامه ختمه.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ استيناف داع إلى الترخيص والتخفيف ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: ومنكم قوم آخرون ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ يسافرون فيها للتجارة ابتغاء الرزق وطلب الأرباح وتحصيل العلم طلب رزق الأرواح كما أنّ طلب الربح في الأموال طلب رزق الأجسام وفي حديث أبي ذرّ أنّه قال: **«حضور مجلس العلم يعني علم آداب الشريعة أفضل من صلاة ألف ركعة وأفضل من شهود ألف جنازة ومن عيادة ألف مريض»**.

١ـ كنز العمال، ج١٦، ص٤، وانظر: السنن الكبرى، ج١٠، ص١٩٤.

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ﴾ الأعداء ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطف على مرضى كالجهاد وفي الآية إشعار بأنّ المكتسب للمال الحلال للنفقة على نفسه وعياله وللإنفاق في سبيل الله للفقراء وذوي الحاجات بمنزلة الجهاد له من الثواب كما يفصح من هذا المعنى ما رواه عبد الله بن مسعود قال: «**إنّما رجل جلب شيئاً من مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء**».

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر وتعاضدت المعاذير فاقرءوا ما تيسّر من القرآن من غير تحمّل المشاقّ.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة وقيل: المراد من هذه الزكاة هي زكاة الفطرة إذ لم يكن بمكّة زكاة غيرها وإنّما وجبت الزكاة المفروضة بعدها ومن فسّرها بالزكاة المفروضة جعل الآية مدنيّة ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ﴾ والقرض القطع وسمّي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط ردّ بدله قرضاً لأنّه مقطوع من ماله أريد من معنى القرض في الآية الإنفاقات في سبيل الله وفي الآية حثّ على التطوّع دون المفروض كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة**»[1]. على أحسن وجه ومعنى أحسن الوجه إخراجها من أطيب المال لأنّ الله تعالى طيّب ولا يقبل إلّا الطيّب ولا بدّ أن ينفق المنفق للفقراء بحسن النيّة وصفاء الخاطر إلى أحوج الصلحاء وشروط أخر وقوله: ﴿قَرۡضًا حَسَنًاۚ﴾ يشعر بهذه الشروط وتسمية الإنفاق لوجه الله اقتراضاً استعارة تشبيهاً له بالإقراض من حيث إنّ ما أنفقه يعود عليه مع زيادة.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ ما شرطيّة ﴿تَجِدُوهُ﴾ جواب الشرط أي: أيّ خير كان ما ذكر وما لم يذكر تقدّموا لغدكم من الأمور الخيريّة المشروعة تجدوا ثوابه ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ من الّذي تؤخّرونه إلى الوصيّة عند

١ـ مختلف الشيعه، ج٣، ص٢٥٧، والمجموع، ج٥، ص٣٣٢، وعوالي اللئالي، ج٢، ص٦٦.

الموت لأنّ أجر ما قدّمت تعطى بغير حساب، في الحديث: اعلموا أنّ كلّ امرئ على ما قدّم قادم وعلى ما خلّف نادم[١]. قال الشاعر:

قدّم لنفسك قبل موتك صالحاً واعمل فليس إلى الخلود سبيل[٢]

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: سلوا اللّه المغفرة لذنوبكم في جميع أوقاتكم وكافّة أحوالكم.

واستحبّ الاستغفار على الأسماء من القرآن مثل أن يقول: أستغفر اللّه إنّه كان توّاباً أستغفر اللّه إنّه غفور رحيم أستغفر اللّه إنّه كان غفّاراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ يبدّل السيّئات حسنات للمؤمنين.

وفي بعض المجامع أنّ من كتب هذا الاستغفار وجرّعه لمن صعب عليه.

الموت انطلق لسانه وسهل عليه الموت وهو قوله: «**اللّهم أنت ربّي لا إله إلّا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت**»[٣].

تمّت السورة بحمد اللّه.

١ـ بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٨٣، ومحاسبة النفس، الكفعمي، ص٥٩.

٢ـ تفسير القرطبي، ج٢ص٧٣.

٣ـ السنن الكبرى، ج٦، ص١٢١، وكنز العمال، ج١، ص٤٧٧، وتفسير القرطبي، ج٤، ص٤٠.

سُورَةُ المُدَّثِّر

مكية. قال أبو جعفرعليه السلام: «من قرأ في الفريضة سورة المدثر كان حقاً على الله أن يجعله مع محمدصلى الله عليه وآله ولا يدركه شقاء في الحياة الدنيا»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

المدثّر بتشديدين أصله المتدثّر وهو لابس الدثار وهو ما يلبس فوق الشعار الّذي يلي الجسد ومنه قولهصلى الله عليه وآله: «الأنصار شعار والناس دثار»[2].

روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن النبيصلى الله عليه وآله أنه قال: «كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد إنك رسول الله فنظرت عن يميني وعن يساري ولم أر شيئاً فنظرت فوقي فإذا به قاعداً على عرش بين السماء والأرض يعني: الملك الّذي ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت: دثّروني دثّروني وصبّوا عليّ ماءً بارداً فنزل جبرئيل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. وإنّما تدثّر بناء على اقشعرار جلده وارتعاد فرائصه

١ـ ثواب الأعمال، ص١٢٠، ووسائل الشيعة، ج٤، ص٨١٠، وبحار الأنوار، ج٨٢، ص٣٨.

٢ـ تفسير كنز الدقائق، ج٢، ص٢٠٨، وجوامع الجامع، ج١، ص٣٢٠، والكشاف، ج١، ص٤٥٩.

رعباً من الملك النازل من حيث إنّه رأى ما لم يره قبل ﴿قُمْ﴾ من مضجعك ﴿فَأَنذِرْ﴾ الناس جميعاً من عذاب الدنيا إن لم يؤمنوا، وأفرد الإنذار بالذّكر مع أنّه أرسل بشيراً لأنّ التخلية قبل التحلية وكان الناس عاصين مستحقّين للتخويف فكان أوّل الأمر هو الإنذار.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وخصّص ربّك بالتكبير اعتقاداً وعملاً وعظّمه عمّا يقول فيه عبدة الأوثان وسائر الظالمين ويروى أنّه لمّا نزل قال رسول اللّه: «اللّه أكبر». فكبّرت خديجة وأيقنت أنّه الوحي[١] لأنّ الشيطان لا يأمر بالتكبير والفاء لمعنى الشرط كأنّه قيل: أيّ شيء حدث فلا تدع تكبيره ووصفه تعالى بالكبرياء، فأمره أولاً أن ينزّه ربّه عمّا لا يليق به من الشرك.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهّر لباسك ممّا ليس بطاهر للصلاة بحفظها وصيانتها عن النجاسات وغسلها بالماء الطاهر بعد تلطّخها فإنّه قبيح بالمؤمن الطيّب أن يحمل خبيثاً أو بتقصيرها أيضاً فإنّ طولها يؤدّي إلى جرّ الذيول على القاذورات فيكون التطهير كناية عن التقصير لأنّه من لوازم التطهير وحدّ التقصير أن يكون إلى أنصاف الساقين أو إلى الكعب فإنّه صلى الله عليه وآله جعل غاية طول الإزار إلى الكعب وتوعّد على ما تحته بالنار.

قال عليّ عليه السلام: «قصّر ثوبك فإنّه أتقى وأنقى وأبقى»[٢]، وأمر به من رفض العادات المذمومة فإنّ المشركين ما كانوا يصونون ثيابهم عن النجاسات للكبر وعدم الاستنجاس والدين بني على الطهارة ولا يدخل الجنّة إلّا طاهر نظيف واللّه يحبّ الناسك النظيف. ومن المعلوم أنّه كما يجب تطهير الجسم عن النجاسة يجب تطهير النفس عن الشرك والمعاصي وتنزيهها عن المعائب، ومنه

١ـ تفسير القرطبي، ج١٩، ص٦٢، والكشاف، ج٤، ش ص١٨٢.
٢ـ فقه القرآن، ج١، ص٦٨، قطب الراوندي.

الحديث: «يحشر المرء في ثوبيه اللّذين مات فيهما». أي عمليه الخبيث والطيّب.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي: اهجر الأصنام والأوثان عن ابن عبّاس والزهريّ ومقاتل وقتادة من قبيل إيّاك أعني وقيل: المعنى اجتنب المعاصي قال الكسائيّ: الرجز بالكسر العذاب وبالضمّ الصنم والمراد اهجر ما يؤدّي إلى العذاب أو جانب الفعل القبيح والخلق الذميم.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: ولا تعط مستكثراً، أي: يكون ما تعطيه بنظرك كثيراً أو المعنى طالباً للكثير وهو أن يهب شيئاً هو يطمع أن يتعوّض من الموهوب له أكثر ممّا أعطاه وهذا النهي إمّا للتحريم وهو خاصّ بالرسول لعلوّ منصبه في الأخلاق الحسنة ولشرفه أو النهي للتنزيه، ولأمّته وقيل: ولا تمنن حسناتك على اللّه مستكثراً لها فينقّصك ذلك عند اللّه وقيل: هو نهي عن الرباء المحرّم وقيل: لا تمنن بإبلاغ الرسالة على اُمّتك عن الجبّائيّ.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: ولوجه ربّك فاصبر على أذى المشركين وعلى ما حمّلت من الأمور الشاقّة.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ بمعنى ما ينقر فيه وهو القرن الّذي ينفخ فيه إسرافيل مرّة للإصقاع واخرى للإحياء فاعول من النقر بمعنى التصويت وأصله القرع الّذي هو سبب الصوت والمراد هذا النفخ إذ هو نوع ضرب للهواء الخارج من الحلقوم أي فإذا نفخ في الصور والفاء للسببيّة كأنّه قيل: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه.

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: عسر الأمر على الكافرين من جهة العذاب وسوء الحساب وذلك إشارة إلى وقت النقر وهو مبتدء ويومئذ بدل منه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكّن وهو إذ والتقدير إذ

نقر فيه والخبر يوم عسير فيوم النقر يوم عسير على الكافرين ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ خبر بعد خبر وتأكيد يفسّر ذلك اليوم والمراد به يوم النفخة الثانية إذ هي الّتي يختصّ عسرها بالكافرين جميعاً وفي الحديث: «**كيف أنتم وصاحب القرن قد التقم قرنه ينظر متى يؤمر أن ينفخ فيه؟**» فقيل له:ﷺ كيف نصنع؟ قال: «**قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل**»[1].

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: ذرني وحدي معه فإنّي أكفيكه في الانتقام منه حال من الياء أو حال من التاء في خلقت أي خلقته وحدي أو حال من العائد المحذوف أي ومن خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد نزلت في الوليد بن المغيرة المخزوميّ وكان يلقّب في قومه بالوحيد زعماً منهم أنّه لا نظير له في وجاهته ولا في ماله وكان يفتخر أيضاً فسمّاه الله

١ـ انظر: فيض القدير، ج٢، ص٥٧٩، المناوي.

بالوحيد تحكّماً به كقوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ وكان الوليد زنيماً وملحقاً بالقوم وليس منهم.

﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ أي: مبسوطاً كثيراً وهو ما كان له بين مكّة والطائف من صنوف الأموال ومن النقد كان له ألف ألف دينار ﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ وأعطيته ولدا حضورا معه بمكّة يتمتّع بمشاهدتهم لا يفارقونه لتجارة وعمل لأنّ لهم من به الكفاية لوفور نعمهم وخدمهم وكانوا معه حاضرين في الأندية لوجاهتهم واعتبارهم وكان للوليد عشرة بنين أسلم منهم ثلاثة خالد وهشام وعمارة ولكن إسلام عمارة غير موجّه بل قتل كافرا يوم بدر أو في الحبشة ولكن قالوا: أسلم خالد بن الوليد الّذي يقال له «سيف اللّه» والوليد بن الوليد وهشام بن الوليد.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أي: وبسطت له الجاه والرياسة فأتممت عليه النعمة في الدنيا ولذا كان يلقّب بريحانة قريش ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ﴾ ويرجو ﴿أَنۡ أَزِيدَ﴾ على ما آتيته من المال والولد وثمّ استبعاد واستنكار مطمعه وحرصه.

﴿كَلَّآ﴾ ردع له عن طمعه وقطع لرجائه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ والعناد والمجانبة والمعارضة بالخلاف والعنيد بمعنى المعاند كالجليس بمعنى المجالس لأنّ إنكار الآيات القرآنيّة مع وضوحها هو المعاندة وإنّما أُوتي ما اوتي من المال استدراجا قيل: ما زال يعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله حتّى هلك وهو فقير.

﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ رهقه الأمر غشيه بقهر والصعود العقبة الشاقّة ويستعار لكلّ مشاقّ وصعود فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكّر والمؤنّث فيكون من قبيل تسمية المحلّ باسم الحالّ أو باعتبار معنى الطريق وحاصل

المعنى سأكلّفه كرها ارتقاء عقبة شاقّة المصعد وتغشاه حالة تصعد فيها نفسه النزع ولم يتعقّبه موت أو الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثمّ يهوي كذا أبداً والمراد من الخريف العام لأنّ الخريف آخر السنه فيه تتمّ الثمار وتدرك فصار لهذه المناسبة كأنّه العام كلّه.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليل للوعيد أي فكّر وعمل فكره في حقّ القرآن ما يصنع به من التكذيب والطعن فيه وقدّر في نفسه ما يقوله وهيّاه.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقديره أي هذا الّذي هيّاه وذكره من أنّ القرآن سحر في غاية الركاكة.

وبيان ذلك أنّ الوليد مرّ بالنبيّ ﷺ وهو يقرء (حم السجدة) أو (حم المؤمن) فقال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمّد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة أي حسناً وقبولاً وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق. أي: ريّان، شبّه القرآن بالشجرة الغضّة الطريّة الّتي استحلم أصلها بكثرة الماء وأثمرت فروعها في السماء وأثبت له أعلى وأسفل ولأعلاه الثمار ولأسفله الأغداق على طريق الاستعارة التخييليّة ثمّ قال الوليد: وإنّه يعلو ولا يعلى، فقالت قريش: صبأ والله الوليد ولتصبأنّ قريش كلّهم بمتابعته لكونه رئيس القوم، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه فقعد عنده حزيناً وكلّم وليداً ما أغضبه وقال له: توقّر محمّداً وتعظّم كلامه لأن تأكل من فضل طعامه وتنتفع منه إن كان هذا مقصودك فليجتمع قريش ويجمعون لك من المال ما يغنيك فغضب الوليد من كلامه وقال: ألم تعلم قريش أنّي من أكثرهم مالاً وولداً وأصحاب محمّد لم يشبعوا؟ ثمّ قام الوليد وقام أبو جهل ووردا على قريش في مجتمعهم فقال

الوليد: اعلموا أنّ أمر محمّد قد انتشر في العرب والموسم قريب فإن اجتمعت العرب لمناسكهم وسألتكم عن حال محمّد فماذا تقولون؟ تزعمون أنّه مجنون فهل رأيتموه يختنق؟ لأنّ العرب كانت تعتقد أنّ الشيطان يختنق المجنون ويتخبّطه، أو تقولون إنّه كاهن فهل رأيتموه يتكهّن؟ أو تزعمون أنّه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قطّ؟ أو تزعمون أنّه كذّاب فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كلّ ذلك: اللّهم لا. ثمّ قالوا: فما هو وما تقول في حقّه؟ ففكّر فقال: ما هو إلّا ساحر أما رأيتموه يفرّق بين المرء وأهله وولده ومواليه وما الّذي يقوله إلّا سحر يأثر عن مسيلمة وعن أهل بابل فارتج الناس فرحاً وتفرّقوا معجبين بقوله.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرير للتعجّب للمبالغة في التشنيع وثمّ للدلالة على أنّ الفكرة الثانية في التعجيب أبلغ من الأولى.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في القرآن وتأمّل فيه ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ وقلب وجهه وقطب لمّا لم يجد فيه مطعنا وكره كالمهتمّ المتفكّر ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: قبض بين عينيه من السوء واسودّ وجهه منه وإمّا إتباع لعبس وحاصل المعنى قاتله اللّه كيف قدّر في آياتنا ما قدّر مع وضوح الحجّة! ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقّ ولم يقرّ به واستكبر عن اتّباعه ﴿فَقَالَ﴾ بعد تولّيه عن الحقّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: ما هذا القرآن الّذي يقرؤه محمّدﷺ إلّا سحر مأثور ومنقول ينقله يقال: آثرت الحديث إذا حدّثت به عن قوم ينقله خلف عن سلف.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ إن نافية تأكيد لما قبله ولذا أخلى عن العاطف قاله اللعين تمرّدا حسبما شرّح في صدر الجملة من شرح حاله وأراد يسار أو جبر أو أبا فكيهة أمّا الأولان فكانا عبدين من بلاد فارس وكانا بمكّة وكان النبيّ يجلس

معهما وأمّا أبو فكيهة فكان غلاماً رومياً يتردّد إلى مكّة من طرف مسيلمة الكذّاب من اليمامة فلو كان سحراً كما قال أو كلام البشر فهلّا أتوا بمثله؟

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: أدخله جهنّم، وسقر اسم من أسماء النار أو طبقة من جهنّم طبقته السادسة يقال: سقرته الشمس إذا آذته وآلمته، وسمّيت سقر لإيلامها. قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ بدل من ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ بدل الاشتمال.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ «ما» الاولى مبتدء وأدراك خبره وما الثانية خبر لقوله: ﴿سَقَرُ﴾ لأنّها المفيدة لما قصد من التهويل والمعنى أيّ شيء أعلمك ما سقر؟ يعني: خارج عن دائرة إدراك العقول شدّتها.

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تبقي شيئاً تلقى فيها إلّا أهلكته بالإحراق وإذ أهلك لم تذره هالكا حتّى يعاد خلقاً جديداً وتهلكه إهلاكا ثانياً كما قال: ﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ ولا تبقي ولا تذر لأنّها خلقت من غضب الجبّار.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ لاحت النار الشيء إذا أحرقته وسوّدته أي مغيّرة للجلود حتّى أشدّ سوادا من الليل. فإن قيل: وصف الجلود بتسويد البشر مع قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ كيف يطابق؟ فالجواب إنّ لمراتب العذاب درجات وليس في الآية دلالة على أنّها تفنى بالكلّيّة ولو دلّ على الفناء فيكون بعد التسويد وقيل: المعنى في ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: لائحة للناس وهي للبشر من مسيرة خمسمائة عام فهو في المعنى كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ فيصل إلى الكافر سمومها وحرورها كما يصل إلى المؤمن ريح الجنّة ونسيمها من مسيرة خمسمائة عام.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: على جهنّم وسقر تسعة عشر ملكاً يتولّون أمرها

وهم مالك وثمانية عشر معه أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصى وأشعارهم تمسّ أقدامهم يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة نزعت منهم الرحمة يأخذ أحدهم سبعين ألفاً في كفّه ويرميهم حيث أراد من جهنّم وهذه التسعة عشر عدد الرؤساء والنقباء وأمّا جملة أشخاصهم فكما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: المدبّرين لأمرها القائمين بتعذيب أهلها وتقدير الآية. وما جعلنا خزنة أصحاب النار فحذف المضاف ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ جعلنا شهوتهم في تعذيب أهل النار وليخالفوا جنس المعذّبين من الثقلين والملائكة أقوم بحقّ الله والغضب له تعالى وأشدّهم بأساً: قال النبيﷺ: **«لقوّة أحدهم مثل قوّة الثقلين يسوق أحدهم الامّة وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ويرمي الجبل عليهم، ويسع كفّ أحدهم مثل ربيعة ومضر»**[2].

ويروى أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل: أ يعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسود الجمحيّ- وكان شديد البطش والقوّة حتّى كان من قوّته أنّه إذا قام على أديم واجتمع جماعة على إزالة رجليه عنه لم يقدروا عليه فكانوا يشدّون ويجرّون الأديم حتّى ينقطع قطعا ورجلاه على حالهما-: أنا أكفيكم سبعة عشر عنهم فاكفوني أنتم اثنين فنزلت الآية أي وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطافون فمن ذا الّذي يغلب الملائكة والواحد منهم له من القوّة ما يقلّب جملة من الأرض فيجعل عاليها سافلها والواحد منهم يأخذ أرواح جميع الخلق.

١ـ مجمع البيان، ج١٠، ص١٨٢، وانظر: بحار الأنوار، ج٥٦، ص١٦٦، وتفسير البغوي، ج٤، ص٤١٧.

٢ـ تفسير القرطبي، ج١٩، ص٧٩، والدر المنثور، ج٦، ص٢٨٤، والكشاف، ج٤، ش ص١٨٥.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وما جعلناهم على هذا العدد إلّا محنته وتشديداً في التكليف للكفّار والجاحدين بوحدانيّته حتّى يتفكّروا فيعلموا أنّه القادر الحكيم لأنهم إذا رجعوا عقولهم لعلموا أنّ من سلّط ملكا واحداً على كافّة بني آدم لقبض أرواحهم فلا يغلبونه قادر على سوق بعضهم إلى النار فهم ما تدبّروا بعقولهم هذا الأمر بل استبعدوا لتولّي هذا العدد القليل أمر الجمّ الغفير وتحقّق افتتانهم باستقلالهم للعدد.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى أنّه حقّ وأنّ محمّداً صادق وليكتبوا اليقين بنبوّته ﷺ وصدق القرآن لما شاهدوا ما فيه موافقا لما في كتبهم حيث أخبر ﷺ بما هو في كتبهم من غير قراءة لها ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنّه في كتبنا كذلك ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان أي ولئلا يشكّ أهل الكتاب لأنّ العدد المذكور في كتابهم فليستيقن من لم يؤمن بمحمّد ﷺ ومن آمن بصحّة نبوّته إذا تدبّر. ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ اللّام لام العاقبة أي عاقبة أمر الّذين في قلوبهم من الأمراض الباطنة من قبيل الشكّ والنفاق والكافرون الجازمون في التكذيب: أيّ شيء أراد بهذا العدد المخصوص وممثّلا به؟ وقيل:

المعنى: ولأن يقولوا: ماذا أراد اللّه بهذا الوصف والعدد فتدبّروه فيؤدّي بهم التدبّر في ذلك إلى الإيمان.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ ذلك إشارة إلى ما قبله من المذكور من جعل خزنة النار ملائكة ذوي عدد معيّنة محنة واختباراً ليظهر الضلال والهدى وأضافهما إلى نفسه لأنّ سبب التكليف وهو من جهته تعالى فالاختبار من

جانبه تعالى والاختيار من جانبهم وليس المعنى أنّه تعالى أضلّهم وإنّما وقع الضلال بعنادهم وإنكارهم الحقّ وذلك بصرف اختيارهم السوء كأبي جهل وأصحابه لكنّ اللّه لمّا علم بعلمه الأزليّ أنّه سيمتحن ويكفر بآياته كتبه في الأشقياء وذلك بإحاطة علمه المعلومات أي هو عالم بأنّ هذا الأمر سيقع وقيل: معنى يضلّ اللّه عن طريق الجنّة والثواب من يشاء ويهدي من يشاء إليه كهداية أصحاب محمّد ﷺ فكما أنّه تعالى ما أجبر أصحاب أبي جهل على الضلالة كذلك ما أجبر أصحاب محمّد على الهداية.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي: جموع خلقه الّتي من جملتها الملائكة ولم يجعل خزنة النار تسعة عشر لقلّة جنوده بل بهم الكفاية والحكمة اقتضت هذا العدد وهذا الكلام جواب أبي جهل حيث قال: ما لمحمّد أعوان إلّا تسعة عشر أو المعنى وما يعلم عدّة الملائكة الّذين خلقهم اللّه لتعذيب أهل النار إلّا اللّه لكن هؤلاء التسعة عشر رؤساؤهم ولهم من الأعوان والجنود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ثمّ رجع إلى ذكر سقر فقال: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: السقر وذكر صفتها ما هي إلّا موعظة وتذكرة وإنذار للبشر بسوء عاقبة الكفر وتخصيص الإنس مع أنّها تذكرة للجنّ أيضاً لأنّهم هم الأصل في القصد بالتذكرة.

وقيل: الضمير راجع إلى نار الدنيا إلّا تذكرة للبشر من نار الآخرة حتّى يتفكّروا فيها ويحذروا نار الآخرة أو المراد ما هذه التسعة عشر إلّا عبرة للخلق فليستدلّوا بذلك على كمال قدرة اللّه.

في «الكافي» عن الكاظم عليه السلام يعني ولاية عليّ ذكرى للبشر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ قال: **«المراد الولاية وكذلك في قوله:** ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ **يعني: من تقدّم إلى ولايتنا أخّر عن سقر ومن تأخّر عن ولايتنا تقدّم**

إلى سقر، والاستثناء في قوله ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾» قال عليه السلام: «اليمين أمير المؤمنين فأصحاب اليمين شيعته، وقد حرّفوا فلا تصغ إلى كلّ ناعق»[1].

كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾

ثمّ أقسم سبحانه على عظيم ما ذكر من الوعيد فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكر سقر أي: ارتدع عن إنكارها أيها المنكر فإنّها حقّ ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾ مقسم به مجرور بواو القسم تنبيه على عجائب القمر في حركاتها المختلفة على نظام واحد لا يختلّ وقيل: بحذف المضاف أي بخالق القمر، والقمر الهلال بعد ثالثه ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ معطوف على القمر وكذا الصبح أي وبالليل وبالصبح ﴿إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ وإذا ظرف للماضي أي انصرف وذهب ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ إذا ظرف لما يستقبل من الزمان واستعمل إذا نظرا إلى تأخّره عن الليل من وجه أسفر أي

١ـ الكافي، ج ١، ص ٤٣٤، وتفسير الصافي، ج ٧، ص ٣٣٩، وبحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٣٣٨.

أضاء وانكشف والصبح الفجر أو أوّل النهار والصبح والصباح بمعنى واحد وهو انفجار شعاع الشمس من الفلك الأسفل إذا ظهرت. ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جواب للقسم و﴿ٱلْكُبَرِ﴾ جمع الكبرى، والمعنى إنّ سقر لإحدى الدواهي الكبر مثل ركبة وركب وألف التأنيث مثل تائه أو المعنى أنّ آيات القرآن لإحدى الكبر في الوعيد.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ أي: منذرا مخوّفا ونصب نذيراً إمّا على التمييز أو على الحال والنذير مصدر كالنكير وعلى التمييز فالمعنى لإحدى الكبر إنذاراً وعلى الحال أي إنّها لإحدى الكبر منذرة وحذف التاء مع أنّ فعيلاً بمعنى فاعل يفرق بين المذكّر والمؤنّث لكون ضمير إنّها أو النذير بمعنى ذات إنذار على معنى النسب كقولهم امرأة لابن وتامر وطاهر أي ذات طاهر طهارة ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدل من للبشر أي: نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الجنّة والطاعة فبهداية الله أو لم يشأ ذلك ويتأخّر بالمعصية فيضلّه عن طريق الجنّة وفي الآية بيان أنّ لكسب العبد دخلا في حصول المرحوميّة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من نفوس الجنّ والإنس المكلّفين ﴿بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مرهونة عند الله بكسبها محبوسة ثابتة وأرهنته أي تركته مقيماً وثابتاً عنده، ونفس المكلّف محبوسة عند الله بما أوجبه عليه من التكاليف الّتي هي حقّ خالص له تعالى فإن أدّاها المكلّف كما وجبت عليه فكّ رقبته وخلّص نفسه وإلّا بقيت محبوسة.

وقال بعضهم: الرهينة اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم والياء للنقل من الوصفيّة إلى الاسميّة أو التاء للمبالغة وليس أي الرهينة صفة وإلّا لقيل رهين لأنّ فعيلا بمعنى مفعول لا يدخله التاء بل يستوي فيه المذكّر

والمؤنّث إلّا أن يحمل على الفاعل فإنّه يؤتى في مؤنّثه بالتاء كما قال الراغب: إنّه بمعنى الفاعل أي ثابتة ومقيمة.

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ استثناء متّصل من النفوس، وأصحاب اليمين أهل الأعمال الصالحة من المؤمنين فإنّهم فاكّون رقابهم بحسن أعمالهم ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ أي: كائنون في جنّات والتنكير لبيان أنّ الجنّات لا يوصف وصفها. ﴿يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً وقيل: المعنى فمن يتساءلون عن المجرمين عن حالهم وعن ذنوبهم الّتي استحقّوا بها النار ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ أي: أيّ شيء أدخلكم فيها من قوله: سلكت الخيط في الإبرة وذلك السؤال توبيخاً لهم.

﴿قَالُواْ﴾ أي: المجرمين مجيبين للمسائلين: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ للصلاة الواجبة بعدم إقرارنا بفرضيّة الصلاة وعدم أدائها سلكنا فيها ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ على معنى استمرار نفي الإطعام لا على نفي استمرار الإطعام، والمراد الإطعام الواجب مثل الزكاة وكانوا يقولون: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾(١) وفي الآية دلالة على أنّ الكفّار مخاطبون بالفروع ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ أي: كنّا نشرع في الباطل مع الشارعين فيه والمراد ذمّ النبيّ وأصحابه بقولهم بأنّه: شاعر أو ساحر والخوض الشروع في القبيح والباطل وما لا ينبغي ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ والجزاء حتّى ﴿أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ أي: الموت وسمّي باليقين لأنّه أمر متيقّن لا شكّ في إتيانه.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي: لو فرض هذا الأمر المحال لو اجتمع الأنبياء والملائكة على شفاعتهم لا تنفعهم تلك الشفاعة وليس المراد أنّهم

١ـ سورة يس: ٤٧.

يشفعون لهم إذ الشفاعة موقوفة بالإذن وقابليّة المحلّ، فلو وقعت من المأذون للقابل قبلت والكافر ليس بقابل لها فلا إذن في الشفاعة له، ولا شفاعة فلا نفع في الحقيقة.

وفي الآية دلالة على صحّة الشفاعة ونفعها للعصاة من المؤمنين وإلّا لما كان لتخصيصهم بعدم منفعة الشفاعة وجه قال ابن مسعود: تشفع الملائكة والنبيّون والشهداء والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلّا أربعة ثمّ تلا قوله: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وقال ابن عبّاس: إنّ محمّداً يشفع ثلاث مرّات ثمّ تشفع الملائكة ثمّ الأنبياء ثمّ الآباء ثمّ الأبناء ثمّ يقول الله: بقيت رحمتي ولا يدع في النار إلّا من حرمت عليه الجنّة ويقول الرجل من أهل النار لواحد من أهل الجنّة: يا فلان أما تعرفني أنا الّذي سقيتك شربة ويقول آخر، أنا الّذي وهبت لك وضوء ويقول آخر: أطعمتك لقمة، وآخر: كسوتك خرقة وعلى هذا فيشفع له فيدخله الجنّة إمّا قبل دخول النار أو بعده.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: أيّ شيء تسبّب لهم ولم أعرضوا وتولّوا ولم يؤمنوا بالقرآن؟ والتذكرة التذكير بمواعظ القرآن ولم نفروا عنه؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ حال من ضمير معرضين وحمر جمع حمار وهو معروف ويكون وحشيّاً وهنا هو المراد كأنّهم حمر وحشيّة هاربة من الأسد لأنّها إذا عاينت الأسد هربت منه كذلك هؤلاء الكفّار إذا سمعوا النبيّ يقرء القرآن هربوا منه وقيل: القسورة الرماة ورجال القنص أو حبالهم والقسورة فعولة من القسر وهو القهر والغلبة لأنّه يغلب السباع ويقهرها. وفي الآية من تهجين حالهم حيث كانوا يهربون من استماع القرآن شبّه سبحانه

حالهم بحال الحمير النافرة قيل: إنّ واحداً من العلماء كان يعظ الناس في مسجد جامع وحوله جماعة كثيرة فرأى ذلك رجل من الحمقاء وكان قد فقد حماره فنادى للواعظ وقال إنّي فقدت حماري فاسأل هذه الجماعة لعلّ واحداً منهم رآه فقال له الواعظ: اقعد مكانك حتّى أدلّك عليه فقعد الرجل فإذا واحد من أهل المسجد قام وأخذ في أن يذهب فقال الواعظ للرجل: خذ هذا فإنّه حمارك فإنّه فرّ من تذكرة الملك العلّام.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ عطف على مقدّر يقتضيه المقام كأنّه لا يكتفون ولا يرضون بتلك التذكرة بل يريد كلّ واحد منهم كتبا من السماء تنزل بأسمائهم أن: يا فلان آمن بمحمّدﷺ.

وذلك أنّ أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أميّة وأصحابهما قالوا لرسول الله: لن نتّبعك حتّى تأتي كلّ واحد منّا بكتب من السماء أو يصبح عند رأس كلّ رجل منّا أوراق منشورة عنوانها: من ربّ العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتّباعك.

وقيل: المعنى أنّهم يريدون من الله البراءة من العقوبة وإسباغ النعمة حتّى يؤمنوا وإلّا أقاموا على كفرهم وقيل: يريد كلّ واحد منهم أن يكون رسولاً يوحى إليه خصوصاً وأنف أن يكون تابعاً.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ردع عن اقتراحهم فإنّهم إنّما اقترحوه لا هدى وإرشاداً بل لأجل عدم خوفهم من عذاب الآخرة بسبب عدم عقيدتهم بها ومستهلكين في محبّة الدنيا. ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ ليس الأمر كذلك إنّ القرآن مذكّر والضمير في إنّه وفي ذكره راجع إلى التذكرة والتذكير لأنّها بمعنى الذكر وهو مذكّر أي تذكير للحقّ وعدل إليها للفاصلة فمن شاء أن

يتّعظ به ويتذكرّ منه وجعله نصب عينيه قبل الحلول في القبر فإنّه ممكن ذلك.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذه المشيّة في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ غير المشيّة الاولى إذ لو كانت واحدة لتناقض الكلام فالاولى مشيّة اختيار والثانية مشيّة إجبار والمعنى أنّ هؤلاء الكفّار لا يذكرون إلّا أن يجبرهم الله تعالى على ذلك وذلك مناف للتكليف ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو تعالى حقيق أن يتّقى عقابه ومحارمه وأهل أن يغفر الذنوب.

قال أنس: إنّ رسول اللهﷺ تلا هذه الآية فقال: **«قال الله سبحانه: أنا أهل أن اتّقى فلا تجعل معي إلها، فمن اتّقى أن يجعل معي إلها فأنا أهل أن أغفر له»**[1].

تمّت السورة بعون الله.

١ـ الجواهرالسنية، الحرالعاملي، ص١٧٠، ونورالبراهين، ج١، ش ص٦٦، ومسند أحمد، ج٣، ص١٤٢، وتفسير مجمع البيان، ج١٠، ص١٨٩.

فهرس الأحاديث

(أ)

اتقوا الدنيا والنساء ٢٠٣

أخوف ما أخاف على أمتي حيف الأئمة والتكذيب بالقدر والإيمان بالنجوم ٤٩

إذا تكاملت العدّتان أي عدد أهل النار وعدد أهل الجنّة ٢١٠

إذا جمع الأوّلين والآخرين جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلّهم ١٩٨

إذا رأيت الله ينعم على عبد وهو مقيم على معصية فاعلم أنّه مستدرج ٢٧٢

إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلّا فدع ٣٠٦

إذا عملت سيّئة فاعمل بجنبها حسنة فإنّها بعشر أمثالها ٢٥

إذا كان امراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم ٢٠٢

إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد ١٨

إذا كنتم ثلاثة فلا يناج اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه ٩٢

أربعة لا يجدون ريح الجنّة وإنّ ريحها ليوجد في مسيرة خمسمائة عام ٧٤

أسألك بكلّ اسم سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك ١٣١

اسمي في التوراة أحيد لأنّي أحيد أمّتي عن النار ١٦٣

أعطوا أعينكم حظّها من العبادة ١٢٥

اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ١٣٩

أكثروا من قراءة الحاقّة فإنّ قراءتها في الفرائض والنوافل من الإيمان بالله ورسوله ٢٧٧

ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام الإلظاظ اللزوم والإلحاح ١٤

إنّ ابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه ١٧٦

إنّ أدنى أهل النار عذاباً الّذي يجعل له نعلان يغلي منهما دماغه في رأسه ٤٧
إنّ الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر ٢٤٦
إنّ الربّ لينظر إلى عباده كلّ يوم ثلاثمائة وستّين نظرة ١٥
إنّ الرجل ليفتضّ في الغداة سبعين عذراء ثمّ ينشئهنّ الله أبكارا ٤٠
إنّ الرجل من أهل الجنّة ليتزوّج خمسمائة حوراء .... ٤٠، ٢٣
إنّ العبد إذا قام يصلّي فإنّ الله ينصب له وجهه للقائه ٢٣٤
إنّ العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر ٢٧٥
إنّ الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ٧٥
إن الله تبارك وتعالى أمر في كتابه في الطلاق بشاهدين ٢١٣
أنّ المشرقين رسول الله وأمير المؤمنين، والمغربين الحسن والحسين ١١
أنّ الملائكة تنزل في العنان ٣٢٨
إنّ أمّتي يكثرون سائر الأمم ٣٥
إنّ أهل الجنّة جرد مرد ٤٤
إنّ أهون أهل النار عذاباً وأخفّهم من لهشراكان ونعلان من النار ١٢٣
إنّ أوّل ما خلق الله القلم ونظر إليه فانشقّ بنصفين ٢٥٨
إنّ جبرئيل أتى ورقّاني فقال ٢٧٥
إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة ٣٥٤
إنّ فيهنّ آية أفضل من ألف آية ٥٣
إنّ كلّ معصية لله ظاهرة فهي فاحشة ٢١٢
إنّ لله تعالى في كلّ جمعة ستّمائة ألف عتيق من النار كلّهم قد استوجب النار ١٨٠
إنّ لله ثلاثمائة وستّين خلقاً من لقيه بخلق منها مع التوحيد ٢٦١
إنّ مواقع النجوم رجومها للشياطين ٤٨
إنّ هلاك هذه الأمّة إذا نطقوا في ربّهم وإنّ ذلك من أشراط الساعة ١٣٣
أنت السلام معناه أنت الّذي سلم من كلّ عيب ونقص ١٢٧

انطلقوا حتّى تأتوا فاخ موضع بين الحرمين فإنّ بها ظعينة ١٣٨
إنكم تتهافتون في النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم ١٢٧
أني أبعث أُمّيّاً في الأُمّيّين وأختم به النبيّين ١٧٣
إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ١٦
إني لا أرجو أن يكونوا شطر أهل الجنّة ٤٠
إني لأجد في التوراة أنّ الله يقول ٣٣٢
إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم ٢١٤
أهل الكفور أهل القبور ٧٠
أوّل ما افترض الله على أمّتي الصلاة الخمس ٣٠٤
إيّاك والتنعّم فإنّ عباد الله ليسوا بالمتنعّمين ٣٤٧
أيّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنّة ٢١١
أيّها الناس توبوا إلى الله فإنّي أتوب إلى الله في اليوم مائة مرّة ٢٣٢
أيّها الناس دينكم فإنّ السيّئة فيه أحسن من الحسنة في غيره ١٦٩

(ب)

البخل كفر والكافر في النار ٢٨٩
بشّر المشّائين في الظلم إلى المساجد بالنور التامّ يوم القيامة ٢٣٤
بعثت أنا والساعة كهاتين ٣٣٥
بيت المقدس أرض المحشر والمنشر ٦٣

(ت)

تزوّجوا ولا تطلّقوا فإنّ الطلاق يهتزّ منه العرش ٢١١
تفكّر ساعة خير من عبادة سنة ١٨٠

(ث)

ثلاث من أمر الجاهليّة الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء ٤٩

(ح)

حضور مجلس العلم يعني علم آداب الشريعة أفضل من صلاة ألف ركعة ٣٥٣
الحقّ المعلوم ليس من الزكاة وهو الشيء الّذي تخرجه من مالك للفقير ٣٠٤

(خ)

خرج من عندي خليلي جبرئيل آنفا فقال ٧٢
خلق الله آدم على صورته .... ١٩٦،١٣٠
الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا وهنّ أجمل من حور العين ٢٧
خيركم خيركم لنسائه ٢٢٦
خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه ٦٠

(ر)

رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر ١٥٩

(س)

السابقون أربعة ابن آدم المقتول والسابق في أمّة موسى ٣٤
سألت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ ٢٨١
سألت جبرئيل عن اسم الله الأعظم فقال ١٣٤

(ع)

عليّ وفاطمة بحران عميقان لا يبغيان أحدهما على صاحبه ١٢

(ف)

الفاحشة أن تؤذي أهل زوجها وتسبّهم ٢١٢
الفاكهة مائة وعشرون لوناً سيّدها الرمّان ٢٧

(ق)

قال الله سبحانه: أنا أهل أن اتقى فلا تجعل معي إلها ٢٧٣
قصّر ثوبك فإنّه أتقى وأنقى وأبقى ٣٥٨
قلب كلّ إنسان حيث ماله فاجعلوا أموالكم في السماء يكن قلوبكم في السماء ٥٩
قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ٣٦٠

(ك)

كان نوح النبيّ يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى الناس عامّة ٣١٠
كلّ مولود يولد على الفطرة إلّا أنّ أبويه يهوّدانه أو ينصّرانه ١٩٥
كلكم راع وكلكم مسؤولون عن رعيّته ٢٣١
الكمّل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا أربعة ٢٣٨
كنت على جبل حراء فنوديت يا محمّد إنك رسول الله ٣٥٧

(ل)

لا إله إلّا الله حصني فمن دخله أمن من عذابي ١٢٧
لا تدعوا قراءة الرّحمن والقيام بها فإنّهما لا تقرّ في قلوب المنافقين ٥
لا تساكنوني بها ولقد هممتم بما هممتم من الغدر ١٠٥
لا تطلّقوا النساء إلّا من ريبة فإنّ الله لا يحبّ الذوّاقين والذوّاقات ٢١١
لا تفضّلوني على يونس بن متّى فإنّه كان يرفع له كلّ يوم مثل عمل أهل الأرض ٢٤١
لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ٦٥
لا رهبانيّة في الإسلام ورهبانيّة أمّتي في المسجد ٨٠
لا رهبانيّة ولا تبتّل في الإسلام ٣٤٥
لا يدخل الجنّة جوّاظ ولا جعظريّ ولا العتلّ الزنيم ٢٦٤
لا يقيمنّ أحدكم الرجل من مكانه ومجلسه ثمّ يخلفه فيه ولكن تفسّحوا وتوسّعوا ٩٤
لا يكون المؤمن طعّانا ولا لعّانا ٢٦٣

لا يلقى الله أحدٌ إلّا نادماً إن كان مسيئاً أن لم يحسن وإن كان محسناً أن لم يزدد ١٩٩
لا ينبغي لحامل القرآن أن يظنّ أنّ أحداً أعطي أفضل ممّا أعطي ٣٤٣
لقد أدنيت مني النار حتى جعلت أنفثها خشية أن تغشاكم ٢٤٥
لو أنفق أحدكم مثل احد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصفه ٦٠
لو تمنّوا الموت لغصّ كلّ إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهوديّ ١٧٧
لو حبس الله القطر عن أمّتي عشر سنين ثمّ أنزل لأصبحت طائفة تقول ٤٩
لو كان الإيمان في الثريّا لناله رجال من هؤلاء ١٧٤
لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ٢٩٣
لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه ٢٤٠
ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن ٣٤٣

(م)

ما الدنيا فيما مضى وما بقي إلّا كثوب شقّ باثنين ٢٩٩
ما الميّت في قبره إلّا كالغريق المتغوّث ينتظر دعوة يلحقه ٣٢٢
ما طلعت الشمس إلّا وبجنبيها ملكان يناديان ويسمعان ١٩١
ما من حبّة من الرمّان تقيم في جوف مؤمن إلّا أنارت قلبه ٢٦
ما من نبيّ بعثه الله في امّة قبلي إلّا كان له من امّته حواريّون ١٤٦
مثل أمّتي كالمطر لا يدري أوّله خير أم آخره ١١٦
المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله ١٥٨
المسلم أخو المسلم ٤٩
من أحبّ الأعمال إلى الله ثلاثة أمر بصدقة وخطوة إلى الصلاة جماعة وإصلاح بين الناس ٢٧٢
من أحبّ قوماً على فعلهم حشر في زمرتهم وحوسب بحسابهم وإن لم يعمل بعملهم ١٤٧
من أدمن قراءة سورة الصفّ في فرائضه ونوافله صفّه الله مع ملائكته وأنبيائه ١٥٥
من أدمن قراءة سورة سأل سائل لم يسأله الله يوم القيامة عن ذنب عمله وأسكنه جنّته مع محمّد ٢٩٥
من أعطي الاستغفار لا يمنع المغفرة ٣١٣

من اغتسل يوم الجمعة فأحسن غسله ولبس صالح ثيابه ١٨٠
من أكثر الاستغفار جعل الله له من كلّ همّ فرجاً ومن كلّ ضيق مخرجاً ٢١٤
من أكثر قراءة قل أوحي لم يصبه في حياة الدنيا من أعين الجنّ ٣٢٥
من الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرء في ليلة الجمعة بالجمعة ١٧١
من آمن بي وصدّقني فقد رعاها حقّ رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون ٧٩
من تقدّم إلى ولا يتنا أخّر عن سقر ومن تأخّر عن ولا يتنا تقدّم إلى سقر ٣٦٧
من حافظ عليها كانت له نوراً أو برهاناً أو نجاة يوم القيامة ٣٠٦
من ذكر الله في السوق مخلصاً عند غفلة الناس وشغلهم بما فيه ١٨٠
من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ١٥
من قتل نفساً معاهدة لم يرح رائحة الجنّة ٩
من قرء القرآن أقلّ من ثلاث لم يفهمه ٣٤٢
من قرء سورة الحشر فإن مات في يومه أو ليلته مات شهيداً ١٣٥
من قرء سورة ن في فريضة أو نافلة آمنه الله أن يصيبه في حياته فقر أو أعاذه من ضغطة القبر ٢٥٧
من قرأ إذا أمسى الرّحمن والحشر وكّل الله بداره ملكاً شاهراً سيفه حتّى يصبح ١٠٣
من قرأ الحشر لم يبق جنّة ولا نار ولا عرش ولا كرسيّ ولا حجاب ١٠٣
من قرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام لم يمت حتّى يدرك القائم ٥٣
من قرأ الواقعة قبل أن ينام لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر ٣١
من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ٢٥٨
من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار فقبض تلك اليوم أو الليلة فقد استوجب الجنّة ١٣٥
من قرأ سورة التغابن في فريضته كانت شفيعته يوم القيامة ١٩٣
من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة فريضة أدمنها ٥٣
من قرأ سورة الرّحمن رحم الله ضعفه وأدّى شكر ما أنعم الله عليه ٥
من قرأ سورة الواقعة كتب أنّه ليس من الغافلين ٣١
من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً ٣١

من قرأ سورة عبس كان عيسى مستغفراً له مادام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه ١٥٥
من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الّذين تدركهم دعوة نوح ٣٠٩
من قرأ في الفريضة سورة المدّثر كان حقّاً على الله أن يجعله مع محمّد ٣٥٧
من قرأ هذه السورة في فرائضه ونوافله امتحن الله قلبه للإيمان ١٣٧
من قرأها أعطاه الله توبة نصوحاً ٢٢٣
من قرأها بريء من النفاق ١٨٣
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا تدع أن يقرء سورة إنّا أرسلنا ٣٠٩
من كنت مولاه فعليّ مولاه ٢٩٦
من نظر إلى أخيه المؤمن مودّة لم يكن في قلبه إحنة ١٤٣

(ن)

ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم ٢٣١
النافلة هديّة العبد إلى ربّه فليحسن أحدكم هديّته وليطيّبها ٦١
نحن قوم فرض الله طاعتنا ولنا الأنفال ولنا صفو المال ١١١
نحن والله الّذين عنى الله بذي القربى الّذين قرنهم بنفسه ١١١
نزل جبرئيل إلى قرار الأرض فتوضّأ وتوضّأت ثمّ صلّى وصلّيت معه ركعتين ٢٥٩
النظر في المصحف والتفكّر فيه والاعتبار عند عجائبه ١٢٥

(و)

والّذي نفس محمّد بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً ١٨١
والله لقد سمعت من محمّد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ ٣٦٢
ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة ٢٨١
ومن قرء سورة الجنّ أعطي بعدد كلّ جنّي وشيطان صدّق بمحمّد وكذّب به عتق رقبته ٣٢٥
ومن قرء سورة الطلاق مات على سنّة رسول الله ٢٠٩
ومن قرء سورة المزّمّل دفع عنه العسر في الدنيا والآخرة ٣٣٩

ومن قرء سورة تبارك فكأنّما أحيا ليلة القدر ٢٣٩
ومن قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة ١٩٣
ومن قرأ سورة الجمعة أعطي عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ١٧١

(ي)

يحشر المرء في ثوبيه اللّذين مات فيهما ٣٥٩
يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار وينظر بعين شيطان ٩٨
يذبح الموت بين الجنّة والنار على صورة كبش ٢٤٠
يذهب الصالحون الأوّل فالأوّل ويبقى حثالة كحثالة الشعير والتمر لا يبالي بهم الله ١٤٧
اليمين أمير المؤمنين فأصحاب اليمين شيعته ٣٦٨

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد (صلى الله عليه وآله)، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).

١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).

١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـق).

١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحرّاني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبي النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعاني، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان وروح الجنان في تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن على الرازي.
٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.
٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).
٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).
٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبدالله محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).
٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).

٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).

٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.

٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).

٤٤ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.

٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).

٤٦ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).

٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).

٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).

٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)

٥١ـ ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)

٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)

٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).

٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).

٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).

٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).

٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).

٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).

٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).

٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).

٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).

٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٦٦ـ روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).
٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).
٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).
٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).
٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).
٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.
٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.
٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).
٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).
٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).
٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).
٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).
٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزيه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).
٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).
٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).
٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)
٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزيّة، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).

٨٧ـ عيون أخبار الرضاعليه السلام، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).

٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).

٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).

٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمةعليهم السلام، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).

٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٩٤ـ فلاح السائل ونجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدبن أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريّا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).

٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).

٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).

٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).

٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).

١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).

١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).

١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).

١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).

١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).
١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).
١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

سورة الرحمن ٥

سورة الواقعة ٣١

سورة الحديد ٥٣

سورة المجادلة ٨٣

سورة الحشر ١٠٣

سورة الممتحنة ١٣٧

سورة الصف ١٥٥

سورة الجمعة ١٧١

سورة المنافقون ١٨٣

سورة التغابن ١٩٣

سورة الطلاق ٢٠٩

سورة التحريم ٢٢٣

سورة الملك ٢٣٩

سورة القلم ٢٥٧

سورة الحاقة ٢٧٧

سورة المعارج ٢٩٥

سورة نوح ٣٠٩

سورة الجن ٣٢٥
سورة المزمل ٣٣٩
سورة المدثر ٣٥٧
فهرس الأحاديث ٣٧٥
المصادر ٣٨٥
المحتويات ٣٩١